العنف المُقَنّع

العنف السياسي ـ العنف الاجتماعي ـ الدين و العنف

العنف المُقَنّع

العنف السياسي ـ العنف الاجتماعي ـ الدين و العنف

تأليف: ندا ذبيان

عنوان الكتاب : العنف المُقَنّع
(العنف السياسي ـ العنف الاجتماعي ـ الدين و العنف)
المؤلف: ندى ذبيان.
سنة الطباعة: **2013.**
كمية الطباعة: **1000** نسخة.
الترقيم الدولي: **7- 016- 22- 9933- 978 ISBN.**

جميع العمليات الفنية والطباعية تمت في:

دار مؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار مؤسسة رسلان

للطباعة والنشر والتوزيع

سورية ـ دمشق ـ جرمانا

هاتف: 0963 11 5627060

تلفاكس: 0963 11 5632860

ص. ب: 259 **جرمانا**

www.darrislan.com

إهداء

إلى الذين يمقتون العنف .

إلى كل من يقول لا للدماء

إلى الضحايا الأبرياء .

المقدمة:

العنف هو ذلك الواقع المزري الكريه، هو الظل الداكن المدمر الذي يخترق أعماق النفوس ويهشم المشاعر الرقيقة، لتتشكل عند كل إنسان مرهف الإحساس نوبات من الألم ومن القلق والكآبة، وهذا التوتر ليس إلا تعبيراً عن رفض القسوة والإجرام. ولكن ما الذي يجعل سلوكيات العنف تتزايد، فنرى المجتمعات تغرق في عشوائية القسوة، والمحصلة مزيداً من الرعب، مزيداً من الدماء، ومزيداً من الإحباط. فلا يمكن لأي إنسان عَرِفَ معنى الإنسانية أن يبقى منشغلاً بأموره السطحية متناسياً هذا الواقع المذموم ! فقضية العنف تهم كل الناس والجماعات والمؤسسات والدول، الكل مسؤول عن تنامي العنف والتطرف؛ ولا أحد يضمن سلامته أمام هذا الواقع المزري، وهذا الجنون. ولكن على ما يبدو أن الإنسان أصابه الغرور، وتحكمت في مصيره الأنانية، وبات العالم محكوم بقوانين الغابة، ولعل قوانين الغابة أرحم بكثير من هذه العِدائية ومن هذا الحقد المدمر، وهذا العنف الكريه الرائحة والصورة، هذا العنف المُقَنّع المتخفي خلف شعارات مضَلِلة، فكم من الحروب التي حصدت المئات من الأبرياء والعزل اندلعت على وقع خُطب تنادي بحقوق الإنسان والديمقراطية والحرية. وأي حرية!. وما هذه البندقية - التي تُقدم للشعوب كهدية- إلا كالطعم الذي يُقدم للسمكة، فواهب السلاح له غايات ومصالح ذاتية، ولن يقيم وزناً لنفوس بريئة قد تزهق.

ومن منا لا يأسف، أو لا يتأثر، أمام هذا الكم من مشاهد العنف، وكيف يمكن أن تصبح أخبار القتل والدماء! أصداء، كل يوم بلا خجل تتردد.

هـذه الحضـارة المعاصـرة المبتـورة، عملـت علـى صـقل المعـايير الاجتماعيـة بمـا يختص بالتمدن واللياقة والتهذيب، ولكنها لم تضع المعايير للحد مـن التنكيـل والتعذيب، ولوقف كـل أشـكال الفـتن والترهيـب. أيـن هـي الحريـة! أو الطريـق للحرية! وهل الحرية تُبنى على الظلم والتخريب!.

العدوان يبدأ، حين يتم تحريض الشباب على الثورة، ويُقدم السـلاح كباقـات للمقـاتلين المتحمسـين، لأفكـار مثـل الحريـة، وتحقيـق الرفاهيـة؛ وأي رفاهيـة مزعومـة؛ فحـين تنـدلع الحـرب، حتمـاً تكـون النتـائج كارثـة مقـززة، كـان يمكـن تفاديهـا، فـلا المـال يبقـى، ولا السـكن ولا الغـذاء. والسـجلات حافلـة بمشـاهد حـروب لم تقـدم غـير المجـازر المروعـة، والعـوز والـدمار؛ ولقـد آثـرت الابتعـاد عـن سـرد ووصـف كـل مـا هـو مأسـاوي ودمـوي، وكـل تلـك الوقـائع المقززة التي تسبب الألم إلى حد الغثيان؛ رغم وفرة المادة في الكثير من الكتب وعلى صفحات الجرائد وعلى الشاشات؛ فلا أريد أن يصيب القـارئ مـا أصـابني مراراً من ضيق وتوتر نتيجة هذه الصور المروعة التي تُعرض على الملأ.

ولكن حين تُفرض الحرب فرضـاً، كيـف لنـا أن نصـدها، ونكسـر شـوكتها المسـمومة. وهـل مـن الممكـن مواجهـة الحـرب بغـير الحـرب؟ بغـير الهـلاك؛ مـع الحروب دائماً يضيع الأمان، مما يرمي الجماعات وسط دوامة العنف محبطين كـارهين لمـا يحصـل، ولا يجـدون سـبل الخـلاص لأن القـرار لـيس بـين أيـديهم. ولهـذا كـان العتـب وتوجيـه اللـوم إلى الأقويـاء وأصـحاب القـرارات، لا إلى الضعفاء.

وعلـى مـا يبـدوا أن شـرعة حقـوق الإنسـان عنـدها قصـر نظـر، والـدعوات إلى تحقيـق العدالـة وحفـظ الحقـوق، وإلى السـلام ليسـت سـوى أوهـام، والحريـة المزعومة ليست حرية، ما دامت خاضعة للمزاجية في إصدار الأحكام؛ فالحرية ليسـت نـزوات أو رغبـات أو مصـالح فرديـة وأنانيـة، والحريـة لا تكمـن في

الإكراه على الفعل، ولا في الطواعية المطلقة للغوغائية، أو الفوضى الهوجاء العمياء، الحرية لا تتعدد وجوهها حسبما نشاء، ولا تتغير مواقعها حسب ظروف الساعة والمكان، الحرية الحقيقية هي الالتزام بالقانون وبالقيم، وتغليب لغة التفاهم والحوار على لغة الهدم والهيمنة والتفرد في أخذ القرارات.

ومن المؤكد أن كل شعوب العالم تعيش الرعب والقلق، لأنها تعرف حقيقة هذا الكم المدمر من ترسانات الأسلحة المتطورة، والنووية، والتي تمتلكها معظم تلك الدول التي تنادي بالعدالة والسلام. وأي سلام هو هذا السلام الخاضع لمزاجية شخص، أو أشخاص، قد تقودهم عنصريتهم إلى تدمير العالم في أي لحظة. وأي سلام يمكن الحديث عنه وما يزال السباق جارياً للمزيد من التطوير لهذه الأسلحة المرعبة.

هذه العبقرية العلمية لم تكن للتقدم والرفاهية، ولم تحقق السعادة والاستقرار، بقدر ما ساهمت في خلق أبشع أشكال الرعب والدمار؛ رعب السلاح، رعب السياسة المهيمنة على العالم والتي تريد طمس معالم الأقليات، وتشويه الحضارات، ورعب الإدمان والمخدرات والمنشطات، ورعب الغذاء المُصنع المغشوش، ورعب مخاطر الأدوية الفاسدة، وغيرها من الانتهاكات؛ هذه العبقرية بوجهها الآخر المقيت، ما كانت إلا لصالح كبرى شركات التصنيع، والمستفيدين من صفقاتها؛ هؤلاء الباعة هم الذين أغرقوا العالم بالديون، ولم يقدموا للدول الفقيرة أو النامية غير المزيد من الاستعمار، ومن العنف، ومن العوز، ومن الدمار.

وأخيراً في هذه المقدمة، لا بد من القول أن موضوع العنف ما كان ولن يكون من المواضيع المحببة لنا، ولكن هذا الواقع القاتم المرير فرض نفسه عنوة علينا، وبات المشكلة الأكثر إلحاحاً في هذه الأيام. ولا آبه إذا كانت وسائل هذا البحث متواضعة، فخير لنا أن نساهم ولو بالقليل، أفضل ألف مرة من

البقاء في ظلام الصمت المرير. أسئلة كثيرة باتت بحاجة إلى جواب؛ ما أصل هذا العنف، وما هي أسبابه؟ وأي نوع من الناس أولئك الذين يشاركون في القتل والتعذيب والبتر والتشويه! وما الحرب والإرهاب؟ ولماذا يُستغل الدين؟ وما السياسة والديمقراطية والعدالة؟ وهل هذه المفاهيم يتم تطبيقها! أم هي مجرد شعارات براقة لا تعبر عن معانيها؛ عند ما يسمى بالنظام العالمي الجديد المهيمن على العالم. ولكن هل هذه الهيمنة استطاعت أن تحد من العنف؟ إن ما يجري اليوم له أصل وسياق متواصل في التاريخ، وهو نتيجة تفاعلات، وجملة مصالح، وتلك الأحداث التي وقعت منذ سنوات تتكرر ولكن باختلاف في التسميات.

ولعل الحل الوحيد لخلاص العالم من هذه القسوة الشريرة، هو المطالبة بالعدالة، والعودة إلى الفضيلة، فلا يمكن التخاذل أمام الأشرار. والرجاء أمام الله لكي ينجينا من هذا العنف الشيطان الذي يلتهم كل شيء، حتى الطفولة والبراءة.

الفصل الأول

منافذ العنف

هذا العنف الشيطاني الذي يُرعب العالم اليوم، يطل من كل الأبواب، أبواب السلاح المدمر، وأبواب الأدوية الفاسدة، والأغذية المغشوشة، والاحتيال، والإدمان، والإباحية، والتكفير، والتعصب بكل أشكاله...وغيرها من المنافذ؛ ليُترك الإنسان أسير الخوف والقلق. "فالتقرير العالمي الأول عن العنف (والمنشور في 3 أكتوبر عام 2002) كان يحمل أنباءً لا تسر- إذ يعاني ما يزيد عن 1،6 مليون إنسان من موت عنيف سنوياً، وبمعدل وسطي يُقتل ما يزيد عن 1،400 إنسان يومياً؛ ويقتل 35 إنسان كل ساعة تقريباً جراء نزاع مسلح." [1] وهذه النزاعات لم تتوقف وقد ارتفعت خلال السنوات الماضية لتحصد المزيد من الأبرياء. والعنف يطال كل المجموعات البشرية في بيئاتهم المختلفة، والجرائم الفردية موجودة في أكثر المجتمعات تطوراً؛ وإذا قمنا بالبحث عن حقيقة الأمر وعن الأماكن التي ترتفع فيها معدلات الجريمة، نجد أن أرقى الدول وأكثرها حديثاً عن سيادة القانون، وعن الدعوة لرفع الظلم، تتصدر القائمة من حيث الجرائم التي ترتكب على أراضيها. ففي الولايات المتحدة الأمريكية مثلاً - باعتبارها من أكثر الدول المتحدثة باسم الديمقراطية في العالم - بلغ معدل جرائم القتل فيها ما نسبته 4,8 ٪ عام 2010، أو 14478 لكل 100 من السكان، وهذا المعدل أعلى من المتوسط؛ وماذا تعني هذه

---

[1] العنف والديمقراطية، ص 12.

الأرقام في دولة قوية وتملك قدرات مادية تمكنها الحد من الجرائم! بدل تركيز كل قدراتها لمكافحة الجرائم في دول أخرى؛ وهذه الدولة تتصدر القائمة في خوض الحروب والهيمنة على دول ذات استقلال وسيادة، مما يزيد من حدة النزاعات والتطرف بين الجماعات؛ وهذا التدخل يُعتبر مخالفة للقوانين الدولية.

ويحتوي الإعلان العالمي لعام 1948 بالإضافة إلى مجموعة من الحقوق الفردية على حقوق اجتماعية مثل الحق في الأمن، والصحة، والتعليم، والغذاء، فأين هي هذه الحقوق، والحرمان في بعض الأماكن لا يزال واضحاً!

وماذا نقول حين نعلم أن الإنفاق على الحروب وعلى السلاح في العالم اليوم، يفوق بكثير الإنفاق على المجاعات، وأن المساعدات انخفضت معدلاتها بنسبة 45٪ منذ 1990. وتتضح مسألة العنف بشكل أكثر وضوحاً أثناء الحروب فهذه الدول المتحضرة تصرف على آلات الدمار أكثر مما تصرف على الغذاء أو الدواء، وتنفق على البحوث العسكرية ضعف ما تنفقه على البحوث العلمية. ودول العالم الثالث تخصص أقل من 10٪ من ميزانيتها للزراعة بينما تُضاعف ميزانية الإنفاق العسكري. " فبين عام 1963 وعام 1969 بلغت تكاليف سباق التسلح النووي بين الدول الكبرى، خمسمائة مليار دولار، عدا عن تكاليف الاكتشافات الفضائية. وقس على ذلك نسبة التكاليف اليوم. ولقد أصبح عند الدولتين العظمتين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي قوة عسكرية نووية بإمكانها قتل مائتي مليون إنسان خلال الساعتين الأوليين لاندلاع الحرب بينهما... وكل ما يجري اليوم من مفاوضات حول نزع السلاح النووي وتحديده لا يتجاوز حد مطالبة كل جهة بأن تخفض قوة التفجير الذري بشكل ينخفض فيه عدد ملايين القتلى إلى جهة معقولة." [2] فهذه المفاوضات

---

[2] الإرهاب السياسي ص 168.

ماذا تعني! فقط تخفيف عدد القتلى؟ وفي أي أماكن من العالم يسمح بالقيام بهذه المصائب! ولعل النظرية **المالتوسية** القائلة بأن الكوارث والحروب هي نعمة للحد من الزيادة المفرطة في عدد سكان العالم، هي النظرية المفضلة عند أصحاب النزعة الرأسمالية الأنانية! ولا يتم تفريغ العالم من سكانه إلا عن طريق إغداق السلاح والسموم على الجماعات التي يراد تصفيتها وتقويض حضارتها ووضع اليد على مدخراتها ومواردها.

والحقيقة الكامنة وراء كل ذلك أن هناك مخلوقات بشرية لا تحمل أي سمة من سمات الإنسانية، ولا تعرف الحق، تتخفى خلف هذه الشعارات الملفتة عن التقدم والمساواة، لتتهم بعض الشعوب الفقيرة والمستضعفة بالعنف والجهل والغباء دون غيرها، لتنفيذ سياساتها الاستعمارية. جميلة هي الديمقراطية، ولكن إذا تحققت بالفعل لا بالشعارات، وما هذه الديمقراطية المزعومة إلا الوجه الآخر للديكتاتورية. وإذا كانت هذه الحضارة المبهرة لن تؤمن رفاهية البشر ولن تحقق الأمان والعدالة، ولن تقضي على مخاطر الأمراض، تصبح الحضارة هذه وبالاً وعاراً على البشر. وما قيمة هذه الحضارة التي تجعل العلاقات الإنسانية خاضعة لإرادة الشخص الأقوى على صعيد المال والسلاح، لا على صعيد الفكر والخُلق. فالكارثة الحقيقية التي تحل بالعالم اليوم، تتمثل بتسليم مراكز القرار لأشخاص تستثار دوافعهم بسرعة، أو لأشخاص لم يحتكموا يوماً للمنطق والتبصر بعواقب الأمور. وهل يجوز ترك المبادرات وأخذ القرارات لأشخاص قد تاهوا عن معرفة الحقيقة، أو غرقوا في دوامة العبث والإدمان! وما قيمة هذه الحضارة التي تملك القدرة على تدمير العالم وكل التراث الماضي والحاضر بلحظات عن طريق الإشعاع؛ هذا هو الواقع الذي لا يترك للعقلاء مجالاً للتغاضي عن ما يجري! ولكن أي فكر وأي عقل سيتمكن من ردع هذا المد الهائل من الجنون.

أصل العنف

هذه المسألة عن أصل العنف ومسببات العنف نوقشت مراراً وتكراراً منذ بداية التاريخ، فالشر لم يكن من طبيعة **آدم** - الإنسان الأول- وخروج آدم من الجنة كان بسبب استماعه لصوت إبليس الذي حضه على مخالفة وصية **الرب**، وهذه المخالفة لتعاليم الرب أوقعت آدم في الخطيئة، وبسبب مخالفة المخلوق لتعاليم الخالق، وبسبب الخطيئة حلت اللعنة على الأرض وسقط الإنسان في جهنم الشر. وكانت أول وأبشع جريمة، جريمة قتل **قابيل** لأخيه **هابيل** بسبب الغيرة والحسد؛ فحينها نزلت لعنة **الله** على قابيل، وكُتب على الإنسان الموت. وبعدها كثر الشر بين البشر، وبما أن الشر لم يكن ما أراده الرب من خلق الإنسان: **(فقال الله لنوح نهاية كل بشر قد أتت أمامي، لأن الأرض امتلأت ظلماً منهم، فها أنا مهلكهم مع الأرض.)**"(سفر التكوين- الإصحاح السادس). وكان الطوفان كعقاب من **الله** على فساد البشر.

جميع البشر هم من طبيعة آدمية واحدة، إلا أن الطبيعة والمذاهب وأنماط الحياة فرقتهم، ولكنها لم تغير تكوينهم الجسدي والنفسي، فما زالت همومهم مشتركة.

ومنذ بداية التاريخ اجتمعت كل المذاهب في البحث عن أصل الشر، الهندية والمانوية والبوذية والزردشتية وصولاً إلى الأديان الابراهيمية اليهودية والمسيحية والإسلام. وتوحدت النظرة إلى الشر، فأصل الخير بالنسبة للجميع هو **الله**، وأصل الشر هو الإرادة الحرة أي إرادة الإنسان فقط؛ وهذا العالم هو مسرح للصراع بين الخير والشر، وبين الظلام والنور، فالحكيم يختار الخير، والأحمق يختار الشر؛ ولكن كل الرسالات السماوية تقول أن ثمة حساباً بعد الموت لمن يختار الشر.

هيغل يعتبر أن معرفة الإنسان المسبقة لإمكان الموت تجعله مستعداً للمجازفة بحياته، وتضعه في حالة صراع مع الآخر الذي يهدد وجوده، فالعنف ينبع من الخوف، ومن الكره، ومن الرغبة في السيطرة على الآخر، ومن كل ما يهدد وجود الإنسان أو يعرضه للخطر. " أما بالنسبة **لفروم** فغريزة الموت هي الإمكانية الثانوية التي تشكل الوجه المنحرف لغريزة الحياة. إذ أنها تنشأ عبر الإخفاق في حب الحياة. وفي هذا السياق يذهب فروم إلى أن هناك اتجاهين داخل النفس الإنسانية: اتجاه يناهض كل ما هو حي وينجذب نحو الموت ويميل إلى القتل وعادة القوة والسادية، ويسميه النيكروفيلي Nicrophilia والشخص النيكروفيلي من وجهة نظر فروم يميل إلى كل ما هو ميت أو عفن، ويعشق كل ما يتصل بالموت والفناء والمرض والقتل والدمار، وينجذب نحو الظلام والليل والأماكن المقفرة، وهو شخص سادي يقدس القوة، ويكره الضعف ويتلذذ بعذاب الآخرين. ويمكن اعتبار هتلر مثالاً نموذجاً لهذا النمط الكاره للحياة، فقد كان مفتوناً بالدمار، عاشقاً لرائحة الموت، تسحره مشاهد التعذيب والقتل." [3]

وإذا كان هناك من يدعي بأن العنف فطري عند الإنسان، وبأن الناس بطبعهم أشرار، فهذا الادعاء لم يتم تثبيته بالبراهين الصحيحة، فمعظم الناس يصيبهم الهلع من الأفعال العدوانية والعنيفة، ومعظمهم يستنكر ويدين الجرائم والأعمال المنافية للأخلاق. فالعيوب التي تمس الأكثرية من الناس تعود إلى ظروف معيشتهم، فينبغي عدم الاستخفاف بمخاطر التسلط والإذلال والتشرد، فهذا الخوف على المصير وهذه الرغبات المكبوتة يمكن أن تتسبب بأحداث عنف جماعية، أو جرائم فردية.

---

[3] مجلة عالم الفكر، المجلد36، ص 95.

وكـل الدراسـات تتشـابه مـن حيـث التأكيـد علـى أن العنـف هـو مـن منبـع اجتماعي. والميل إلى العدوان والطباع الموروثة تتشكل بحسب المعطيات الخاصة بكـل بيئـة، فـالعنف في الإجمـال مكتسـب، وخاضـع لمسببات تقـع خـارج إرادة الأشـخاص. بـدليل أن المـادة الأولى مـن الشـرعة العالميـة لحقـوق الإنسـان تقـول: " **كل بني البشر يولدون أحراراً أو متسـاوين، ونحـن لا يمكننـا التطلـع إلى علـم الوراثة لمساعدتنا في شرح العنف والظلم. إن العنف ليس مولوداً، إنه مصنوع".**

تعريف العنف

العنف يعني الشدة، وهو ضد الرفق، وعكس الهدوء؛ ويعني كل الأعمال التي تتمثـل باسـتعمال القـوة. ونتيجتـه إنـزال أذى بأشـخاص أو ممتلكـات، وهـو ذو طابع فردي أو جماعي.

"يقـدم روبـرت بـراون Robert M Brown تعريفـاً مطـولاً للعنـف بوصـفه انتهاكاً للشخصية بمعنى أنه تعد على الآخر أو إنكاره أو تجاهله مادياً أو غير ذلك، فأي سلوك شخصـي ومؤسسـاتي يتسـم بطـابع تـدميري مـادي واضـح ضـد آخر يُعـد عمـلاً عنيفـاً". بـراون يقـترح تحـولاً في الـتفكير بخصـوص العنـف، مـن العنف الذي ينبع من الفرد (الجسد والروح) إلى العنف الناتج عـن علاقـة مؤذيـة (الظلم) بين الأشخاص. يفيـد هـذا التحـول في الإفصـاح عـن التعقيـد الاجتمـاعي للسلوك العنيـف وفي علاجـه. لكنـه لا يُعـالج مسـألة ممارسـة الشـخص للظلـم، وهـذه مسـألة حاولـت ثنائيـة الجسـد- الـروح معالجتهـا، فـلا يكفـي أن نضـع جانباً نقاش العنف بوصفه داخلياً في ثنائية الجسد- الروح ومـن ثـم نتحـول إلى مناقشـته بوصـفه خارجيـاً وتركيبيـا. إن الأفـراد جـزء مـن إسـهام التركيـب ويسهمون فيه. يصبح مشروع بـراون غـير مكتمـل مـن دون انتروبولوجيـا قصـدية

معدلة تحل محل ثنائية الجسد- الروح. ومن دون فهم المرء لحافز القيام بالظلم." [4]

وليس لمفهوم العنف معنى موحد بين الشعوب، فما يمكن أن يُعتبر جريمة عند بعض الجماعات قد لا يكون كذلك في مفهوم جماعات أخرى. "ويختلف الباحثون في تكييف طبيعة أهداف العنف، فيرى البعض أن العنف عمل غير شرعي، ولذلك هو ظاهرة سيئة وغير مرغوب فيها، ولا يقرها الوعي الجماعي؛ بينما يرى آخرون أن العنف وسيلة شرعية لتحقيق أهداف شرعية. فقد لا يوجد طريق سوى العنف للتخلص من أوضاع ظالمة وبائدة ومختلة؛ على سبيل المثال حق الشعوب أن تستخدم العنف لتحقيق استقلالها، أو للتخلص من الهيمنة الأستعمارية." [5]

وهناك فرق كبير بين العنف الناتج عن ردود الفعل الغاضبة وبين الجريمة المدبرة، فردود الفعل الغاضبة تزول عند زوال أسبابها، أما الجريمة المدبرة فهي ناتجة عن انحراف وبغض تدميري وانتهاك للقيم، وتمثل تهديداً. ولهذا اختلف العلماء في تحديد المقصود بالجريمة؛ "فذهبت المدرسة التقليدية إلى تعريف الجريمة بأنها الفعل أو الامتناع عن الفعل الذي يجرمه المشرع بنص من نصوص قانون العقوبات ويقرر له جزاءً جنائياً". وقد انتُقد هذا التعريف لأنه مفرط في الشكلية، فالفعل وفقاً لهذا الرأي لا يكون جريمة إلا إذا اعتبره المشرع كذلك. بينما أن المشرع في الواقع لا يتدخل بتقرير العقاب على ارتكاب فعل معين إلا لأنه في نظره يكون جريمة. وبعبارة أخرى فأن الوجود المادي للجريمة يسبق من الناحية المنطقية وجودها القانوني. وتجنباً لهذا النقد رأى بعض الفقهاء – وعلى رأسهم فقهاء المدرسة الوضعية تعريف الجريمة بأنها

---

[4] الأنماط الثقافية للعنف، ص 37.

[5] ظاهرة العنف السياسي، ص 51.

كل فعل أو امتناع يتعارض مع القيم الأخلاقية السائدة في المجتمع. وقد انتُقد هذا الرأي بدوره استناداً إلى عدم وجود تطابق بين القانون الجنائي والأخلاق، فإذا كانت هناك دائرة مشتركة بينهما حيث يُجرم القانون أفعالاً تُعد مخالفة لقيم أخلاقية سائدة، إلا أنه أحياناً توجد أفعال أخرى تتعارض مع هذه القيم ولا يقرر لها القانون عقاباً، فهذا الرأي - كما قيل- لا يضع تعريفاً للجريمة وإنما يضع تعريفاً لما يجب أن يكون جريمة." [6]

والعنف يمكن أن يكون جماعياً أو فردياً. وجسدياً أو نفسياً، فالعنف الجسدي يظهر بوضوح على الجسد من خلال الضرب أو الخنق أو الحرق، وغيرها من العلامات الواضحة. أما العنف النفسي فلا يقل خطورة عن العنف الجسدي، فهو يسبب الأذى من خلال التخويف والاستغلال والقمع، مما يؤثر سلباً على الوظائف السلوكية للإنسان وتكون نتائجه مدمرة فيصبح المتضرر عصبي المزاج عدواني غير قادر على التحكم بردود أفعاله، وغير قادر على التركيز في معظم الأحيان.

فموضوع العنف يتطلب دراسة شاملة لا تقتصر على تصوير طبيعة الجريمة، أو وصف سلوك المجرم وطريقة الإيقاع بالضحية، ولا يكفي تحديد عقوبة الجاني فقط دون معرفة العوامل المسببة لدافع القيام بالجريمة، فالعنف دوامة لا يمكن محاصرتها من جهة واحدة.

ويقسم العنف إلى قسمين: **العنف الفردي**، وهو حالات العنف التي يقوم بها أفراد لدوافع فردية. **والعنف الجماعي** وهو العنف الناتج عن الحروب والثورات وهو موجود في يومنا، وفي مختلف الحضارات؛ ولكن العنف اليوم لحق بتطور التقنيات وبات أشد فتكاً مما كان.

---

[6] مبادئ علم الإجرام وعلم العقاب، ص، 14.

آليات العنف

"تشير بعض الدراسات الحديثة إلى أن آليات العنف الفزيولوجية قلما تختلف باختلاف الأفراد والثقافات، وقد رأى أنطوني ستور في كتابه العدوان الإنساني أن ليس ما يشبه هراً أو إنساناً في حالة الغضب مثل هر أو إنسان آخر في حالة الغضب" [7] " إن رغبة العنف متى استيقظت أحدثت في صاحبها تغييرات جسدية تعده للقتال. ومع أن هذا الاستعداد للعنف محدود الأجل، فلا يصح أن نرى فيه مجرد ارتكاس (REFLEXS) تتوقف مفاعيله بتوقف عمل المحفز لأن تهدئة رغبة العنف حسبما يشير ستورز هي أصعب من إثارتها بكثير خصوصاً في ظروف العيش العادية داخل المجتمع. وغالباً ما يوصف العنف باللاعقلانية مع أن المسوغات العقلية لا تعوزه" [8]

وعلم النفس الحديث أنكر وجود إرادة حرة لدى الإنسان، فالعمل الإجرامي لا يصدر عن وعي وتعقل؛ ولكن هذا لا يعني أن الضعف العقلي يؤدي إلى ارتكاب جرائم، فهناك العديد من الدراسات التي طُبقت على مجموعات من أفراد اتصفوا بأنماط سلوكية ما يمكن اعتبارها ضعفاً عقلياً، ومع ذلك لم يرتكب هؤلاء الأفراد جرائم خطيرة، ولكن حالات الضعف العقلي تتسم بنوع خاص من الانحرافات - بسبب نقص الإدراك، أو الوعي - كالتسول والتشرد أو الاستغلال في الدعارة وما إلى ذلك. وهناك نوعان من العنف مختلفان من حيث الآلية: العنف الفردي، والعنف الجماعي. ويمكن تقسيم العنف الفردي إلى قسمين أيضاً: قسم يقوم به أفراد بطريقة عرضية عن غير سابق تخطيط، أو عن غير قصد، فالجاني في حالة الدفاع عن النفس أو ثورة

---

[7] العنف والمقدس ص 18.

[8] العنف والمقدس ص 19.

الغضب لم يكن قد خطط مسبقاً للنيل من الضحية. والقسم الآخر يقع ضمن خانة الجرائم المنظمة، والجريمة المنظمة هي أخطر بكثير من الجريمة العرضية.

وهناك دائماً علاقة سببية بين العنف والخوف، والعنف والغضب، أو العنف والإدمان. ولكن العدائية الفردية تبقى في مجال يمكن السيطرة عليها والحد من مخاطرها، فهناك رجال الأمن، والمحاكم والسجون، والوازع الديني أو الأخلاقي.

عكس العنف الجماعي الذي يصعب السيطرة عليه، وهذه المنظمات العالمية التي تعلن أنها تكافح من أجل السلام والاستقرار، إنما تكافح في معظم الأحيان من أجل مصالحها الخاصة، وكثيراً ما تتجاهل هذه المنظمات أعمال العنف التي تحصد الآلاف من البشر إذا كانت هذه المجازر تقع في مناطق محكوم عليها من قبل هذه المنظمات بالتهميش والاستبعاد، وكأن هناك مجموعات تستحق العيش الكريم والعدالة، بينما يستحق غيرها الإبادة والحرمان.

ومن الواضح أن السلوك الإجرامي هو عمل يشبه بالضبط الطبيعة الحيوانية الشرسة. والإجرام عمل يلزمه تخطيط وتربص للضحية. والإنسان المسالم نادراً ما يستطيع التخلص من الجاني لأنه لا يمتلك ردود فعل عدوانية، وهو لا يتوقع التعرض لاعتداء. فالمُسالم لا يعرف المكر، بينما الهجومي أو الجاني، يعرف كيف يدافع عن نفسه، وكيف ينال من الضحية - إلا إذا لم يحالفه الحظ في تنفيذ مخططاته. " ولا بد لنا من ذكر التمييز العام والواسع الذي يجري عادةً بين ما نسميه "بالعدائية العرضية" و"العدائية الصريحة أو المباشرة" وتُعرف العدائية العرضية بأنها العمل الذي يتسبب بإيذاء شخص آخر بشكل عرضي، حيث أن الأذية ليست الهدف الأساسي لمرتكب العمل؛ أما في العدائية

الصريحة (والتي تُعرف أحياناً بالعدائية الحاقدة) فيكون السلوك العدائي هدفاً بحد ذاته حيث يكون غرض المعتدي إنزال الأذى بالشخص الآخر. لكن حتى هذا التمييز ليس تمييزاً قاطعاً، كما يبدو للوهلة الأولى، فمن الصعب تقرير نوعية العمل العدائي بمجرد مراقبته، لهذا فإن النظر إلى الأعمال العدائية المتشابهة ظاهراً على أنها تختلف باختلاف الدوافع، يوفر لنا فهماً غنياً جداً للعدائية وهذا ما فعله عدد من المنظرين بتوغلهم في استكشاف أهداف العدائية." [9]

تبرير العنف

كيف يمكن أن يكون للعنف مبررات!. ولكن في الواقع دائماً هناك مبررات، وهذه المبررات تتخذ لها عشرات الشعارات مثل: الحرية أو العدالة أو تقرير المصير، وغيرها من الألفاظ الأخاذة، لكسب تأييد الجماهير. وإذا كانت معظم العادات أو السلوكيات تتشكل عن طريق **التماهي** فهذا ما يجعل بعض التصرفات العنيفة غير محظورة في بعض المجتمعات. وكثيراً ما يتم تبرير الأعمال العنيفة باسم القيم والدفاع عن النفس أو الثأر وغيرها من المبررات، وهذا العنف المبرر قد يصبح مألوفاً لدى البعض وكأنه عادة، أو عنف مُشرع. وحيث لا يمكن للإنسان أن يكون مستقلاً عن العلاقات الاجتماعية، أو أن يحيا في عزلة، يكون مرغماً على التغاضي عن أفعال يكرهها.

"ورغم أن القتل لم يكن مسألة مستحبة للضمير البشري، إلا أن أشعار التضحية، وأغاني الفخر والحماسة غمرت تاريخنا كله منذ البدء وذلك الفيض الغنائي ربما لم يكن إلا غطاءً خارجياً للإحساس بالإثم والخطيئة من

---

[9] العنف والمقدس، ص 118

تحطيم الآخرين أو سحقهم ، فتحولها الأغراض السياسية إلى مسألة مرغوبة ومطلوبة مستحبة، فوق إرادة ومشاعر الذين ينفذون إرادة العدوان فتبدوا في عمقها تبريراً ... وهناك ثلاث فرضيات (أو ثلاث عقد) جاء بها "غاستون بوتول" في كتابه السلم المسلح، العقدة الأولى "عقدة إبراهيم" وهي العقدة التي تعبر عن صراع الأجيال جيل الآباء وجيل الأبناء، الذي سيغتصب سلطانهم وأموالهم وكفاحهم الجيل الذي يليه. والعقدة الثانية: هي عقدة كبش الفداء ؛ حيث أن التنشئة في كل المجتمعات تشير إلى عدو تقليدي معين وقد يكون هذا العدو قبيلة أو قومية مجاورة تلعب دور العدو التقليدي والموروث، وهذا العدو يتحمل باستمرار كل الأزمات والمصاعب، ووجوده يشكل خطراً على المجتمع ليصبح التوتر أمراً يدعو للانفجار. ويقول بوتول المجتمعات إذاً كالأفراد تحس لا شعورياً بالحاجة لإيجاد المبررات، فتتراكم الاضطرابات والمعضلات وحالات القلق لتعبر عن نفسها بأشكال عدوانية تنتشر في أشكال شتى فمثلاً يعتبر كل منا سلاح الآخرين سلاحاً هجومياً، ولكنه يعتبر سلاحه الخاص سلاحاً دفاعياً. والعقدة الثالثة: عقدة ديموقليس وهي تُعبر عن الخوف الدائم وعدم الأمن... ويفترض بوتول بأن عقدة ديموقليس ذات شكلين، الأول هو الإحساس بضعف مصيرنا الذي يملي علينا الاستسلام والانقياد، والثاني هو التهديد الذي يثير الغضب والروح العدوانية فيحاول المرء المهدد بالخطر التفتيش عن المسؤولين عن تهديده. فالخوف هو سبب معظم الانفعالات العنيفة، وهو أيضاً سبب من أسباب الشجاعة النادرة أحياناً. وهناك شكل جديد من عقدة ديموقليس يسميه بوتول (عقدة الازدحام) وهي عقدة التهديد من تكاثر البشرية ومعاناة نصف سكان العالم من الجوع. وقد تذرع الألمان بضيق رقعتهم وارتكبوا أكبر المجازر في حق جيرانهم باسم المجال الحيوي. وهو ما تفعله

إسرائيل اليوم وهي تتذرع بضيق الرقعة فتهاجم جيرانها في عقر دورهم بحجة الحروب الوقائية والمجال الحيوي. ولهذا قامت بالعنف وتستمر به." [10]

ويضيف بوتول " بأن عقدة ديموقليس ليست فردية فقط وإنما هي أكثر فعالية عندما تنطبق على المجتمعات وعندئذ يغدوا عملها عدوانياً. ويلخص بوتول العقد الثلاثة قائلاً: " إنها تماماً كميولنا الفطرية الأخرى كائنة فينا كإطارات فارغة وتمتلئ بمضمون محدد وتتخذ اتجاهاً مشتركاً حسب نماذج الحضارات من جهة، وحسب الظروف والأحداث من جهة أخرى، ولكن عملها حاضر دائماً وخفي ومخادع ومتعدد الأشكال. وتفيد العقد الثلاث دوماً كأساس لإخضاع السكان للمحافظة على تبعيتهم وولائهم للدولة واحترامهم للتسلسل الإداري القائم، وتسمح بتحقيق الانسجام والتماسك اللذين ينطويان على الكثير من معاني التهديد بفعل عمل يتجه إلى عمق نفسية كل فرد، إن عقدة ديموقليس هي تنمية الإحساس بعدم الأمن والتهديد الماثل دائماً، وعقدة كبش الفداء هي التركيز على عدو محدد، داخلي أو خارجي ينتقل إليه إثمنا ونسقط عليه كل شياطيننا الداخلية، فكبش الفداء هو شرط الوعي الجيد في الروح العدوانية. وتمثل عقدة إبراهيم نزاع الأجيال والوعي الغامض بالبنية المتفجرة بصورة خاصة، أي وجود فائض من الشباب يتجاوز مطالب الاقتصاد ويخلق توتراً حاداً في المجتمعات من شأنه تنمية الروح العدائية الجماعية وهكذا يحدث في الغالب الانتقال من انعكاس غامض وشبه حيواني إلى وضع أعلى السياسات ورسمها". [11]

أما **بول ريكور** يحدد ثلاث عناصر للشر البشري هي: "التشويه" و"الخطيئة" و "الذنب" فهذه العناصر تنبعث عندما يعمل بعض المحرضين على الفتن بتشويه

---

[10] العنف والإنسان، ص 14- 16.

[11] المصدر نفسه، ص 17.

صورة الآخر ولصق كل التهم به كي يوحي للرأي الجماعي بأن تعنيفه أو قتله له ما يبرره.

وحين يتم تبرير الأعمال العنيفة أو المتوحشة يصبح من السهل أمام القتلة ارتكاب الجرائم دون أي شعور بالذنب. وأحياناً يتم الاقتصاص من أشخاص لا علاقة لهم بالمشكلة ليصبحوا أهدافاً بديلة. " إن فهم العنف بأنه طبيعي وضروري من الناحية البيولوجية هو تفسير لرموز مشحونة عاطفياً مثل الحرب التي تؤمن في تقييمها المعرفي لسبب السلوك العنيف، بأن العنف فطري، قد تشرع السلطة الاجتماعية الحرب وتصادق عليها، وتعدها مقبولة عندما تُشن ضد معتقد يعبر عن سلوك عنيف متعذر ضبطه."[12] فالعدائية عمل مكبوت في اللاوعي الجماعي، وهذه العدائية متعددة المصادر؛ كالتعصب، واستغلال الدين، ونشر الإشاعات. وإذا كان هناك علاقة سببية بين الغضب الشديد والعنف، يمكن القول أن معظم أعمال العنف تترافق مع ثورات الغضب. وأكثر من ذلك فإن القلق وعدم الاستقرار تدفع بالناس إلى التنفيس عن الغضب بعدائية، وأحياناً تجاه أقرب المقربين.

هل يمكن القول بوحدة الضمير؟

معظم آراء علماء الاجتماع تؤكد أن الأخلاق تختلف بين الإنسان العامي والمثقف، وهناك علاقة أيضاً بين الأخلاق والعقاب أو المكافأة، أي معرفة الخير من الشر. فالضمير الأخلاقي يتشكل منذ الطفولة، وهو الذي يحدد صورة الأفعال الأخلاقية للفرد، ويحدد طبيعة الأفعال المنافية للفضيلة، أو التي يعاقب عليها الضمير.

---

[12] الأنماط الثقافية للعنف، ص 40.

ولكن كيف يمكن أن تتحدد الفضيلة، أو الأفعال المنافية للأخلاق؟.

بالطبع هناك الثقافة والوعي. ومعظم الناس يريد الخير، ولكن المفارقة هي في تحديد المفاهيم. وما يمكن اعتباره جريمة شنعاء في مكان ما، قد يكون بالنسبة للفاعل الجاهل من الأعمال البطولية التي يستحق عليها المكافأة. **أفلاطون** يقول أن الشرور موجودة في هذا العالم، فالخير يحتاج إلى نقيضه ليتم تحديده، والعالم الإلهي فقط هو عالم المُثُل ولا مكان للشر فيه. " ويرى **أفلاطون** أن الحكيم والجاهل كليهما يسعى إلى الخير ويستشرف إلى السعادة. لكن الحكيم هو من يعلم حقيقة الخير بينما الجاهل لا يعرف إلا الظواهر أو المظاهر، فيتصور أن الخير هو اللذة، مع أن اللذة هي المظهر الحسي فحسب، ولذا يُقبل على اللذة وينحرف عن سبيل الخير، والحكيم يعرف حقيقة الخير، فإن وجده في اللذة أخذ منها، وإن وجده في غيرها أخذ به، فمتى علم بالخير أحبه وسلك وفقاً له. وهكذا فإن الفضيلة في نظر **أفلاطون** هي العِلم بالخير، بينما الرذيلة هي الجهل." [13] وإذا أمعنا النظر بما يجري من حولنا من أحداث عنيفة وجرائم مروعة، سنؤكد نظرية أفلاطون؛ فمعظم الجرائم تُرتكب من قبل بعض المدمنين والغارقين في اللذات الحسية، أو بعض الجهلة الذين يتم استغلالهم لتحقيق مكاسب فردية أو استعمارية. ومن الملاحظ كيف يتم إغراق المجتمعات المراد لها أن تتداعى بكل وسائل الانحلال والفوضى، ويتم التغاضي عن الموبقات الفردية، بل وأكثر، يتم الترويج لكل أشكال التسيب والانحطاط الأخلاقي، وهذا التسيب يساهم في تغذية العنف ليتكاثر، وكلما ازداد عدد الأفراد الحاقدين والعنيفين والمدمنين، فرح بهذه الزيادة أصحاب الغايات الهادفة إلى تأجيج نار الفتن والحروب.

---

[13] الأخلاق النظرية، ص 157.

ولهذا يمكـن القـول أن الضـمير الأخلاقـي توحـده بعـض الصـفات هـي : العقـل، والغريـزة، والعاطفـة، تمامـاً كـأفعـال النـاس، ولكـن الإنسـان لا يسـتطيع أن يحدد طبيعة أفعاله أو يحكم عليها إلا من خلال العقل. ومـن لـيس لديـه الـوعي العقلي الجيد لن يستطيع تحديد طبيعة أفعاله والتمييز بين ما هـو صـواب أو مـا هو خطأ . ولا شك أن الضمير الأخلاقـي يسـتمع لصـوت العقـل ويقـوم مـن خـلال العقل بإصدار أحكام على القيم والمبادئ. كما قال القديس توما الأكـويني " إن الضمير هو الحكم الصادر من العقل".

ولكن إذا كانت المصادر متعددة، ستكون الأحكام مختلفة. ويمكـن القـول باختصـار أن الضـمير ينشـأ مـن الالتـزام بقـيم المجتمـع. وهـذا يعـني أن الحيـاة الاجتماعية تشكل الضمائر حسب الأحكـام والقيم الموجودة والمتوارثـة داخـل المجتمعات. ولهذا تتفاوت معايير الضمائر بين الأفراد تفاوتا شديداً.

الفصل الثاني

العنف الجماعي

لا يمكن حصر دراسة العنف بالعنف الذي يصدر عن أفراد فقط، فالعنف الذي يصدر عن جماعات أو منظمات أو غيرها هو الأكثر تنكيلا وقتلا لأرواح بريئة. والعنف الجماعي هو نتيجة عوامل اجتماعية كالشغب والثورات، أو الحروب التي تتسبب بقتل أعداد كبيرة من الأبرياء، وتتسبب أيضاً بانحرافات سلوكية، وأضرار نفسية بالغة الخطورة، على مدى أجيال.

الحرب

الحرب أسوأ ظاهرة اجتماعية، وأسوأ وسائل القتل والدمار والتنكيل، فهي ظاهرة قديمة نشأت عن الأنانية، والجشع، ورغبة التسلط ؛ وهي تشرع العنف بكل وحشيته وقذارته. وهل من المعقول أن يصبح العنف مألوفاً! وهل يمكن لعقل بشري أن يقبل بفظاعة ما يجري، والذين يخططون للحرب هل يمكن أن يكونوا من الأسوياء؟ وإذا كان الضمير يتحكم بالإنسان العاقل فيمنعه من التسبب بالأذى للغير، وإذا كانت أي مخالفة للضمير تسبب للمخالف حالة صراع مع النفس لا تنتهي؛ فهل يمكن لضمائر هؤلاء القتلة أن تبقى في سبات!. فالحق يُقال: كل من يُطرب للحرب ويتعطش للدم، ليس سوى شيطان ميال للعدوان ولا يستحق صفة إنسان.

والحـرب دائمـاً تُواجـه بـالحرب. وأثنـاء الحـرب تخـتلط الأمـور ويتـوارى الحـق، وتندفع الجموع نحـو الفوضـى، ومسـتقبل الفتنـة المجهـول. هـذه المشـاهد المروعـة التي تظهر كل يوم عبر الإعلام، ليست القتل والدمار فحسب، إنما هـي تدمير للنفس البشـرية وقتـل للأحاسـيس والمشـاعر، ولـن يسـتفيد منهـا غـير المتـاجرين بالسـلاح، وأصـحاب الشـهوة إلى السـلطة والمـال. فمنـذ عهـود طويلـة والحـروب تحصد الملايين من البشـر، فلا الموت توقف، ولا الاغتيـالات، والأسـباب دائمـاً، الطمع، والاستعمار، والنرجسـية. والحـروب الـتي اشـتعلت منـذ عهـود لم تحقـق الوعود ولا مصـالح الشـعوب، بـل سـاهمت في تحقيـق مصـالح الـدول الـتي تعمـل على تطوير أسلحتها، وتعزيـز نفوذهـا ومضـاعفة أرباحهـا؛ ليـدفع الـثمن الملايـين من الأبرياء والعزل. ماذا حققت الحروب والثورات منذ بداية التاريخ حتى اليوم؟ هل اختفت مظاهـر البؤس والتشـرد، هـل تلاشـت الإقطاعيـة! وتحققـت العدالـة! واختفت الطبقية!... دماء الآباء والأبناء غُسلت مع الأيـام، ولكـن الـدموع بقيـت؛ فالتـاريخ غـير التـأريخ، ووقـائع الميـدان غـير الـذاكرة والنسـيان، أو التحريـف المتعمـد مـن قبـل الإنسـان؛ فكـم مـن مـؤرخ كتـب دون أن يتأكـد مـن مصـدر الخـبر، ولم يبحـث عـن القـرائن أو العِـبر، وكـان مـن الواجـب أن لا يتجاهـل الحقيقـة خدمـةً لـرأي أو لجماعـة. ومـا أكثـر الـذين يلفقـون الأخبـار للدعايـة، وللتـأثير علـى عواطـف الجماعـات المحايـدة، بقصـد تحقيـق منـافع خاصـة، أو بقصد إثارة الفتن.

والحروب ليست من صنع رجل واحد، فهـي تـأتي نتيجـة المنظومـات الاجتماعيـة كـالأحزاب السياسـية، أو نظـام السـلطة، أو الحركـات الثوريـة والانقلابـات وغيرهـا، وفي حـال نشـوبها لا تسـتثني أحـداً، حتـى الفريـق الـرابح قـد خسـر الكثير، وكان يمكن أن يقلص من حجم الخسارة لو آثر الحـوار والحكمـة، وأحيانـاً قـد تقتضـي المصـلحة أكذوبـة أو ربمـا حيلـة لوقـف الغوغـاء وفوضـى

الدماء، فهناك من لا تنفع بينهم غير الحيلة والحكمة. ودائماً الخسارة تلحق بالملايين من الأبرياء والعزل. فلا أرباح ولا عدالة تتحقق حين يُقتل الأطفال؛ فقط كل ما يتحقق هو الدمار والخراب والرعب.

والحرب لا تعني فقط الموت والدمار، بل تعني أيضاً الانحطاط الأخلاقي، وانعدام القيم، وكل أشكال الإجرام، بالإضافة إلى التهجير والتشريد والبطالة، وتزايد الأمراض الجسدية والنفسية، وحرمان الكثيرين من متابعة التعليم، وبالتالي التجهيل الذي يُفسح المجال للتمادي في نشر سموم الفساد والموبقات؛ والأخطر من هذا كله تأثير الصدمات على الأطفال، على جيل المستقبل؛ فتأثير الصدمات على الأطفال أقوى بكثير من تأثيرها على الكبار، بسبب النقص في نمو المهارات، وآليات الدفاع عند الطفل. وهذه الصدمات تصاحبها حالات من الفوبيا المزمنة وتكون نتيجتها الكوابيس، والصداع، والتبول اللاإرادي، والانزواء، والعنف، مما يؤثر على قدراتهم العقلية، وتحولهم في المستقبل إلى أشخاص قلقين واتكاليين أو عنيفين.

وتعتبر الحروب الأهلية من أكثر الظواهر المتسببة في توسيع رقعة العنف بين الجماعات، وغالباً ما تساهم السياسة في تعميق الانقسامات، بين الناس. وبعض الجهات السياسية تستغل الأقليات وخاصةً في بعض المناطق المهمشة وبين طبقات المعدمين لزيادة التعبئة، وتكرار الحوادث العنيفة. ولكسب تأييد هذه الطبقات الفقيرة التي تعاني من الحرمان، أو الغير ممثلة سياسياً يتم تقديم بعض المساعدات الهزيلة التي إن دلت على شيء لا تدل إلا على نقص العدالة الاجتماعية وعدم التوزيع العادل للحصص، والغاية ليست المساعدة بل دفع الجماهير باتجاه الفوضى.

برتراند رسل يقدم تصويراً رائعاً عن اندفاع الناس أثناء الحرب دون أن يدركوا نتائج اندفاعهم فيقول: " الحرب تنبع من الطبيعة الإنسانية عامة. أناس تعمل في

داخلهم الشهوات، ولو تحرر التفكير قليلاً من سيطرة الشهوات لكان بإمكان الناس أن يحفظوا عقولهم من ارتفاع حرارة حمى الحرب، ولكان الخلاف سوي بمودة. إننا مسيرون في الجزء الأكثر غريزية من طبيعتنا بميول إلى القيام بنشاط ما وليس برغائب في غاية ما. يركض الأطفال ويصيحون ليس لأنهم يتوقعون أي جزاء من إنجاز ذلك، بل لأنهم يشعرون بميل مباشر إلى الركض والصياح، وتنبح الكلاب أيضاً في وجه القمر ليس لأنها تعتبر ذلك مفيداً بل لأنها تشعر بميل إلى النباح. إن ما يدفع الناس إلى الاقتتال هو ميل غريزي فقط... إن الحرب هي اشتباك بين مجموعتين من الناس تحاول كل جهة منهما أن تقتل أو تشوه أكبر عدد من الجهة الأخرى رغبةً في تحقيق بغيتها، والبغية المنشودة هي على العموم أما سلطة أو ثروة. التسلط على الآخرين لذة مثلما العيش على جني أتعابهم لذة أيضاً. يستطيع من ينتصر في الحرب أن يتنعم بهذه الملذات وأن يحرم المنهزمين منها. ولكن الحرب هي مثل كل تصرفات الإنسان الغريزية لا تحدث بسبب الغاية التي تنشدها، أكثر مما تحدث بسبب الميل نحو التصرف ذاته، غالباً ما يرغب الناس في غاية ما ليس من أجل الغاية ذاتها بل لأن طبيعتهم تتطلب الأفعال التي تقود إلى هذه الغاية. وهكذا هي الحال مع الحرب." [14]

التقنية والحرب

وعلى ما يبدوا أن الإنسان كلما ازداد تطوراً ازداد توحشاً، فالعلم ساعد على تطوير الأسلحة، التي باتت تهدد العالم كله. " إن النفقات على الجيوش في

[14] أسس لإعادة البناء الاجتماعي، ص 14 – 65.

العالم في ثمانينات القرن الماضي زادت على 600 مليار دولار وهي تعادل ضعف الدخل الكلي للنصف الأفقر من الجنس البشري، ومخزون العالم من الأسلحة النووية يعادل 4 أطنان من مادة الـ T N T الشديدة الانفجار للشخص الواحد من سكان العالم." [15]

" وفي عام 1981 بلغت النفقات العسكرية مقدار 550 إلى 600 مليار دولار ووصل الرقم عام 1990، 450 ملياراً من الدولارات. وبلغ ما أنفقته دول العالم في عام 1982 على قواتها المسلحة ما يعادل 650 بليون دولار، وهو أكثر من مليون دولار في الدقيقة.

هذه هي صورة العنف المنظم الجماعي وهو أخطر أنواع العنف لأنه يضع مصير البشرية كله فوق ورقة جافة وسط عواصف الصراع الدائم والحروب اليومية". [16] واللوم لا يوجه إلى الدول التي لا تملك في يدها القرار، أو إلى الشعوب المقهورة المستبعدة عن مراكز القرارات، أو إلى فئات يسيطر الجهل على عقولها، بل كل المسؤولية تقع على من يملك القوة والسلطة. وأين هي هذه الدول التي تدعي البراءة، وتنادي بالديمقراطية، ومكافحة الإرهاب؛ فهل العناوين الموجهة إلى العالم اليوم تتوافق مع الواقع. إن بيع الأسلحة والتشجيع على الحرب يعني التشجيع على العنف، فالأسلحة تُستخدم لدعم الثورات داخل الدول، وهذا يعني التصعيد من حدة العنف. وأين هي هذه الديمقراطية المزعومة طالما أن الممول الأول للعنف والهدم والجوع هو سياسات الدول الكبرى، ورفض هذه الدول وقف ضخ الأسلحة يعني التشجيع على القتل.

" إن الأطراف الأساسية الموردة للأسلحة في السوق العالمية هي الدول الثماني الكبرى، وهي المسئولة عن 84 ٪ من الأسلحة التي بيعت في الفترة بين 1998

[15] مجلة عالم الفكر، المجلد 36، ص 248.

[16] العنف والإنسان ص 8.

و 2003. واليابان الدولة الوحيدة غير الغربية بين "الثماني الكبرى" وهي الدولة الوحيدة أيضاً من بينها التي تمتنع عن هذه التجارة. وقد كانت الولايات المتحدة وحدها مسؤولة عن نحو نصف الكمية التي بيعت في السوق العالمية، مع ذهاب ثلثي صادراتها من هذه الأسلحة إلى الدول النامية، ومن ضمنها أفريقيا. والأسلحة تسبب ليس فقط نتائج دموية، ولكن أيضاً لها آثار مهلكة على الاقتصاد، ونظم الحكم والمجتمع." [17]

لقد سجلت أمريكا أكبر انفاق على التسلح بالأرقام المطلقة، وأعلى مبيعات الأسلحة بين دول العالم. " ومن منظور الأمن القومي، يعادل انفاق الولايات المتحدة اليوم على التسلح تقريباً ما ينفقه العالم أجمع في هذا المجال، وإذا جمعنا النفقات العسكرية والأمنية الأخرى للولايات المتحدة لبلغ الإجمالي أكثر من تريليون دولار سنوياً. وبالإضافة إلى ذلك فإن أمريكا تملأ العالم اليوم بقواعدها وثكناتها العسكرية. ومع أن البنتاغون يورد رسمياً وجود 660 قاعدة عسكرية فقط في 38 بلداً، إلا أن هناك قواعد غير مذكورة في أفغانستان وغيرها. كما لديها أنشطة استخبارية في 40٪ من دول العالم البالغ عددها 192." [18] "وقد بلغ تعداد القوات المسلحة في بلدان حلف شمالي الأطلسي وحلف وارسو- قبل تفككه- أكثر من اثني عشر مليون جندي. وقدر أن ما ملكته القوتان العظمتان مجتمعتين من الأسلحة الإستراتيجية (العابرة للقارات) لا يقل عن 000، 15 سلاح نووي، وما ملكتاه من الأسلحة التكتيكية (القصيرة المدى) لا يقل عن 27000 سلاح نووي. فهذه الرؤوس الناسفة التي يبلغ مجموعها 000، 50 تقريباً لها قدرة تدميرية تفوق مليون مرة القوة التدميرية لقنبلة هيروشيما... ولكي ندرك مدى ضخامة صناعة الأسلحة

---

[17] الهوية والعنف، ص 103.

[18] مجلة الثقافة العالمية العدد 166 ص 129.

علينا أن لا نتأمل في كميتها فحسب بل في تكاليفها. إن النسبة المئوية من الناتج القومي الإجمالي المخصصة للدفاع عام 1982 بلغت 5٪ تقريباً في بريطانيا، و6٪ في الولايات المتحدة، و 9٪ في الاتحاد السوفياتي. وبلغت أعلى من ذلك بكثير في بعض بلدان العالم الثالث. وفي عام 1982 بلغ ما أنفقته دول العالم مجتمعة على قواتها المسلحة ما يعادل 650 بليون دولار في العام، وهذا يزيد عن واحد من عشرين من دخلها الإجمالي السنوي في العام. وهو أيضاً أكثر من مليون دولار في الدقيقة. قال الرئيس إيزنهاور مرة: "إن كل مدفع يُصنع وكل سفينة حربية تنزل إلى الماء وكل صاروخ يُطلق يدل على مبلغ من المال سُرق من الذين يعانون من الجوع ولا يُعطون طعاماً والذين يرتجفون من البرد ولا تُقدم لهم الملابس" ومع أن تعبيره عن السرقة كان تعبيراً بلاغياً أكثر من كونه حقيقة اقتصادية، فقد عبر عن إحساسه بالسخط على التفاوت القائم بين نفقات التسلح ونفقات التنمية. فماذا كان سيقول لو اطلع على الترسانة النووية في أيامنا هذه؟ وكيف يمكن إيجاد علاقة بين آلاف الملايين التي تُنفق على الأسلحة، وبين الملايين الثمانمائة من الناس المعدمين في العالم؟"[19]

وهذا الكلام هو حقيقة اليوم بالاستناد إلى أرقام واقعية. يكفي معرفة أن حوالي خمسين مليون أمريكي يعيشون اليوم في براثن الفقر، أي واحد من كل ستة مواطنين. وحوالي نصف العائلات الأمريكية اليوم تعيش على الراتب الشهري أقل من 400 دولار بالنسبة لعائلة مكونة من أربعة أشخاص.

[19] المسيحية والقضايا المعاصرة، ص 89.

إذا كانت الحرب تعني القتل، فهل للقتل مبررات؟

القتل ليس من الأمور التي يرضى عنها الضمير البشري، وسفك الدماء لم يكن يوماً من الأمور العادية المستحبة عند أي شعب من الشعوب. وجميع السلوكيات الخاطئة التي تهدد استقرار الإنسان وتسبب له الأذى منبوذة بالإجمال، ولها عقاب صارم، سواء في الأديان أو في القوانين الوضعية، وفي الأديان لها عقاب مضاعف لا يقتصر على الحياة الدنيا بل يستمر العقاب في الآخرة أيضاً، ليطال الجانب الروحي؛ فالقتل في **القرآن** كما في **الإنجيل** لم يكن من الأمور المستحبة، ولا يجوز لأي إنسان أن يقتل، أو يحكم على آخر بالقتل، مهما كانت الأسباب. " والدماء التي تُراق ظلماً وعدواناً هي أول ما يحاسب عنها العبد يوم القيامة، بما يدل على فظاعة الاعتداء على الإنسان في روحه أو أعضائه، فقد روى بعض أئمة الحديث عن **عبد الله بن مسعود عن النبي (ص)** قال:" **أول ما يُقضى به بين الناس يوم القيامة في الدماء.**" وفي رواية أخرى:"**أول ما يحاسب به العبد الصلاة، وأول ما يقضى بين الناس في الدماء.**" وفي التخويف من الاعتداء على دماء الناس: **وأن المؤمن يرجى له الخير والتوبة عن خطاياه ما لم يقارف عدواناً على الدماء.** في ذلك قد روى **البخاري** وأبو **داوود** عن **أبي عمر** عن **النبي(ص)** قال:"**لا يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً.**" وفي رواية عن **أبي داوود والنسائي** عن **النبي(ص)**:"**كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا من مات مشركاً أو مؤمن قتل مؤمناً متعمداً.**" وفي حديث آخر رواه **الترمذي** يكشف عن هول هذه الجريمة الفادحة النكراء بما ترتجف له فرائض المؤمن فقد قال **النبي(ص)**:" **لو أن أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا في دم مؤمن لأكبهم الله في النار.**" [20]

[20] الإنسان في الإسلام، ص 240.

وكـذلك العقيـدة **المسـيحية** رفضـت العنـف، وتضـمنت عقيـدتها مبـادئ رفـض الحرب والعنف.(**من ضـرب إنسـاناً فمـات يُقتـل قتلا**.)(خـروج 21- 12) **السـيد المسـيح** كـان يـرفض القتـل، وإذا كانـت الوصـية الأولى في **الإنجيـل "لا تقتـل"** يصبح القتل لأي كان محرماً.(**قد سمعتم أنـه قيـل للقـدماء لا تقتـل. ومـن قتـل يكــون مســتوجب الحكــم**.)(متــى 5- 21). القــديس **تومــا الأكــويني**(1225- 1275) أعلن عدم جواز القتل، حتى للحـاكم المسـتبد، فالقتـل عمـل لا يرضي الله، والسلطة الإلهية وحدها يمكنها أن تعاقب المجرم.

وفي الديانات الشرقية **كالهندوسية والبوذية** كان لا يقتصـر التحـريم علـى قتـل الإنسان فقط، بل كـان التحـريم يطـال كـل الكـائنـات الحيـة. فـالاقتراب مـن **الله** يحصل عن طريـق مجموعـة مـن النـذور أهمهـا: **اللاعنـف**. واللاعنـف يتطلـب عدم قتل أي من الكـائنات الحية وبالتالي الامتناع عن **أكل اللحوم، ثم الصدق والامتناع عن السـرقة، والعفـة والزهـد وعـدم التعلـق بشـيء مـن طيبـات الـدنيا**، ومـن هـذه الطـرق يمكـن الوصـول إلى السـلام والسـكينة اللـذان يحـدان مـن الأعمال العنيفة ومن الضيق. **بـوذا** يـرى أن مـن الحمـق أن يحـارب النـاس بعضـهم بعضا من أجل الحياة الدنيا العـابرة. ولعـل أبـرز مثـال علـى الشـعوب المسـالمة هـو شعب التيبت في شمال الهند .

كيف يمكن للأفراد أن يؤدوا أعمالاً مخالفة للضمير؟

باسكال يتساءل:" هل هناك ما هو أدعى إلى السخرية من أن يكون للإنسان الحق في قتلي لأنه يُقيم عل الشاطئ الآخر من الماء، وأن أميره متشاجر مع أميري، بينما أنا ليس بيني وبينه أي خصومة."

هناك أعمال عدوانية ترتكب من قبل أفراد دون أن يشعروا بالحرج أو تأنيب الضمير وخاصة إذا كانوا تحت تأثير السلطة، فتسلط السلطة، أو التخويف مسألة تستحق الدراسة.

فإذا نظرنا في ظروف الحروب فإلى أي مدى يمكن اعتبار المقاتل مسؤولاً عن أعمال الإبادة أو التعذيب، إذا كان يقوم بتنفيذ الأوامر الصادرة عن السلطات العليا، والتي تقوم بمعاقبته إذا لم يلتزم بهذه الأوامر. وكيف يمكن أن نميز بين الجندي النظامي الذي يدافع عن الوطن والمواطنين، وبين الجندي المحتل؛ وفي هذه الحالة من يتحمل تأنيب الضمير؟ ولكن هل يمكن للإنسان أن يطيع الأوامر ويقوم بالقتل حين تتعارض الأوامر مع ضميره؟. "**هوبز**" يقول: إن الأمر المنفذ ليس يعني مسؤولية منفذه وإنما يعني مسؤولية السلطة التي أعطته، ولكن السلطة تعلو على الأحكام المعنوية للشخص عندما يكون الإثنان في حالة صراع. وقانون محكمة الجزاء الدولية ليوغسلافيا وكذلك لروندا وقانون محكمة الجزاء الدولية جميعها تنص في موادها (753-653and 25) على مبدأ المسؤولية الجزائية للقادة أو المسؤولين، وهذا يعني أن الجريمة التي ترتكب من قبل ضابط يمكن أن يكون مسؤولاً عن ارتكابها أو ارتكاب جزء منها قائده أو المسؤول عنه لأنه لم يتخذ الإجراءات الضرورية لمنع وقوعها.

" إن الأفراد تحت السلطان يؤدون أفعالاً تبدوا مخالفة للضمير، لكنه من غير الحقيقي القول بأن الإحساس المعنوي قد اختفى، فبدلاً من ذلك يغير موقعه بشكل راديكالي وبمجرد دخول الشخص في نظام السلطة، فهو لا يستجيب للأحاسيس المعنوية للأفعال التي يرتكبها، ويتجه هذا الاعتبار المعنوي نحو اعتبار آخر هو كيف يكون في نظر السلطة. في وقت الحرب لا يسأل الجندي هل من الجيد أو السيء أن يقصف قرية صغيرة وهو لا يجرب الخجل أو الندم في تحطيم القرية، وقد يشعر بالخجل أو بالفخر طبقاً لطبيعة المهمة التي يُكلف بها. وتعمل قوة نفسية أخرى في هذا الوضع يمكن تسميتها (نفي الوجود الإنساني) فلعقود خلت ناقش علماء النفس الميل البدائي بين الناس للتحول إلى العناصر الأولية غير الحية والتي تهدم الصفات الأساسية للنوع البشري، والميول الشاذة غير الاعتبارية هي التي تُعزى إلى الصفات غير الشخصية للقوى التي هي في أساسها إنسانية من حيث الأصل والاستمرارية. ويعامل البعض أنظمة الأصل البشري كما لو أنها فوق أو خارج أي عنصر بشري، وخارج نطاق التحكم في النزوات والمشاعر الإنسانية، وتجاهل العنصر الإنساني خلف المؤسسات والأنظمة. لقد سجل صحفي حديثاً مع طيار أمريكي، صرح بأن الأمريكيين كانوا يقصفون الفيتناميين رجالاً ونساءً وأطفالاً، لكنه كان يشعر بأن القصف كان من أجل غرض نبيل، وهكذا تم التوفيق والتكييف." [21]

"والصعوبة هي في تحديد ما يرونه" "إجرامياً"، خصوصاً وهم يتلقون الأوامر مجردة من بيان أسبابها ودواعيها، فهذه الدواعي والأسباب من شأن القيادة العليا وحدها، ويدخل في هذا الباب ما اشتهر بعد الحرب العالمية الثانية تحت عنوان: مجرم الحرب من هو؟ وعلى من ينطبق هذا الوصف؟ وهو تعبير شديد

[21] العنف والإنسان توماس بلاس ص 45- 46.

الغموض، يفسره كل طرف بحسب مصلحته الخاصة، والشواهد على هذا عديدة: في محاكمات نورمبرج المعروفة سنة 1947 ومثيلاتها، وفي محاكمات التطهير في فرنسا من سنة 1945 حتى 1947. وفي المحاكمات التي تتم لزعماء العهود "البائدة" من قبل زعماء العهود الناجمة عن الانقلابات والثورات العسكرية والسياسية، خصوصاً في القرن العشرين، وإذا كانت قديمة قدم الإنسان منذ أن تسلط على أخيه الإنسان. هذه الظروف القاهرة التي ترغم الإنسان على أداء أفعال ما كان يؤديها أبداً لو أنه كان مطلق الحرية. ويدخل في باب القوة القاهرة: وسائل التعذيب من أجل الاعتراف بذنوب وجرائم ربما لم يُفكر المُعذّب أبداً ولا مجرد التفكير في ارتكابها واضطراره تحت هول التعذيب الرهيب أن يُقر بها. والشواهد على هذا في العصر الحاضر لا يمكن أن يحصيها أحد، وتحدث كل ساعة في مختلف أرجاء العالم، ومن هولها وفظاعتها يرتعد المرء من مجرد ذكرها." [22]

هذه الأوامر الصارمة من قبل السلطة، وهذه المفاهيم المغروسة عن الواجب والتضحية، أو بعض المفاهيم المضللة التي تُكرس نزعة التعصب، وتحفز بعض المُضَلَّلين على ارتكاب أعمال عدوانية بحق الذين يخالفون معتقداتهم أو سياساتهم، وتجعل من الضحايا مجرد أشياء لا قيمة لها، وتقدم الحجج بضرورة عقابهم، إما بسبب نقص في صفاتهم البشرية، أو بسبب نقص في ذكائهم، أو بسبب انتمائهم، وغيرها من الحجج والبراهين الواهية. وهكذا فإن الخوف من العقاب في حال عدم تنفيذ الأوامر، أو الجهل بحقيقة الأمور، تجعل من بعض الأعمال العنيفة أو الحروب مُبررة لدى البعض، رغم أن العنف مهما كانت صورته ليس من المعقول تبريره.

[22] الأخلاق النظرية، ص، 229.

سارتر في كتابه "الوجود والعدم" ينفي نفياً قاطعاً عدم تحميل المقاتلين المسؤولية في الحرب فيقول: " فإذا طُلبتُ للحرب، فهذه الحرب هي حربي أنا، إنها على صورتي، وأنا استحقها، أنا استحقها أولاً لأنني كان في وسعي دائماً أن أفلت منها: بالانتحار أو بالفرار من الخدمة العسكرية. فكوني لم أفلت معناه أنني اخترتها، ربما ذلك عن ضعف أو جبن أمام الرأي العام، لأني أفضل بعض القيم على قيمة رفض القيام بالحرب، وعلى كل حال فالأمر يتعلق باختيار، وهذا الاختيار سيتكرر فيما بعد حتى نهاية الحرب. فإذا كنت قد فضلت الحرب على الموت أو العار فكل شيء كما لو كنت أحمل على عاتقي كل مسؤولية هذه الحرب، ولا شك أن غيري هم الذين أشعلوها وأعلنوها، وقد يميل المرء إلى أن يعدني مجرد شريك، لكن فكرة الاشتراك هذه ليس لها غير معنى قانوني؛ أما هنا، فلا تقوم لها قائمة علي، إنه بالنسبة لي لا توجد هذه الحرب، وأنا قررت أن توجد، ولم يكن هناك أي قسر أو إكراه، لأن القسر لا يمكن أن يكون له سلطان على الحرية، ولم يكن لدي أي عذر لأنه من خاصية الآنية أنها لا عذر لها." [23] هذا ما يراه **سارتر** بالنسبة للقتل، ولكن سارتر الفيلسوف الوجودي الذي ناضل وحمل السلاح في سبيل القضايا الإنسانية يقول: "أن الإنسان محكوم عليه بالحرية، ولكن هذه الحرية تحمل في طياتها مسؤولية فادحة، إذ إن الإنسان حين يتخذ قراراً ما أو حين يختار واحداً من الممكنات المتاحة أمامه إنما يختار نوع الوجود الذي يريد لنفسه، ويضفي على عالمه المعنى الذي يريده. وهو الذي يحدد بنفسه القاعدة والمعيار اللذين يسلك وفقاً لهما، ذلك لأن الشعور بالمسؤولية هو الضابط، وهو الضمان في عالم لا نستطيع أن نحتمي فيه بقيم تعلو علينا وتتجاوز نطاق اختيارنا الحر. ففي كل اختيار أقوم به أكون ملتزماً وأُلزم معي البشرية كلها؛ وفي كل

---

[23] الأخلاق النظرية ص 234.

فعل يصدر عني أحدد نوع الإنسان الذي أكونه، ونوع العالم الذي أريد أن أحيا فيه." [24] عدم الإلتزام هو سخرية من الحرية، والإنسان ليس دمية أمام أية قوة خارج نفسه، وماهية الإنسان هي ماهية أفعاله. وهذا ما أراده سارتر عندما قال بأن الحرب هي مسؤولية الكل حتى الجنود - ولكن بالطبع لم يكن سارتر يعني الجندي الملتزم المدافع عن الحقوق، أو الحارس على حدود الوطن، فهذا الجندي داخل حدود الوطن يمثل قيم تحقيق العدالة والحرية والفداء؛ ولكن حين يتم توجيه الجنود لاحتلال أراضي الآخرين وقتل المواطنين العزل، مثلاً: كما يفعل جنود الاحتلال الإسرائيلي بقصف وقتل الشعب الفلسطيني أو الشعب اللبناني، أو عندما تقصف طائرات أمريكا في دول مستقلة وبعيدة كل البعد عن حدودها على الجندي في هذه الحالة عدم الالتزام بتنفيذ أوامر القتلة. والأخطر من ذلك هو قيام بعض المقاتلين بتنفيذ أوامر قيادات بعض المجموعات الغير نظامية، أو العصابات المسلحة، فهناك فرق واسع بين الجندي النظامي وبين الجنود المرتزقة التي تقاتل على أراضي الغير، وبين من يحمل السلاح للدفاع عن النفس في وجه الاستعمار والتنكيل والسرقة، وبين من يحمله دون أن يدرك ماذا يعني حمله للسلاح. وإذا كانت أوامر هذه السلطات الطاغية التي تسعى إلى الاحتلال ستعلو في قراراتها على الشخصي، وإذا كانت بعض الأوامر خاضعة لمزاجية أشخاص من ذوي النفوس المريضة أو المتعطشة لسفك الدماء، فعلينا التحرر من هذه الأوامر.

---

[24] جدلية العلاقة بين الفلسفة والأدب، ص 156.

تأثير السلطة

" قام فريق من جامعة ييل، برئاسة ستانلي ميلغريم، بتجربة كانت بأهميتها وريادتها في علم النفس السلوكي كتجارب فستنجر، وقد اهتم فريق ييل بدراسة أمر السلطة وقدرة الأفراد على إيقاع الألم بالآخرين. وكان المختبر الذي أُجريت فيه تجارب الفريق مزيناً بصورة لجندي وقد تدلت قدماه في خندق مليء بالجثث والسيجارة بين شفتيه بعدم اكتراث، والبندقية مستقرة عرضاً في حضنه. وكانت النتيجة التي توصلت إليها تجارب ميلغريم تتلخص بأن أنماط السلطة الموروثة الموجودة في ثقافة مجتمعنا يمكن أن تُستخدم لبث العنف في نفوس أناس هم اعتيادياً من الذين يشعرون بالمسؤولية إلى أعلى حد، كما أنهم من الذين يتقاضون أجراً حسناً جداً. وكان المشاركون بالتجارب من أناس عُرفوا بالهدوء والصلابة، وكانوا في حقيقة الأمر من خبراء الرياضيات العليا في شركات التأمين على الحياة الموجودة قرب جامعة ييل.

إن المشاركون في هذه التجربة نفذوا أوامر العالِم القائم بالتجربة بدون تردد، وهي القيام برفع درجة الفولتيه الكهربائية التي تصعق الطالب كلما أخفق في الإجابة على سؤال من الأسئلة، نفذوا الأوامر تماماً كما أمرهم القائم على التجربة، ولم يلتفت هؤلاء المشاركون في التجربة إلى الناحية الإنسانية أو الأخلاقية، ولم يهتموا لكون الطالب يتألم أو يتأذى، بل كان تركيزهم فقط على تنفيذ الأوامر الموجهة لهم بدقة.

أولئك الذين حصروا أنفسهم في أوضاعهم في مصطلحات لغاتهم، في أنماط حياتهم المهنية، بحيث لم يعودوا قادرين على النظر إلى الخارج، والشعور بما يجري من حولهم، ناهيك عن رؤيته. إننا لا يمكن أن ننظر إلى أنفسنا كأشخاص أخلاقيين ما لم نتطلع إلى خارج محيطنا لتفحص الشقاء الموجود

حولنـا. لـذلك فإنـه مـن غـير الكـافي أن يكـون المـرء مـن العلمـاء ذوي العلـم والبحوث، أو أن يكـون مـن المـدراء النـاجحين المقتـدرين، إنـه مـن الضـروري أن يكـون المرء شخصاً سوياً موجوداً في وضع اجتمـاعي معـين مـع مسـؤوليات تجـاه مجتمعه وتجاه نفسـه."[25] وقـد اتضـح مـن خـلال التجـارب والوقـائع أن العوامـل الاجتماعية والثقافية، أو السلطة يمكن أن تقود إلى قيام الإنسان بتصرف غير متوقـع. ولا يمكـن أن يكـون هنـاك قواعـد عامـة للسـلوك تنطبـق علـى كـل الأزمنة أو الظروف.

---

[25] الصفحة الجديدة، ص، 57- 58.

الفصل الثالث

ماذا عن الإرهاب؟

كـثيرة هـي الشـعارات الـتي تُطلقهـا الـدول الـكـبرى باسـم مناهضـة العنـف ومكافحـة الإرهـاب، ولكـن مـا هـو تعريـف الإرهـاب؟."ذهـب اتجـاه في الفقـه الجنائي الدولي إلى أن ظاهرة الإرهاب من الصعب تعريفها كما أنه ليس من السهل وصفها. وحقيقة الأمر أن مصطلح الإرهاب إنما ينصرف إلى الأثر الذي تحدثه الوسائل وأنماط السلوك التي يرتكبها بعض الأفراد بهدف معين غالباً ما يكون سياسياً أو أيديولوجياً. والإرهاب الذي ينبغي مواجهته هو ما يجمع عليه المجتمع الدولي باعتباره تنظيماً إجرامياً هادفاً إلى هدم القيم الإنسانية والمعنوية للمجتمعات المعاصرة. ولذلك يخرج عن نطاقه أعمال العنف والمقاومة المشروعة التي تباشرها الشعوب ضد الاحتلال . وتختلف الجرائم الإرهابية عن الجرائم العادية في البواعث والأهداف، فالبواعث السياسية والأيديولوجية هي التي تقف وراء جرائم الإرهاب، أما البواعث الإجرامية الأخرى التي يكون الغرض منها فرض السيطرة على جماعة من المواطنين أو غيرهم فهي نوع من الإرهاب الاجتماعي. ومن المسلم به أن النشاط الإرهابي لا يختلف في ركنه المادي عن أنه جريمة عادية إن لم نقل أنه يتعداها من حيث الخطورة. بيد أن الباعث على جرائم الإرهاب والغرض منها كلاهما سياسي." [26]

[26] مجلة فكر. ص 26- 27.

والإرهـاب علـى علاقـة مباشـرة بالسياسـة، وهـو يُسـتخدم لتحقيـق مصـالح سياسية، أو لأهداف نفعية لبعض رجال السياسـة، فالإرهـاب السياسـي يسـتغل مجموعـات كـبيرة مـن النـاس الجهلـة، والمتعصـبين لتنفيـذ مخططاتـه، وهـذا التعصـب المقيـت الـذي يترعـرع بـين المجتمعـات يـدخل مـن بـاب الشـحن المـذهبي والطائفي، ومـن بـاب الحرمـان والجهل والمعيشـة القاسية عنـد هـذه المجموعـات المنهكـة والمحرومـة. "ومـن تحليـل تعريـف الإرهـاب المشـار إليـه بالاتفـاق الـدولي الأول في جنيـف يتـبين بوضـوح أن وصـف أعمـال الإرهـاب لا يمكـن أن ينطبـق بحال من الأحوال على أعمال حركة المقاومة الوطنية ضد الاحتلال وبالتـالي لا يمكن أن توصف أعمال المقاومة الوطنية المشروعة بـأي حال مـن الأحـوال بأنهـا أعمال إجرامية. ولا تعد جريمة إرهابية حالات الكفاح بمختلف الوسائل بمـا في ذلك الكفاح المسلح ضـد الاحـتلال الأجنبي والعـدوان مـن أجـل التحـرر وتقريـر المصير. أما اتفاقية قمع تمويل الإرهاب التي تبنتها الجمعية العامة للأمم المتحـدة في 1999/12/9 فتـنص علـى أنـه يشـكل جرمـاً قيـام أي شـخص بأيـة وسـيلة بصورة غير مشروعة وقصداً بجمـع أمـوال أو تقـديم أمـوال بهـدف اسـتعمالها مـع العلـم لارتكـاب جـرم مـن جـرائم الإرهـاب، وكـل عمـل يرمـي إلى قتـل أو جـرح مـدني أو شـخص لا يشـترك مباشـرة في أعمـال حربيـة. علـى أن لا يسـمح نـص القانون بتبديد مثل هذا العمل لاعتبارات سياسية أو عقائدية أو دينية أو أثنية أو غيرها." [27]

"**ولـزار** يعـرف الإرهـاب بأنـه القتـل المتعمـد للأبريـاء، بغـرض نشـر الرعـب بـين السكان وفرض حلول علـى السلطات، وبالتـالي لا يمكـن أن يكـون الإرهـاب فعـلاً عـادلاً. وبـذلك يكـون ولـزار رافضـاً للفهـم النسـبي للإرهـاب، ذلـك الفهـم القائـل إن مـا يعتـبره بعضـهم إرهابـاً يعتـبر عنـد آخـرين بمنزلـة نضـال مـن أجـل

[27] مجلة فكر ص 28- 29.

الحرية، ولا يمكن تسويغ الإرهاب بأي شكل من الأشكال. ولا ينفي ولزار إمكان استعمال النظم السياسية للإرهاب، من أجل تحقيق أغراضها الخاصة، ففي تقديره أن الإدارة الأمريكية بقيادة جورج بوش الابن تستعمل الخوف من الإرهاب لفرض سياسة عالمية أحادية في الخارج، وسياسة تسلطية في الداخل. وإذا كنا نعيش ضمن ثقافة الأعذار لجميع الأفعال بما فيها الأفعال الإرهابية، ومن هذه الأعذار القول بأن الإرهاب يُعد الوسيلة الأخيرة للمستضعفين. ففي تقدير ولزار فإن هذا غير صحيح . وهناك عذر آخر وهو حالة البؤس الإنساني والفقر المدقع والتفاوت واللامساواة في الحقوق، وفي تقديره أن هذا العذر أيضاً غير صحيح، ذلك لو كان الأمر كذلك لكان مصدر الإرهاب هو أفريقيا وأمريكا اللاتينية . مستبعداً كل أسباب البؤس والفقر والاضطهاد، وكل البواعث المادية. فالإرهاب لا ينتج عن وضع اقتصادي، وإنما ينتج عن خيال ثقافي، ويستمد ثقافته من ثقافة الأعذار والتساهل التي يستفيد منها الإرهابيون.

ولا تختلف مونيك كانتو سباربر في موقفها من الإرهاب عن ولزار، إذ ترى أنه إذا كانت الحرب العادلة لها مسوغاتها من باب الأخلاق الواقعية، فإن الإرهاب، باعتباره جريمة ضد الأبرياء، مرفوض، حتى إن كان بدواعي اليأس والبؤس، وإنه لا وجود لأي إرهاب مفيد، وأن جميع وسائله عبثية، ومن غير الوارد الحديث عن أخلاقية أو لا أخلاقية وسائله وأهدافه، وإذا كان العنف الإرهابي قائماً في التاريخ و واقعاً لا يمكن إنكاره، فإنه لا يمكن أن يتحول إلى أطروحة يمكن الدفاع عنها، وأما واقع الفقر والبؤس والتهميش، فإن قيم التضامن كفيلة بإيجاد الوسائل الناجعة لتحسينه." [28]

---

[28] مجلة عالم الفكر المجلد 36 ص 66- 67.

والعنف يختلف تماماً عن الإرهاب، فالعنف موجود في كل المجتمعات وهو ليس صفة أو سمة لفئة من الناس. ولا يجوز تصنيف الناس تصنيفاً مؤسساً على الدين أو اللون أو الهوية، وحين يُنسب الإرهاب لفئة محددة من الناس فهذا هو التطرف الحقيقي والعنصرية؛ ولهذا ليس من العدل اتهام بعض الشعوب دون غيرها بصفة الإرهاب، أو الخلط بين الصراع السياسي الذي ينتج عنه حالات من عدم الاستقرار وأحداث الشغب والعنف والتفجير، وبين الأوضاع الاجتماعية المتردية التي تدفع بالبعض إلى العصيان والتمرد كردود أفعال على واقع مدقع. فالعدالة تقتضي الحد من يأس الطبقات المحرومة لأن اليأس قد يولد العنف، ولكن عنف المحبط أو اليائس هو عنف فردي يمكن وضع حد له، أما العنف الأخطر الذي لا يمكن التحكم بنتائجه هو إرهاب الأقوياء الذي تقوم به فئات لتحقيق أهداف سياسية، وتُمارس فيه كافة أشكال التدمير وأعمال الشغب وزعزعة الضوابط الأمنية وارتكاب أبشع الجرائم بحق المواطنين العزل، بما يخدم ويتناسب مع مصالحهم الفئوية.

والعنصرية هي من أهم مسببات العنف، حيث أنها تكرس الكراهية بين الناس. وهل الدعوة إلى محاربة العنف تكون بعنف أبشع. مثلاً: إذا كان بن لادن يُعتبر إرهابي، أو صدام حسين طاغية، أو معمر القذافي مستبد، فإن طريقة إزاحتهم كانت أكثر رهبةً من الإرهاب بعينه، وهل هذه الطريقة ساهمت في تحقيق الاستقرار وكبح العنف ونشر العدالة في تلك الدول!.

ومن هو الإرهابي عند هؤلاء الذين أعلنوا الحرب على الإرهاب، أهو المواطن الذي تم إبعاده قسراً عن أرضه، أم ذاك الشاب الذي لا يملك هوية، وينظر بعين الخوف والقلق على مصيره ومستقبله، أم الأب الذي يرى أطفاله يُقتلون!.

فحين يصبح الوطن ملكاً لفئات، وحين يصبح المواطنون في الهامش، تتغير الملامح فتصبح الوجوه الحالمة الرقيقة أشد قسوة من جلود التماسيح! وحين ننظر في عيون هؤلاء البائسين المحرومين الحانقين، نعرف على الفور حقيقة العنف ومنابعه.

علينا دائماً التفريق بين ردود الفعل الغاضبة وبين الجرائم المدبرة، فردود الفعل الغاضبة تزول عند زوال أسبابها، أما الجرائم المدبرة بقصد إثارة الفتن ونشر الفوضى، هي التي تمثل تهديداً يطال أمن وسلامة المواطنين. ولذلك عندما يطال العنف ضحية ما، فإن الآثار النفسية السلبية تتولد لدى الجماعة التي تنتمي إليها الضحية.

ويقوم الإرهاب السياسي على أساس الاستخدام المنظم للعنف أو التهديد باستخدامه. وخلاصة القول: إنه إذا كان استخدام العنف عنصراً أساسياً للفعل الإرهابي فإن كل سلوك عنيف لا يعد عملاً إرهابياً، فمظاهر العنف تتعدد وتتنوع بشكل يتجاوز مفهوم الإرهاب. وهناك فارق جوهري بين مفهومي الصراع والعنف في أن مفهوم الصراع أوسع من مفهوم العنف، إذ تتعدد صور الصراع وآلياته، ويعد العنف بالمعنى الذي سبق تحديده، إحدى هذه الآليات في إدارة الصراع وحسمه، وتتوقف شدة الصراع على كم وكيف العنف المستخدم فيه، ومن هنا فإن السلوك الصراعي من الممكن أن يكون سلوكاً غير عنيف." [29]

" وغالباً ما تُطلق كلمة إرهاب على كثير من الجرائم التي يقوم بها الأفراد كمحاولات الاغتيال أو أعمال التخريب... أما في الواقع فإن ظاهرة الإرهاب أكثر تعقيداً وعمقاً من هذا المفهوم السطحي، ولها خصائص تمتنع عن الانزلاق في عموميات العنف، وهذا المفهوم السطحي هو نتيجة منطقية للدعاية

[29] ظاهرة العنف السياسي، ص 53- 54.

الدولية التي تلجأ السلطات إليها من أجل تشويش الأفكار وطمس الحقائق تجاه الرأي العام." [30]

والإرهاب الحقيقي الذي يروع العالم ويهدد الناس والحياة على الأرض، هو إرهاب من صنع الأقوياء الذين يمتلكون المال والنفوذ والقدرات العسكرية، والنووية، المدعومة بقدرات تكنولوجية هائلة. وتتسم كل العمليات الإرهابية بالتخطيط والدقة في التنفيذ، وهذا أكبر برهان على أن الإرهاب هو من صنع فئات ذات تفكير متطور، وتمتلك القدرة والمال لتنفيذ مخططاتها. وهذا يؤكد أن هذه الحضارة المعاصرة هي أساس الإرهاب، فهي التي تطور تكنولوجيا التدمير، وتقدم التقنيات والأسلحة و وسائل التعذيب، لتسهيل عمل الإرهابيين والقتلة. ومعظم سكان العالم باتوا ضحايا لهذا التهديد وهذا الرعب، فلا أحد يعرف متى يمكن أن تحصل عملية إرهابية، أو ربما حرب نووية، أو متى يمكن أن تنفجر أي من هذه الأسلحة الرهيبة نتيجة خطأ ما، أو لأي سبب آخر.

لقد سخر هؤلاء قواهم ومكتشفاتهم للتدمير ولزعزعة توازن الطبيعة وتلويثها وهدم المدن وترويع الناس؛ ومن سيدفع الثمن! الأبرياء حتماً هم من يدفع الثمن، ففي كل عملية إرهابية هناك ضحايا منهم الضحايا المستهدفين من خلال العملية، ومنهم الضحايا الأبرياء الذين لا دخل لهم. وكيف يمكن لهؤلاء الذين يخططون لهذه المجازر أن لا يشعروا بعذاب الضمير وهم يشاهدون بدم بارد ما صنعت قدراتهم الشريرة.

وإذا عدنا إلى التاريخ نجد أن الأعمال الإرهابية يتضاعف عددها، رغم كل الدعوات المطالبة بوقف مثل هذه الأعمال. ففي العام 1968 بلغ عدد الأعمال

---

[30] الإرهاب السياسي، ص 14.

الإرهابية 152 عملاً ضد الأشخاص والممتلكات على السواء، وفي عام 1970 بلغ عددها 215 عملا، وفي العام 1972 فقد بلغ العدد 409 أعمال إرهابية. وما زالت هذه الأرقام تتضاعف رغم كل المحاولات من اللجان الخاصة لتلافي مثل هذه الأعمال.

" فاللجنة الخاصة التي تشكلت في الأمم المتحدة عام 1972 قد اقترحت على دول العالم بعض الاقتراحات الآيلة إلى تلافي الإرهاب الدولي وأهمها: التقيد بالإعلان العالمي لحقوق الإنسان القائل بحق الشعوب في تقرير مصيرها، وبالحفاظ على الحريات الفردية والقومية، والعمل من أجل مساعدة الشعوب الضعيفة على تحقيق حريتها، واقترحت أيضاً عدم تدخل الدول الكبرى في شؤون الدول الصغرى، وإلغاء التمييز العنصري والاستعمار بجميع وجوهه، وإعطاء الشعوب حقوقها القانونية والمشروعة، وحقوقها الإنسانية التي وصفتها شرعة حقوق الإنسان بأنها حقوق لا يمكن التنازل عنها ولا يسري عليها مرور الزمن، وهي الحرية الكاملة التي تؤمن لتلك الشعوب المساواة بينها وبين الدول القائمة والمعترف بها في الأمم المتحدة. ولكن واقع الحال لا يشير إلى بوادر أمل، فإن شرعة حقوق الإنسان التي ثبتتها جميع دول العالم غير معمول بها وخاصةً من قبل الدول الكبرى. ويكفي أن نستعرض القرارات الصادرة عن الأمم المتحدة المتعلقة بالقضية الفلسطينية وبالصراع العربي الإسرائيلي. وبنتيجة هذا الأمر الواقع أصبح الإرهاب وسيلة لم يكرسها القانون بعد، فقد كرسها التقليد والعرف والعادة. فهل يعود العالم إلى ضميره قبل أن يصبح الإرهاب قانوناً؟" [31]

أميركا التي تشن الحروب تحت عناوين مكافحة الإرهاب، تحصل على أرضها أبشع الجرائم، وأمريكا التي تحاول تفكيك بعض الدول لأنها حسب

---

[31] الإرهاب السياسي، ص 168- 169.

زعمها دول قمعية تقتل شعوبها ، وخاصة ما يحصل اليوم في سوريا ، في دولة كانت تمثل نموذجاً للأمان والاستقرار ، ومن يعرف سوريا عن قرب – وليس من خلال الآراء المغرضة أو مطبات الترجمة- لا بد وأن يعترف بهذه الحقيقة التي لا تُخفى على أحد ، والشعب السوري هو من أكثر الشعوب تمسكاً بالقيم والأخلاق، وهذه الدولة ليست دولة إرهابية ، ولكن السياسة المغرضة استطاعت أن تفعل ما فعلته بهذا البلد العريق.

وهنا لا بد من الإشادة بالدور التوفيقي الذي تقوم به سوريا بين الأصالة العربية والحداثة الغربية لأن "سوريا تمثل النقطة الوسط بين التيارات التي تتجاذب العرب في هذا العصر. فصدرها منفتح لتأثيرات الحضارة الغربية ، وقلبها زاخر بالعواطف والذكريات العربية. لذلك كان كل تفاعل بينها وبين حضارة العصر الحديث ، يهز فيها وجدانها العربي ، ويؤدي إلى تعبير جديد عن هذا الوجدان المستيقظ على شروط الحياة الجديدة. في حين نرى الأقطار العربية الأخرى موزعة بين طرفين متطرفين ، فهي إما شديدة البعد عن تأثير الحضارة الحديثة ، بعداً يترك الوجدان هاجعا متبلدا وإما شديدة القرب من تأثير هذه الحضارة بشكل يطغى على هذا الوجدان فيجعل يقظته أشبه بيقظة المحموم تذهله عن شخصيته وهويته." [32]

وهل رسالة الديموقراطية التي أرسلتها أمريكا حققت للشعب السوري وللشعوب العربية الأمان!. وهل المواطن سيشعر بالأمان إذا لم يكن هناك قوانين صارمة تعاقب المجرمين والقتلة. وماذا تعني الحرية إذا تُرك لهؤلاء القتلة المجال لتحقيق مبتغاهم دون أن يردعهم أي رادع.

"في الدورة الثامنة والعشرين التي عقدتها الجمعية العمومية في الأمم المتحدة أقترح وفد الولايات المتحدة الأمريكية مخططاً يتناول مسألة الإرهاب وطرق

---

[32] الفكر العربي وصراع الأضداد ، ص 437.

معالجتها، ويقدم تعريفاً لهذه الظاهرة يقوم على اعتبارها فعلاً منسوباً إلى " كل شخص يقتل شخصاً آخر، في ظروف مخالفة للقانون، أو يسبب له ضرراً جسدياً بالغاً، أو يخطفه أو يحاول القيام بفعل كهذا." فإذا دققنا في هذا الاقتراح وفي ظروفه نستطيع أن نستخرج عدة مؤشرات ودلائل ذات مغزى، فمن جهة أولى يبدو واضحاً أن هذا التعريف يغض النظر عن الصفة السياسية للإرهاب، إذ يقتصر هذا الأخير على مجموعة أفعال فردية ومعزولة تتعلق بالقانون العام وتنطبق عليها مبادئ القانون الجنائي دون غيره، ومن جهة ثانية، يستثني هذا التعريف من منظوره إرهاب الدولة الذي يستوفي بصورة كاملة الشروط الأساسية للإرهاب ويتصف بصفاته البارزة والرئيسية. وفي أحسن الحالات قد يكون بالإمكان الاستنتاج أن السبب في كون هذا التعريف لا يدخل ضمن مجال الإرهاب الإجراءات الإرهابية التي تقوم بها الحكومات، يعود إلى اعتبارها أفعالاً يقرها القانون وتؤيدها شرعية الدولة. ثم يتضح أخيراً من هذا التعريف المنحاز والمخالف لواقع الإرهاب الموضوعي إنه صادر عن موقف تبسيطي يستخف بالشعوب المهضومة حقوقها والرازحة تحت نير الاستعمار، كما يغض النظر عن الأقليات المضطهدة والخاضعة لكافة أنواع الاستبداد والقمع والاستغلال. إلا أن هذه النواقص التي تشوب تعريف الولايات المتحدة للإرهاب يمكن النظر إليها من وجهتين مختلفتين، الوجه الأول يتعلق بظاهرة الإرهاب نفسها، وهو أن الإرهاب على مستوى الدولة هو دائماً " حرب للآخرين" ومعنى ذلك أنه ليس من دولة تجرؤ على الاعتراف والإقرار بلجوئها إلى هذه الوسيلة بل تنسبها دائماً للآخرين من دول وجماعات وأفراد، أما الوسائل الإرهابية التي تستعملها وتلجأ إليها فهي من باب مقاومة الإرهاب أو من أبواب أخرى على هذا النمط تتستر وراءها. أما الوجه الثاني يتعلق بالولايات المتحدة نفسها، وهو أن هذه الدولة وبسبب سياسة الهيمنة التي تمارسها والتي

ترتدي غالباً الطابع الاستعماري إزاء الشعوب والأمم الأخرى الأضعف منها، تتعرض من قبل هذه الأخيرة لجميع أنواع النقد والمعارضة والتمرد والعصيان والثورة وحتى الإرهاب، وذلك في مناطق عدة من العالم. ولهذا السبب يبدو أن التهيؤ العدائي المسبق ضد الإرهاب هو الذي يفسر هذا التبسيط البارز في موقف الولايات المتحدة إزاء هذه الظاهرة، كما يُفسر أيضاً اقتصارها على مجرد جريمة فردية، وذلك بهدف النيل من قيمتها وأهميتها وتحقيرها، من أجل تبرير اللجوء إلى القوة القمعية للحوؤل دون تفشيها ولإزالتها نهائياً من المجتمعات، إذ بهذه الطريقة اقترح الوفد الأمريكي أن تكون الحلول المناسبة للوقاية من الإرهاب ولوضع حد له." [33]

أهم مشاريع الرعب في العالم

" عام 1941 بدأ مشروع القنبلة الانشطارية المعروف بمشروع مانهاتن في الولايات المتحدة، وكان أضخم مشروع صناعي عرفته البشرية في تاريخها الطويل. وبإشراف العالِم أوبنهايمر في لوس آلاموس نيو مكسيكو عرف العالم أول سلاح نووي، وحتى اليوم لا تزال لوس آلاموس مركزاً لأحد أهم مخبرين رئيسيين لإنتاج واختبار الأسلحة النووية في الولايات المتحدة الأمريكية. وفي 6 آب 1945 ألقيت القنبلة المصنوعة من اليورانيوم على مدينة هيروشيما اليابانية، وبعد ثلاثة أيام ألقيت قنبلة نووية مصنوعة من البلوتونيوم على مدينة ناكازاكي، وفي تلك الفترة اليابان لم تكن تملك السلاح النووي." [34] وبقيت الولايات المتحدة المالك الوحيد للسلاح النووي منذ العام 1945 وحتى العام

[33] الإرهاب السياسي، ص 85.

[34] مجلة عالم الفكر، الكويت المجلد 36، ص 249.

1949. ثم استطاع الاتحاد السوفييتي أن يصنع قنبلته النووية عام 1949 واستمر بتطوير أسلحته بصورة مطردة ودون توقف على اعتبار أنه نوع من الخوف الوطني فهو يرى في القوة الأمريكية تهديداً له "أن اهتمام الاتحاد السوفييتي الرئيسي هو ضمان أمن حدوده الممثلة في أبعاد شاسعة، فيحيط به حلف شمال الأطلسي من الغرب، والصين واليابان من الشرق، كما أن الأراضي الروسية تعرضت للغزو الألماني مرتين ، وفي الحرب العالمية الثانية فقد الاتحاد السوفييتي عشرين مليوناً من أبنائه، فالتاريخ والجغرافيا يتحدان لينتجا إحدى الحقائق الأساسية الملحة في سياسة الاتحاد السوفييتي" [35]

"وفي سنة 1950 قامت أمريكا بتطوير السلاح النووي، وصنع القنبلة الهيدروجينية، لقد كان القرار في مشروع قنبلة الاندماج أحد أهم القرارات في التاريخ الأمريكي وأُنجز هذا المشروع دون العودة إلى عامة الشعب بسبب الخوف من أن يفتح النقاش الباب أمام الاتحاد السوفييتي لكشف أسرار الأسلحة النووية." [36] ويقال أن معظم الذين عملوا في مشروع منهاتن لم يعرفوا بالضبط أنهم كانوا يعملون لتطوير السلاح النووي." وفي الشهر العاشر عام 1999 رفض مجلس الشيوخ الأمريكي بأكثرية 51 صوتاً مقابل 48 صوتاً رفض المصادقة على المعاهدة المتعلقة بمنع التجارب النووية (C T B T)" [37]

"وأمريكا الدولة الوحيدة القادرة على تخصيص ما يزيد عن 270 مليار دولار سنوياً للأغراض العسكرية (حسب تقديرات المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية عام 1995) ولا تقتصر القدرات العسكرية الأمريكية على الأسلحة التقليدية، بل أن الولايات المتحدة هي أساساً قوة نووية ولا توجد دولة أخرى في العالم تملك قدرات نووية تماثل أو تقارب ما بحوزتها فهي الأولى في

[35] المسيحية والقضايا المعاصرة، ص 110.

[36] مجلة عالم الفكر، المجلد 36 . ص 253.

[37] بحوث في القانون والسياسة، ص، 137.

العالم من حيث الرؤوس النووية التي تقدر بحوالي 15 ألف رأس نووي وهي الأولى من حيث عدد الصواريخ الاستراتيجية العابرة للقارات والتي تصل إلى 1000 صاروخ وهي الأولى أيضاً من حيث عدد الغواصات النووية الذي يقدر بحوالي 700 غواصة نووية وهي الأولى من حيث عدد القاذفات الاستراتيجية البعيدة المدى التي تزيد على 500 قاذفة استراتيجية، كما أنها الدولة الوحيدة التي تملك برنامج حرب النجوم الذي يوفر للولايات المتحدة من دون غيرها من دول العالم حماية ضد أي هجوم نووي من الخارج." [38]

"وتقوم القوة الاستراتيجية للولايات المتحدة على ثلاثة أنواع مختلفة من الأسلحة. مكونة من 10000 صاروخ بالستي عابر للقارات موجودة في قواعد على اليابسة (I C B M S) و 600 أخرى (S L B M S) تنطلق من الغواصات، بالإضافة إلى 300 قاذفة قنابل استراتيجية كل واحدة من هذه القوى محمية ضد أي هجوم مباغت بأي طريق جاء. وتوجد الصواريخ البالستية في قواعد محمية مقاومة للانفجار، وشديدة الصلابة، في جنوب غرب وسط الولايات المتحدة. أما الصواريخ البالستية من النوع الثاني فتحملها غواصات بولاريس وبوسيدون المختبئة في البحار." [39]

وبسبب هذا الابتكار الأمريكي " هُددت الأرض بالتدمير النووي مرات عديدة خلال القرن العشرين المنصرم، هذا ما حصل في عام 1962 أثناء الأزمة الكوبية. كذلك هي الحال خلال حرب فيتنام، حيث اقترح بعض قادة الجيش الأمريكي استخدام الأسلحة النووية عندما بدأت تتصاعد خسائرهم هناك، حيث كتب الجنرال وليم ويستمورلاند قائد الجيوش الأمريكية في فيتنام أثناء الفترة الواقعة بين عامي 1968 - 1972 في مذكراته يقول من الخطأ

---

[38] مجلة عالم الفكر، المجلد 31 ص 13.

[39] مجلة عالم الفكر ، المجلد 36، ص، 256.

عدم التفكير في استخدام أسلحة تكتيكية نووية. وكذلك في عام 1973خلال حرب أكتوبر جمعت إسرائيل عدة قنابل ذرية وهيأتها لاستخدامها ضد سورية ومصر، وحملتها على طائرات جاهزة للإقلاع، بانتظار أوامر قيادة القوى الجوية لبدء الهجوم، وقبل إطلاق الزناد، كانت دفة المعارك قد مالت لمصلحة إسرائيل بفعل الجسر الجوي الأمريكي، فلم يعد هناك حاجة لاستخدامها." [40]

فحياة البشر حتماً باتت مهددة بسبب هذا الكم الهائل من الأسلحة البالغة الدقة والمعقدة والتي قد تنفجر يوماً لسبب ما لم يكن بالحسبان، حتى لو خضع هذا الموضوع لأكبر قدر من الانضباط، فهناك دائماً خطر وقوع الإنسان في الخطأ. و قد يكون الخطر بسبب عوامل طبيعية أو كوارث، أو بسبب نزوات استعمارية شيطانية، وبقرارات لأشخاص لديهم ميول عدائية مرضية، وحيث لا توجد أي قيم رادعة عند البعض تحول دون القيام بعمليات التدمير والقتل. ولا يمكن تجاهل وجود الأسلحة الكيميائية، والأسلحة البكتيرية.

والولايات المتحدة هي أول من استخدم السلاح النووي، وهي من أطلق عقيدة الحروب الاستباقية تحت ذريعة مكافحة الإرهاب، وأي دولة لا تتوافق مع السياسة الأمريكية قد تكون عرضة للهجوم. ومن أخطر العقائد التي تقوم عليها السياسة الأمريكية هي أفكار ميكافيللي من أن الغاية تبرر الوسيلة، وقوله:"لا يستطيع الأمير أن يمارس بشكل مطلق كل الفضائل إذ أن مصلحته في البقاء تضطره غالباً إلى مخالفة شرائع الإنسانية والإحساس والدين".

"وتُعتبر أمريكا من أهم منظري فكرة الحرب العادلة أو الحروب الاستباقية، وهي تستخدم أيضاً فكرة الخوف من الإرهاب ومحور الشر لبسط سياساتها الخارجية، كما حصل في غزو العراق وأفغانستان 1998، والتدخل في

---

[40] مجلة عالم الفكر ، المجلد 36 ص 257.

كوسوفو 1999، وفي البوسنة 1995، وفي هاييتي1994، وفي الصومال 1992- 1994، وفي غزو بنما، وحالياً التدخل الفاضح لتدمير سورية. وما أكثر الأفكار العنصرية التي صاغها باحثون ينتمون إلى أشهر الجامعات الأمريكية، "ففي أطروحة فوكوياما أفكار مفادها أن الثقافة الغربية الظاهرة تحمل قيماً كونية أصبحت تعني البشرية جمعاء. وأن الولايات المتحدة الأمريكية باعتبارها القوة العظمى الممثلة للحداثة الجديدة والراعية لقيم الديمقراطية في العالم المعاصر لم يبقى أمامها سوى العمل على احتواء تلك الضواحي والمناطق الثقافية الهامشية العصية على الحداثة والمتنكرة للتقدم، والسعي نحو إدماجها حتى بالقوة إن اقتضى الأمر ذلك، وإن بإمكان هذه القوة العظمى أن تتصرف بحرية كاملة عندما يتعلق الأمر بأمنها ومصالحها الحيوية، فمن حقها تماماً ألا تؤمن بغير الشرعية النابعة من مؤسساتها الديمقراطية، وألا تبحث عن مصدر آخر للشرعية أعلى قدراً من دولتها القومية، بل وليس بالمنكر عليها أخلاقياً إن هي استغلت منظمة الأمم المتحدة ذاتها من أجل كسب التأييد لسياساتها المتشددة تجاه بعض الدول التي تنتمي إلى الثقافة العربية الإسلامية. - فرنسيس فوكوياما صاحب الفرضية التي تصور العالم مستقبلاً تنتشر فيه الثقافة الغربية باعتبارها غاية ونهاية التطور البشري- . أما هنتينجتون فينطلق في تحليلاته من أنه هناك حضارتان يستحيل اندماجهما في الغرب وانسجامهما مع حضارته المؤسسة على العقلانية والعلمانية وحقوق الإنسان، الأولى هي الحضارة العربية الإسلامية وهذه الثقافة بنظره مجبولة على التطرف والعنف، والثانية هي الحضارة الصينية الكونفوشيوسية." [41] فهل يعقل أن يكون هذا الفكر العنصري هو الفكر الذي سيحكم العالم!. وهل يعقل أن يكون هذا الجهل بحقيقة الحضارات

---

[41] مجلة عالم الفكر المجلد 36 ص 123.

والقيم والأخلاق هو دليل على فكر منفتح وناضج. وأي فكر يحق له أن يفرغ كل الثقافات العريقة من مضامينها.

الالتفاف على القوانين

أصبحت أمريكا تعتمد بشكل متزايد على الشركات الخاصة (PMFS) فقد عقدت وزارة الدفاع الأمريكية (البنتاغون) أكثر من 3000 عقد خلال العشر السنوات المنصرمة. وهناك أكثر من 60 شركة تعمل الآن في العراق تستخدم أكثر من 20 ألف عنصر يقومون بمهمات عسكرية. كالتحضير للحرب وتدريب القوات الأمريكية قبل الغزو. وأفراد هذه المؤسسات تولوا عمليات التموين اللوجستية والدعم خلال الإعداد للحرب. ومعسكر "الدوحة" الذي استخدم كنقطة انطلاق للهجوم على العراق لم يُبنى بواسطة إحدى هذه الشركات فقط بل أن تجهيزه وتفعيله تم من قبل إحدى هذه المؤسسات. كذلك خلال غزو العراق فإن الشركات المقاولة أمنت إعداد وصيانة وشحن الكثير من أنظمة الأسلحة الأمريكية المتطورة والمعقدة كطائرات ب 2 (الشبح) القاذفة، والطائرات المروحية (الأباتشي) كذلك ساعدت في تزويد أنظمة المعركة العسكرية كبطاريات الصواريخ (باتريوت) وأنظمة الصواريخ الدفاعية البحرية بكل ما تحتاجه. إن هذه الشركات المقاولة (PMFS) لعبت دوراً كبيراً في التحضير لغزو العراق واحتلاله وفي التصدي لأعمال المقاومة العراقية. وهذه الشركات تقوم بأعمال لا ترغب القوات الأمريكية القيام بها كتلك التي لا تحظى بموافقة قانونية. فهذه الشركات من الصعب تحديد من يعمل لها ولمصلحة من تعمل.

والاندفاع من أجل الكسب المادي قاد بعض الشركات إلى إخفاء طرق عملها فعلى سبيل المثال: اكتشف محققو الجيش الأمريكي في فضيحة سجن أبو غريب أن حوالي 35٪ من المحققين ممن يعملون لدى شركة CACI يفتقرون إلى التدريب العسكري الرسمي كمحققين، وفي حالات أخرى كشفت التحقيقات عن وجود محقق كان جندياً في الجيش البريطاني لكنه سجن بسبب تعامله مع الإرهابيين الايرلنديين، وهناك جندي في جنوب أفريقيا كان قد اعترف سابقاً أنه قصف منازل أكثر من 60 ناشطاً سياسياً خلال حقبة التمييز العنصري. لقد عمل المقاولون العسكريون لصالح حكومات ديمقراطية، والأمم المتحدة، ولصالح منظمات إنسانية وبيئية كما أنهم استخدموا لصالح أنظمة دكتاتورية ومنظمات ثورية، وكارتل المخدرات. وكذلك قبل 11 سبتمبر 2001 هناك من عمل لصالح منظمة القاعدة. وفي مارس 2004 اتهمت شركة لوغو لوجستكس وهي شركة خاصة بريطانية جنوب أفريقية، بالتخطيط للقيام بانقلاب على حكومة مالابو. ومثال آخر قام بعض المساجين السابقين برفع دعاوى قضائية أمام المحاكم الأمريكية لمقاضاة الشركات الخاصة المتورطة بموضوع أبو غريب، كما قامت عائلات موظفي شركة "بلاك ووتر" الأربعة الذين قتلوا في مدينة الفلوجة بمقاضاة الشركة في محكمة "نورث كارولاينا" حيث ذكروا في صحيفة الادعاء أنه تم إرسال الرجال الأربعة في وحدة أصغر مما هو مذكور في عقد التوظيف وتم تزويدهم بأسلحة وآليات وتجهيزات دون المستوى المطلوب. والمقاول الذي يقع في الأسر يصعب على محتجزيه تحديد وضعه القانوني، مما يعني وضعاً أليماً وغير واضح أو معروف، مثلما حدث لثلاثة أمريكيين من شركة "كاليفورنيا ميكروويف سيستم" الخاصة تحطمت طائرتهم في منطقة الثوار في كولومبيا سنة 2003 فاحتجزوا في حين غسل رؤساؤهم وحكومة الولايات المتحدة

أيديهم من الموضوع. كذلك تبرز الصعوبات عندما يرتكب أحد المتعاقدين جرماً ما فمن غير الواضح كيف ومتى وأين؟ ومن هي السلطة الصالحة أو المسؤولة عن التحقيق والمحاكمة، أو المعاقبة لهذا الجرم، وذلك على عكس الجنود النظاميين الذين يحاسبون وفق قوانين بلادهم العسكرية. بينما المتعاقدون يجدون أنفسهم في وضع ضبابي وغير محدد في القانون الدولي. وهكذا نظراً لوجود هذه الثغرات فإن أحداً من المتعاقدين لم يعاقب أو يحاكم على جريمة ارتكبها. والفشل في ضبط ومراقبة سلوك الشركات الخاصة كان واضحاً جداً في حالة سجن أبو غريب في العراق، إذ تشير التقارير إلى أن جميع المترجمين وحوالي نصف المحققين كانوا في شركتي مقاولات خاصتين هما "تيتان" و "كاسي" ولم تتم محاكمة أو معاقبة الموظفين الذين ثبت إدانتهم لأن التحقيق الرسمي الوحيد الذي تم، قامت به شركة كاسي حيث حققت مع بعض موظفيها ومن غير المستغرب أن تستخلص أنه لم يكن هناك أي أخطاء في سلوك موظفيها." [42]

أمريكا تشن الهجوم تلو الهجوم على كل دولة لا تتوافق مع مصالحها. وتعمل على تفكيكها وإضعافها، لأن هذه الدول حسب زعمها لا تستطيع حماية مواطنيها، أو هي دول إرهابية، أو تمتلك أسلحة محظورة؛ وهل استطاعت أمريكا تأمين الحماية، وإعطاء الحقوق لهؤلاء المواطنين في الدول التي تهاجمها." فأمريكا التي تحمل لواء مكافحة الإرهاب في العالم، عرفت جيداً كيف تصوغ قرارات الأمم المتحدة وما تتضمنه من شروط مفبركة على الطريقة الأمريكية، فحصرت تطبيقها بالعرب بشكل خاص، والمسلمين بشكل عام، وأخذت تفسر تلك القرارات بالشكل الذي يتناسب مع الرغبات الأمريكية، التي هي معايير صهيونية أولاً وأخيراً، وتلفيق التهم هين وسهل،

[42] مجلة الثقافة العالمية، العدد 150، راجع ص 153- 155.

فالسودان دولة تساند الإرهاب، وتم إصدار قرار دولي بتطبيق الحصار عليها، وسورية وإيران مدرجتان في قائمة الدول الإرهابية، لأنهما تساندان المقاومة الفلسطينية، والمقاومة اللبنانية، وكلا الفئتين مع الانتفاضة التي ما أن تدفن شهيداً إلا وترفع الأكف شهيداً آخر، ومعظمهم من الأطفال، الذين يسقطون برصاص العدو الصهيوني، بينما السلاح الذي يحمله هؤلاء الأطفال لا يتعدى الحجر... وهذه الفئات بحسب تفسير أمريكا لقرارات الأمم المتحدة هي فئات إرهابية، وكل من يساند هذه الفئات فهو إرهابي... وهكذا أصبحت أمريكا والكل يعرف تستخدم إدراج اسم سوريا وإيران وغيرهما في لائحة الإرهاب كورقة ضغط على هذه الدول أو تلك، و تلوح بهذه الورقة بين الحين والآخر." [43]

" في محاضرة للكاتب الباكستاني إقبال محمد تحت عنوان " إرهابهم وإرهابنا" التي ألقاها في جامعة كولورادو في الثامن عشر من تشرين الأول 1998 سلط الضوء على ذهنية الإرهاب ذي الصلة بالولايات المتحدة الأمريكية، يقول الكاتب: في عام 1985 استقبل الرئيس رونالد ريغان مجموعة من الرجال الملتحين في البيت الأبيض، ثم تحدث إلى الصحافة وأشار إليهم وقال: هؤلاء هم المعادلون الأخلاقيون لآباء أمريكا المؤسسين. هؤلاء الرجال كانوا المجاهدين الأفغان آنذاك، كانوا يحاربون "أمبراطورية الشر" ويعني بها الاتحاد السوفييتي، ولا يخفى ما في هذا الأسلوب من سخرية لاذعة، لا سيما وأنه يتناول حقيقةً لا يمكن نكرانها أو تجاهلها. ولكن يأتي الوجه الآخر لتلك الحقيقة اللاذعة، يذكر الكاتب : في آب 1998 أمر رئيس أمريكي آخر (ويعني به كلينتون) بقصف صاروخي من البحرية الأمريكية المتمركزة في المحيط الهندي بهدف قتل أسامة بن لادن ورجاله في معسكرات

---

[43] قضية الإرهاب بين الحق والباطل، ص 42.

أفغانستان، وهنا يتوجه المحاضر الكاتب إقبال إلى الجمهور الذي يستمع إلى محاضرته بالقول: "ولا أحب أن أحرجكم بأن أذكركم بأن السيد بن لادن الذي أطلق عليه 15 صاروخاً أمريكياً أرسلت إلى أفغانستان، كان قبل أعوام قليلة فقط من هذه الحادثة المعادل الأخلاقي لجورج واشنطن، وتوماس جيفرسون، ولكنه غَضِب لأنه أُسقط من مرتبة المعادل الأخلاقي لآبائكم المؤسسين فراح يفرغ غضبه بطرق مختلفة." [44]

" ولكن بعد سبتمبر 2001 فقدت أميركا سلطتها الأخلاقية، خسرت مصداقيتها نتيجة تراكم الشواهد التي تدين فظائع جنودها في حرب فيتنام، ومن دعمها الأنظمة القمعية في أمريكا الجنوبية والوسطى واستمرارها في برامج التدريب التي شرعت استخدام وسائل متطورة في التحقيق(التعذيب) في بلدان النصف الجنوبي من الكرة الأرضية، وفي جنوب فيتنام، وأخيراً يتعرض الموقف الأخلاقي الأمريكي للانتقاد نتيجة تنصله من الالتزام باتفاقيات جنيف، والانتهاك المؤكد لكرامة بعض السجناء بعد أحداث سبتمبر، ونتيجة لاختفاء عدد من المشتبه بأنهم من الإرهابيين أثر زجهم في السجون وقسوة التعذيب للمعتقلين والمستجوبين، والربط بين أعمالهم الإرهابية والحكومات التي ينتمون لها." [45] وأحياناً تتخطى سياسات الهيمنة الحدود ، هذه الهيمنة التي لا تريد أن تترك شيئاً للآخرين، فيتم التدخل العسكري أو الاستغلال الاقتصادي في دول ذات استقلال وسيادة، وكأن أصحاب القرار ليسوا على علم بأن مبدأ القانون الدولي يمنع أي دولة من التدخل في شؤون دولة أخرى مستقلة عن طريق القوة. وهذا التدخل يخلق حالات من الخوف والقلق لدى الشعوب، ويضع بعض الدول الآمنة أمام خطر الفوضى وفقدان سيادتها على

---

[44] المصدر نفسه، ص 73- 74.

[45] مجلة الثقافة العالمية، العدد 150، ص 129 – 135.

أراضيها، أو تقويض حضارتها ومقوماتها. " ولقد أدى هذا اللا تماثل الدولي ببعض المعلقين إلى القول إن علينا أن نستبدل الحديث عن "المجتمع الدولي" بالحديث عن "القوى الغربية" أو حتى "الهيمنة الأمريكية". ومن وجهة النظر هذه فإن المنظمات الدولية تكون أساساً وسائل لتقدم المصالح السياسية الجغرافية للدول الغربية الأكثر قوة، وليست آليات لتوحيد وتنمية القيم المشتركة لشعوب العالم. ومن ثم نشرها للتعددية الثقافية هو جزء من دهاء العقلية الاستعمارية." [46]

العدالة الدولية

من أهم وظائف التشريع هو تحقيق الأمان والعدالة. ولكن بميزان العدالة الدولية يتم تبديل الأوزان والأحجام حسب هوية القضايا. وليس بما تقتضي المصلحة العامة أو المصلحة الوطنية. وهل استطاعت كل هذه القوانين والمحاكم والاتفاقيات تحقيق الأمان؟.

"لقد شهدت مؤسسات الأمم المتحدة نمواً نتيجة تبنيها عدداً من الاتفاقيات، كاتفاقية العام 1984 الخاصة بتحريم التعذيب، وتعيين مراقبين دوليين على علاقة مع مفوضية الأمم المتحدة لحقوق الإنسان، وصولاً إلى إنشاء مكتب للمفوضية العليا لحقوق الإنسان في الأمم المتحدة في العام 1993. وتضمنت أيضاً الحقوق المدنية والسياسية وحاجة كل دولة إلى تقرير مصيرها في الحياة حسبما تشاء." [47] بل وأكثر من ذلك لقد تضمن الإعلان العالمي لحقوق الإنسان

---

[46] أوديسا التعددية الثقافية، عالم المعرفة، العدد 377. ص 27.

[47] مجلة الثقافة العالمية، العدد 150. ص136.

حق الأقليات في تقرير المصير، فالدفاع عن التنوع الثقافي هو أمر أخلاقي ولا ينفصل عن الكرامة الإنسانية.

ولكن"الولايات المتحدة الدولة الديمقراطية الأولى في العالم لم تصادق على اتفاقية روما القاضية بتشكيل محكمة الجزاء الدولية إلا في 2000/12/31 وتوقيع هذه الاتفاقية جاء بساعات قليلة قبل انتهاء الفترة القانونية للمصادقة على الاتفاقية التي حددت بموجب قانون تأسيس المحكمة (المادة 128) من القانون الفقرة الأولى والتي تنص على أن الفترة القانونية للمصادقة على هذه الاتفاقية تمتد حتى غاية 2000/12/31 فوزيرة الخارجية الأمريكية مادلين أولبرايت كانت تؤيد التوقيع على المعاهدة بينما كان البنتاغون والجمهوريون يعارضون التوقيع على المعاهدة، وأسباب معارضتهم هو مطالبتهم بضمانات تقضي بعدم ملاحقة ومحاسبة أي مواطن أمريكي أمام محكمة الجزاء الدولية، وموقفهم يتلخص بالعبارة التالية:"نحن نريد محكمة جزاء دولية ولكن بشرط أن تقوم هذه المحكمة بمحاكمة الآخرين "[48] ومن الواضح أن التوقيع على المعاهدة كان بدافع توجيه سياسة وعمل المحكمة، ولم يكن الغرض من التوقيع حماية الضحايا أو تحقيق العدالة. كما رفضت واشنطن أيضاً التوقيع على اتفاقية أوتاوا عام 1997 والخاصة بمنع استعمال الألغام ضد الأفراد. ورغم توقيع الولايات المتحدة على معاهدة محكمة الجزاء لم يصادق مجلس الشيوخ على هذه المعاهدة، وهذا يعني أن الولايات المتحدة الأمريكية قادرة على نقض هذه الاتفاقية أو العدول عن تطبيقها وذلك حسب ما تقتضيه مصلحتها الخاصة.

---

[48] بحوث في القانون والسياسة، ص، 134.

المحاكم الدولية

ومهمة المحاكم الدولية تتحدد بالنظر في الجرائم ضد الإنسانية وجرائم الحرب ومجرمي الحرب. ولكن تعريف الجرائم ضد الإنسانية يترك الباب مفتوحاً أمام التهرب من المسؤولية. ومن الاتهامات التي وجهت إلى المحاكم العسكرية، أنها محاكم للمنتصرين. " ومن الملفت للنظر بأن المحكمة لا يمكن لها النظر في أي جريمة اعتداء إلا عندما يتم تعريف جريمة الاعتداء من قبل الجمعية العامة للدول الموقعة على قانون المحكمة، على أن لا يكون ذلك في أي حال من الأحوال إلا بعد مضي فترة سبعة سنوات على الأقل من تاريخ بدء تطبيق قانون المحكمة، المصادف يوم 1- 7- 2002. (المادة رقم 5 والمواد رقم 21 و 123 من قانون المحكمة. وكأن الدول الكبرى والموقعة على قانون المحكمة وفي مقدمتها الولايات المتحدة أرادت أن تضمن لها حق الاعتداء وإعلان الحرب على دولة أخرى ولسنوات أخرى دون أن تقع تحت طائلة المسائلة أو الملاحقة من قبل محكمة الجزاء الدولية. ونص المادة رقم (11) من اتفاق 1968 يتضمن : بأن جرائم الحرب وجرائم ضد الإنسانية تنطبق ليس فقط على الطرف الثاني الذي يقوم بتنفيذها وإنما أيضاً على الأطراف التي تسمح بارتكابها" [49] فهذه المجتمعات التي تدعي صفة الإنسانية ألا يمكنها وقف هذه الجرائم التي ترتكب ضد الإنسانية إذا أرادت ذلك!. وهل العدالة الدولية تعني اتهام أي دولة تقول لا للولايات المتحدة بأنها دولة داعمة للإرهاب، كما ورد في كلام الرئيس ريغان في العام 1981:"إن على أي دولة في أي منطقة من العالم أن تعلن موقفها: أما الوقوف إلى جانبنا أو أنها تُعد داعمة للإرهاب. وقال برادفورد أي برنسون، الذي شغل في السابق منصب مساعد رئيس المكتب

---

[49] المصدر نفسه، ص 92- 79.

الاستشاري في البيت الأبيض: إن هذا الكلام يعني دعوة الناس إلى التخلص من أي مشتبه لا يعجبك موقفه، يعني دعوتك لكي تقتل هذا الإنسان دون أي إنذار مسبق أو اعتذار. والمنطق الذي يبرر هذا التصرف هي الحاجة إلى ممارسة أي شيء ممكن لحماية الأمريكيين حتى لو كان هذا يشكل إساءة للناس الأبرياء."[50]

في عام 1999، دعت كل من الولايات المتحدة وبريطانيا إلى إصدار عفو عن مجرمي الحرب في سيراليون من أجل تسهيل إبرام اتفاقية جديدة للسلام، وحسب سوزان رايس مساعدة وزيرة الخارجية الأمريكية للشؤون الأفريقية "فإن السلام أهم بكثير من العدالة" وهكذا فقد جاءت اتفاقية لومي التي عقدت في تموز 1999 بعفو عام عن الجرائم التي ارتكبت منذ آذار 1991 ومع ذلك فإن هذا البند المخالف كلياً لأحكام القانون الدولي وللمبادرات المتزايدة الداعية لاتخاذ تدابير صارمة ضد الجرائم ذات الطابع الدولي لم يحظ باعتراف الأمم المتحدة. وفي أيار 2000 لم يكن أمام الولايات المتحدة وبريطانيا من خيار سوى تغيير موقفهما في أعقاب الخرق الذي تعرض له اتفاق السلام."[51] والأسلوب الذي أستعمله المجتمع الدولي لإدارة أزمة النازحين واللاجئين في سيراليون يمثل دلالة واضحة على تجاهل صناع السلام للاعتبارات الإنسانية "فخلال عامي 1997 و 1998 حرم شعب سيراليون من إمدادات المواد الغذائية الحيوية، وتوظيف المعونات العاجلة للمناطق التي يسيطر عليها المتمردون. وكان مشروعاً أن تسأل المنظمات الإنسانية نفسها حول تنفيذ برنامج للمعونات في مناطق يحكمها المتمردون بالبطش والإرهاب.

---

[50] مجلة الثقافة العالمية ، العدد 150 ص 138.

[51] العنف والسياسة والعمل الإنساني. ص 56 .

إن منظمات الإغاثة الإنسانية لا يمكن أن تخضع لأحكام سياسية كهذه من غير أن تتعرض للتشكيك في مبدأ النزاهة." [52]

" ولقد كانت السياسة في المزاد، حتى في تلك القضايا التي تنطوي على ما يتصل بالأمن القومي، فمثلاً في العام 1997 ألقى الرئيس كلينتون باعتراضات وزارة العدل جانباً وسمح لشركة أمريكية هي شركة الفضاء والاتصالات المحلية local space and communications أن تُصدر تكنولوجيا للصين تتيح لها (للصين) أن تطور قدرات صواريخها النووية، ورفع عنها عقوبات كانت قد فُرضت عليها بعد مذبحة مئات المتظاهرين من أجل الديمقراطية في العام 1989 في ميدان تيان آن مين." [53]

"وكانت حكومة كولمبيا العسكرية التي تدعمها الولايات المتحدة هي الرائدة في اغتيالات زعماء نقابات العمال ففي العام 2000 وحده تضمنت الحالات الموثقة 184 حالة قتل و189 حالة تهديد بالقتل وتسع حالات اختفاء و27 حالة اختطاف بالإضافة إلى نفي 80 عضواً من نقابات العمال و 139 كانوا ضحايا الاعتقال الاحتياطي وحدث 90٪ من الاغتيالات والتهديد بالقتل وسط نزاع بين العمال والإدارة. وتشير أكثر الأدلة إلى أن القتلة كانوا من مجموعات منظمة غير شرعية مرتبطة بالجيش ومدعومة من حكومة الولايات المتحدة وتسيطر عليهم النخبة الاقتصادية الكولومبية." [54] " وتضمنت مقترحات وثيقة مجلس الأمن القومي (N S C 68) استخدام القوة العسكرية في أي مكان وأي زمان حيث تلوح بوادر تهدد القيم الأمريكية الأساسية، بل كان هناك إصرار على أن أمن النظام الأمريكي يجب ألا يتعرض للخطر نتيجة أي إجراءات سواء كانت مكشوفة أم سرية، متسمة بالعنف أم سلمية،

---

[52] المصدر نفسه، ص 64.

[53] السيطرة الصامتة عالم المعرفة العدد 336 ص 116.

[54] الحرب الطبقية العالمية، ص 249.

وذلك بهدف إفشال خطط الكرملين. وقد أدى هذا الموقف إلى إقرار ميزانية ضخمة للجيش الأمريكي واعتماد وسائل العصيان المضاد والانقلابات وتقويض الاستقرار الداخلي والتدخل في شؤون البلدان الأمريكية اللاتينية، كما أدى إلى الإطاحة بالزعيم الإيراني محمد مصدق في العام 1953، والموافقة على اغتيال الزعيم الوطني الثوري المعروف باتريس لومومبا في الكونغو في العام 1961 ومساندة الحكومات القمعية يومذاك في أندونيسيا وكوريا الجنوبية والفلبين وغيرها من الدول عبر العالم. وفي داخل الولايات المتحدة نفسها أفسح هذا الموقف المجال في الخمسينات طوال عقدي الستينات والسبعينات لإجراءات المراقبة العامة، وإجازة التنصت على الهواتف."[55]

"وكان الخوف من وصول الشيوعية إلى أمريكا اللاتينية هو الذي دفع الولايات المتحدة الأمريكية للإطاحة بنظام الرئيس الوطني واليساري جاكوب أربينز المنتخب شعبياً في غواتيمالا عام 1954. و واصلت الولايات المتحدة على مدى العقود الثلاثة التالية إمداد قوات الأمن الغواتيمالية بالأسلحة والتدريب والمعونات لضمان استمرار مقاومتها للمخربين الشيوعيين الذين افترضت وجودهم في تلك البلاد. وتضمنت أعمال الإرهاب الداخلي في البلاد ضم عدد من فرق الموت المستقلة إلى القوات المسلحة، وتزايد الاعتماد على الممارسات العدوانية الإرهابية المنظمة والمكشوفة كالاغتصاب والتعذيب والاغتيالات. وسرعان ما تحولت تلك الدول إلى بؤرة لتصدير هذه الممارسات في المنطقة بأسرها وتفشيها بالطريقة ذاتها. وقد ذكر تقرير لجنة تقصي الحقائق التابعة للأمم المتحدة في العام 1999 أن هناك نحو 200 ألف إنسان تم قتلهم على يد السلطات الغواتمالية. وأشار التقرير إلى أن المساعدات الأمريكية العسكرية كانت تُستخدم لدعم أجهزة الأمن المحلية، وتدريب قياديي القوات المسلحة

[55] مجلة الثقافة العالمية، العدد 150 ص137.

على الأجهزة الحديثة المستخدمة في مواجهة العصيان، وهما عاملان حاسمان يتصلان بانتهاكات حقوق الإنسان خلال المواجهات المسلحة." [56]

" وقد ذكر تقرير لمنظمة "هيومان رايتس ووتش" أن نحو مئة من السجناء في ماليزيا قد تعرضوا للتعذيب منذ أغسطس 2001 للاشتباه بعلاقتهم بأعمال إرهابية، وقد هددوا بإرسالهم إلى غوانتانامو التي أصبحت رمزاً لانتهاكات حقوق الإنسان. وفي مايو من العام 2005 استخدمت القوة ضد المدنيين في "أنديجان" وقتل ما بين 700 إلى 2000 شخص بحجة انتمائهم إلى جماعات إرهابية، وقد ماطلت السلطات طويلاً قبل السماح للجنة الدولية للصليب الأحمر، أو لمنظمة الأمن والتعاون الأوروبية بمقابلة المحتجزين الألبان بحجة أنهم إرهابيون. وخلال عهدي الرئيس نيكسون والرئيس جيرالد فورد بلغت انتهاكات حقوق الإنسان ذروتها في الأرجنتين والتشيلي، لكن مستشار الأمن القومي هنري كيسنجر لم يصف الحكومتين الديكتاتوريتين في هذين البلدين كنظامين منتهكين لحقوق الإنسان بل وصفهما كعدوين للفوضى في بلدين قال إنهما يتعرضان لهجوم شرس من قوى متطرفة وغير ديمقراطية ولا تعترف بنظام السوق. ومثال آخر على انتهاكات حقوق الإنسان هو تجاهل المجتمع الدولي مقتل ما بين 300 إلى 500 إنسان على يد الجنود المكسيكيين في مظاهرة طلابية حدثت في شهر أكتوبر من العام 1968 قبيل دورة الألعاب الأولمبية في العاصمة مكسيكو." [57] أن تصديق دولة على اتفاقية ما يعني التزامها بالسماح للجان الأمم المتحدة بالتمحيص في مدى التزامها بذلك. ولقد تعرضت سمعة أمريكا عبر العالم إلى تشويه كبير، كبلد يحترم حقوق الإنسان ويدافع عنها. فقد أظهر استبيان نشر في يناير العام

---

[56] المصدر نفسه، ص 139.

[57] مجلة الثقافة العالمية العدد 150 ص 141- 142.

2006 أن المواطنين في 13 بلدا في العالم يعتبرون أن الولايات المتحدة تمارس نفوذاً إيجابياً، وخالفهم الرأي مواطنو 18 دولة بينما عبر عدد من الدول عن تراجع نظرتهم عما كان في العام الذي سبقه. ولقد كانت الحرب في العراق أحد العوامل المهمة في ذلك، ودعت الأكثرية إلى إغلاق سجن غونتانامو على أساس أنه يرمز للظلم وقمع الحريات. وكذلك حين يُبلغ كبار المسؤولين الأمريكيين أمثال رامسفيلد ورايس ومستشار الأمن القومي ستيفن هادلي، رئيس اللجنة الدولية للصليب الأحمر أنه من غير الممكن للجنة الدولية مقابلة المعتقلين المتطرفين، يكون هذا التبليغ غاية في التطرف وطمس الحقائق.

"وفي شهر فبراير 2004 قامت منظمة الصليب الأحمر بتسليم السلطات الأمريكية تقريرها حول معاملة قوة التحالف لأسرى الحرب والسجناء العراقيين. وقد نشر جزء من هذا التقرير في جريدة "وول ستريت" بتاريخ 7- 5- 2004. وكشف هذا التقرير عن ممارسات لا أخلاقية بحق السجناء وهذه الممارسات منتشرة في كافة السجون وليس فقط في سجن أبو غريب. وهذه الممارسات ليست حديثة العهد إنما متزامنة مع احتلال العراق في الفترة الواقعة بين فبراير ونوفمبر عام 2003. وهذه الممارسات مخالفة لاتفاقيات جنيف رقم 3 ورقم 4 وبالتالي تشكل انتهاكاً للقانون الدولي ألإنساني. وفي 4- 5- 2004 تُبين منظمة مراقبة حقوق الإنسان بأن مشكلة سجن أبو غريب ليست الحالة الوحيدة، حيث تقوم الولايات المتحدة الأمريكية بسجن المعتقلين في سجون خارج الحدود الإقليمية لبلدانهم، حيث يتعذر الاطلاع على شروط اعتقالهم." [58]

"منظمة الأمم المتحدة أصبحت أداة طيعة في يد الولايات المتحدة، لقد تغاضت عن الحرب التدميرية التي شنها الحلف الأطلسي بزعامة واشنطن على

[58] بحوث في القانون والسياسة، ص 61.

يوغسلافيا السابقة، وتتغاضى عن العدوان الذي شنته واشنطن على أفغانستان. وفي الستينات من القرن المنصرم ابتكرت الإدارة الأمريكية "هستيريا اختطاف الطائرات" فالولايات المتحدة كانت في هذه الفترة أول من مارس جريمة خطف الطائرات لتحقيق مآرب خاصة بعد إمعانها في اختطاف الطائرات الكوبية، وكان الساسة الأمريكيون يرحبون بالقراصنة الخاطفين ويستقبلونهم استقبال الأبطال الفاتحين ويغمرونهم بالهدايا والمكافآت، ويرفضون رغم المراجعات والوساطات إعادة الطائرات المخطوفة إلى أصحابها ويعملون إلى تدميرها أو بيعها بالمزاد العلني. ولكن عندما بدأت كوبا تقلد واشنطن في عملية احتجاز الطائرات - وكلها كانت لشركات أمريكية- والمساومة على إعادتها راحت الإدارة الأمريكية تهاجم عمليات الخطف التي يمارسها كوبيون، وتعتبرها سرطاناً يجب استئصاله وتحث الدول على عقد مؤتمرات وتوقيع اتفاقيات لقمع الاستيلاء غير المشروع على الطائرات. ولم تخجل أمريكا من تسليح جماعة "الكونترا" في نكارغوا واعتبار جرائمها أعمالاً أخلاقية. واشنطن لا تُقيم وزناً إلا للقانون الذي يُفصل على مقاسها ويخدم مصالحها، ففي العام 1980 أصدرت المحكمة حكماً لصالح الولايات المتحدة ضد الجمهورية الإسلامية الإيرانية في قضية الرهائن الأمريكيين فأثنت واشنطن على نزاهة محكمة العدل الدولية، ولكن عندما أصدرت المحكمة قراراً حول قضية رفعتها نكارغوا ضد واشنطن حول تدريب وتسليح عصابات الكونترا المناوئة للنظام القائم في نكراغوا رفضت واشنطن المثول أمام المحكمة. وبعد أن أصدرت المحكمة الحكم بأكثرية 13 صوتاً ضد 3 أصوات في غير صالح الولايات المتحدة، قام وزير خارجية أمريكا بمهاجمة المحكمة وأعلن رفض بلاده الاعتراف بصحة الحكم، وانضم مجلس الشيوخ الأمريكي إلى حملة الهجوم على المحكمة وأظهر

استخفافه بالأحكام الدولية، وقرر بعد صدور الحكم تخصيص مئة مليون دولار لدعم عصابات الكونترا من جديد." [59]

ولعل أهم ما يمكن أن يُقال عن عدم تطبيق العدالة: إذا كانت مهام محاكم الجزاء الدولية تتحدد بالنظر في جرائم الحرب وجرائم ضد الإنسانية فما هو سبب تغاضي المجتمع الدولي عن المصاعب والمذابح التي يتعرض لها الشعب الفلسطيني بعد احتلال أراضيه وإجباره على ترك قراه ومدنه بالقوة، لقد خسر الفلسطينيون كل شيء وبات معظمهم دون هوية. فهذا الاضطهاد الذي يتعرض له الشعب الفلسطيني هل يتلاقى مع مضمون القرارات الدولية، وخاصة المادة (147) من اتفاق جنيف الرابع وتنص هذه المادة على اعتبار التهجير أو نقل السكان بطرق غير شرعية جريمة حرب. وقد جاء في المادة السادسة والثلاثين من شرعة حقوق الإنسان ما يلي:"إن من يضطهد أمة واحدة يعلن نفسه عدواً لجميع الأمم..." وفي المادة السابعة والثلاثين: "إن الذين يحاربون شعباً من الشعوب لكي يوقفوا تقدم الحرية ويطمسوا حقوق الإنسان، يجب أن تلاحقهم جميع الشعوب لا كأعداء عاديين وإنما كمجرمين قتلة وكلصوص عصاة." [60]

ولهذا لا يتم تنفيذ العدالة، أو تعريف الإرهاب إلا بما يتناسب مع مقاس الدول ذات المصالح، فيتم محاسبة بعض الشعوب وترك الحرية للبعض الآخر.

"هناك دراسة أجريت في مطلع الستينات على عينة من 954 مراهقاً من مدن وقرى ومخيمات الضفة الغربية، أظهرت أن 59٪ منهم تعرض أحد أفراد أسرهم لإطلاق النار عليه، وأن 44٪ قد تعرضوا أنفسهم لإطلاق النار وإن 64٪ منهم تعرضوا للإهانات والتنكيل من قبل الجنود الإسرائيليين. وأشار

---

[59] مجلة فكر ص 38- 40.

[60] الإرهاب السياسي، ص 154.

بيكر 1991 إلى أن البيئة النفسية للضفة والقطاع لها خصائص تؤدي إلى إحداث ضغط نفسي في أوساط السكان وأطفالهم. وأشار تقرير اليونسف 1992 إلى التأثيرات الجسمية والنفسية الناتجة عن العنف الذي تعرض له الفلسطينيون خلال الانتفاضة الأولى، حيث قتل أكثر من ألف فلسطيني وجرح واعتقل الآلاف منهم." [61] ورغم كل هذه الوقائع ما زالت بعض ضمائر العالم لا تعترف بأن شعب فلسطين قد شُرد وظُلم. ففي وعد بلفور في 11-8- 1919 لم يتم التفاوض مع الشعب الفلسطيني، أو استشارتهم أو معرفة آرائهم، كان كل المطلوب هو تكريس سياسة الاحتلال، وما هذه المقاومة التي تُتهم اليوم بالإرهاب إلا انتفاضة بوجه الغطرسة والاستكبار.

هذه السياسة القائمة على مبدأ القوة المهيمنة ساهمت في حرمان المجتمع الدولي من تطبيق العدالة. والتاريخ أكبر شاهد على عمليات قصف وتصفيات جماعية قامت بها دول كبرى تحت شعار مكافحة الإرهاب. وهذه التصفيات والحروب هي إرهاب بحد ذاته. فالإرهاب واحد مهما اختلفت الجهات التي تنفذه.

---

[61] مجلة عالم الفكر المجلد 36 ص 278.

الفصل الرابع

استغلال الدين في قضايا العنف

يتم استغلال الدين في قضايا بعيدة كل البعد عن مضمون الدين، أو عن أي منطلق روحي. فالإيمان الحقيقي لا يدفع باتجاه الطمع والعدوان ولا باتجاه القتل والتنكيل والتعذيب. ولا يمكن لعاقل أن يصدق أن هذه الأشكال البشعة للعنف يقوم بها أفراد أسوياء عرفوا محبة اللّه. فهذا الحكم الذي يعتبر الآخر عدوا يجب القضاء عليه، يتناقض مع جوهر الأديان، ورسالاته التي تعني المحبة والتسامح وقبول الآخر وتفضيل الصالح العام على المصالح الفردية. ولو أراد اللّه أن يكون العالم من فكر واحد ولون واحد لفعل ذلك، وكل من يتنكر لوجود الآخر فهو يخالف إرادة اللّه.

هناك الكثير من الأسباب غير الدينية تؤثر على انتماءات الناس وأفعالهم، كالسياسة واللغة والثقافة. وفي البداية كانت الحروب تشن باسم الآلهة وما زال استغلال الدين يلهب العواطف ويؤجج حماس الناس أكثر من أي شيء آخر، لتصبح الحرب والثورة عند البعض من المسائل المستحبة، وهذا الحماس يتم تأجيجه لأغراض سياسية أكثر مما هي عقائدية أو قومية، ليصبح الصراع الطائفي انعكاساً لقضايا غير دينية، حيث يعمل بعض رجال الدين على التأثير في الناس بغية تحقيق أهدافهم السياسية. وبسبب جهل معظم الناس بالمعاني الدينية الصحيحة، ينِشأ التعصب وتنتشر الفوضى ويعم التقاتل بين المواطنين.

رينيه جيرار يقول:" **بقدر ما يحمينا الدين من العنف ينشد العنف حمايته في أحضان الدين.**"

"إن التفسير الديني بمرور الوقت، وتحيز المفسرين ومصالحهم وأهوائهم وانتماءاتهم الاجتماعية والسياسية، يؤدي إلى تراكم تفسيري يمثل حجاباً حاجزاً بين المؤمن وأصل إيمانه ومعتقداته ويصبح مثقلاً وأسيراً لمواريث من التفسيرات المختلفة. وهنا **ينطلق العنف من النص التفسيري للمقدس، أي من بنيات الأفكار الإنسانية** التي أُسقِطت على النص بهدف إسباغ المشروعية على اتجاهات ومتحيزات إنسانية وضعية لا قداسة لها." [62]

ومعظم الجماعات المهددة تتخذ من مشاعر التضامن الديني ملاذا يحميها، فتعمل على نشر سياسة تعبوية لتأمين مصالح أيديولوجية أو طائفية. وكلما ازداد التعصب أو التهور لدى الجماعات كلما ازدادت حدة الأعمال البربرية والمتهورة؛ فيتحول الصراع الاجتماعي إلى حالات عنف لا ينتهي.

"في تحليل صدر مؤخراً حول الطريقة التي انتهى بها النزاع المدني في ست حالات مختلفة- كولومبيا، زيمبابوي، اليونان، اليمن، السودان، ونيجيريا - يشير التحليل إلى أن الحالات التي ينطلق فيها النزاع من أسباب أثنية أو طائفية يكون فيها احتمال الوصول إلى حل سلمي عن طريق المفاوضات ضئيلاً جداً مقارنةً بالحالات التي ينشأ فيها النزاع من أسباب اقتصادية أو سياسية أو الاثنين معاً." [63]

الهوية الدينية يمكن أن تكون مصدراً للرحمة والوحدة، كما يمكن أن تكون مصدراً للعنف والترويع. ورغم أن الاختلافات بين الأديان ضئيلة، فالكراهية والتطرف تدفع بالبعض إلى القتل والتنكيل والهيمنة باسم الدين.

---

[62] عقل الأزمة، ص 141.

[63] لبنان في مدار العنف، ص 68.

الأحقاد الطائفية تنتشر بسرعة، وقد لا يوجد الحوار المناسب للتغلب على هذه الصراعات. ولكن سمة الاشتراك بالإنسانية تضعنا أمام أسئلة كثيرة: أليس كل الناس يتأثرون بالعنف؟ وهل هناك إنسان لا يشعر بالجوع أو البرد أو المرض؟. لا اختلاف بين البشر من الناحية البيولوجية، ولا حتى من الناحية النفسية، وإن اختلفت هويتهم الدينية، ولكن المحرضين على العنف هم من يضع الحواجز الوهمية بين الناس، ليحققوا ساديتهم و وحشيتهم، فقط هؤلاء القتلة لا يشبهون الناس، لأنهم فقدوا صوت الضمير. وكل من يريد أن يحرض على القتل سوف يخترع الحجج التي تعمل على إدخال الناس في أتون العنصرية؛ كما قال **عبد الرحمن الكواكبي** في طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد: " ما من مستبد سياسي إلا ويتخذ له صفة قدسية يشارك بها الله أو تعطيه مقاماً ذا علاقة بالله".

وقبل ظهور الإسلام، كان هناك اضطرابات سياسية في الإمبراطورية الرومانية، وحدثت ثورة ضد المسيحية، التي اعتبرها البعض دين افساد. كما شهد عصر النهضة صراعاً ما بين الكنيسة ورجال السياسة والأسباب لم تكن دينية بل سياسية، فالحروب الصليبية الأولى كانت بدوافع سياسية اشتعلت باسم الدين.

وفي العصور الوسطى، حاول الملوك ارتداء عباءة الدين أو الادعاء بأنهم يستمدون سلطانهم من الله تبريراً لسلطتهم المطلقة، وأضافوا على العقيدة الدينية آراء ليست منها. **لوك** كره كل أنواع الصراعات، وخاصةً الصراعات الطائفية، وهاجم الملوك الذين يستغلون الدين لتحقيق مآربهم.

القديس **أوغسطين** يقول إذا كانت مهمة الدولة هي تحقيق السعادة للمواطنين فلا بد من ارتباط الكنيسة مع الدولة وهذا الارتباط يؤدي إلى قيام السلام في الأرض.

الكواكبي كان يلاحظ كيف يحاول الحكام في الفترات الحرجة اللجوء إلى المظاهر الدينية لدعم سياستهم. فيقول الكواكبي: إن أبشع ما يكون هو استغلال الدين، ولكن هذا المنطق الهش سيتبدد أمام الحقيقة الموضوعية، التي تؤكد أن الأديان لا صلة لها بالعنف، فالأديان لا تقوم على العدائية والقتل إنما هي لإعلاء قيمة الفرد، وهذه الأوهام التي تم استحضارها وغرسها في عقول العامة لتقسيمهم إلى فئات وجماعات لن تستطيع أن تحقق أغراض هؤلاء المتاجرين بالدماء، فالناس أخوة في الخلق، ومن لا يتأثر بالقتل والظلم فهو ليس من بني البشر. وكل سلوك عدواني هو سمة من سمات الأفراد المرضى وضعاف النفوس، الذين يعانون من نقص وانعدام الضمير. ثم يضيف الكواكبي فيقول أن معظم رجال المسالمة واللاعنف هم من الرسل والحكماء ومقدمي الخدمات إلى الناس. ويعتبر الكواكبي من أعلام مدرسة الإصلاح الديني التوفيقي بين الإيمان والعقل وبين الإسلام والحضارة، ومن المناضلين الثائرين على الحكم العثماني.

"وهناك إرهابيون يمارسون نشاطاتهم الإرهابية تحت تأثير عقائد وأفكار مسمومة وفاسدة. وقد زينت لهم هذه العملية مشروعية القتل والفتك والتدمير وسفك الدماء. هؤلاء الذين يحرفون التعاليم الدينية لأغراض سياسية بعيدة عن الدين الإسلامي وتعاليمه السمحة. فالأمية الدينية من أخطر المشكلات التي تواجه الحياة الاجتماعية والدينية. ويكمن الخطر الأكبر في أن البسطاء يعتقدون أن كل ما يُنسب إلى الدين صحيح، هؤلاء البسطاء لا توجد لديهم ثقافة دينية عميقة، أو قدرة نقدية على التمييز بين روح الدين وما يُنسب إليه، ولذلك فإنهم يقعون بسهولة فريسة للبدع والخرافات، ويقومون تحت تأثير هذا الخدر الديني المشوه بتصرفات مشبوهة تتنافى مع روح الإسلام. وهنا يترتب على المعنيين وعلماء الدين ألا يسمحوا إلا للضالعين في العلم والفقهاء في

الشريعة أن يتحدثوا باسم الإسلام، لكي لا تُروج قيم ومفاهيم ورؤى ليست من الإسلام."[64]

دائماً هناك تباينات واسعة في سلوك الأفراد الذين ينتمون للديانة نفسها، ففي كل دين يوجد أفراد لديهم طابع عدواني، وأفراد مسالمون، وإذا كان هناك من يشجع على العنف غالباً ما يكون له خلفية لا تمت للدين بصلة، فالدين يعني التسامح والمحبة، واستغلال الدين لصالح بعض الجهات يخلق انشقاقات بين فئات اجتماعية كانت تعيش بسلام، وعلى سبيل المثال ما وصفه الفقيه الأندونيسي المسلم "سيافي أنور" بكثير من التحذير بقوله:" التشريع المتسلل إلى أندونيسيا ليس فقط تطور للممارسات الدينية، بل يختص أيضاً بانتشار نظرة اجتماعية وسياسية ميالة إلى القتال في بلد يتسم بالتسامح تقليدياً، وغني بتعدديته الثقافية."[65] "ويمكن لأي شخص أن يكون لديه إيمان ديني قوي سواء كان مسلماً، أو يدين بأي ديانة أخرى، ويكون في الوقت نفسه يتسم بسياسات تتسم بالتسامح. صلاح الدين الذي حارب ببسالة من أجل الإسلام في أثناء الحملات الصليبية في القرن الثاني عشر، خصص مكانة محترمة في بلاطه الملكي المصري من دون أن يكون هناك أي تناقض، لموسى بن ميمون، ذلك الفيلسوف اليهودي المتميز الذي هرب من الظلم وعدم التسامح في أوروبا. وفي الوقت نفسه كان الإمبراطور المغولي أكبر شاه (الذي ولد مسلماً ومات مسلماً) قد وضع مشروعاً في "أكرا" يضمن حقوق الأقليات. وكان من ضمن هذا المشروع، حرية العقيدة الدينية للجميع. والأمر الذي يستدعي الانتباه هنا هو أنه بينما كان أكبر شاه يواصل سياساته التحررية، دون أن يمنعه ذلك أن يكون مسلماً، فإن هذه السياسات التحررية لم تكن بأي حال مفروضة عليه.

---

[64] التربية إزاء تحديات التعصب والعنف، ص 146.

[65] الهوية والعنف، ص 80.

ولا بالطبع ممنوعة بسبب الإسلام. وثمة إمبراطور مغولي آخر "أورانجزيب" و يُعتبر آخر الأباطرة المغول حكم الهند لمدة 48 سنة، كان لديه القدرة على حرمان الأقليات من حقوقها، واضطهاد غير المسلمين، من دون أن يكون ذلك سبباً في حرمانه من أن يكون مسلماً، بالطريقة نفسها التي لم يتوقف بها "أكبر شاه" عن أن يكون مسلماً بسبب سياسته التعددية المتسامحة." [66]

وإذا كان الدين ضد كل أعمال العنف، ويعني التقشف والزهد، فهو ليس بحاجة لمن يدافع عنه، أو يقاتل باسمه.

الإسلام والعنف

عن **النبي** (ص) قال: " **أول ما يُقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء**".

ولم تعرف أي حضارة أكثر مما عرفته الحضارة الإسلامية من ثورة ضد الظلم والطغيان. والإسلام دين محبة وتسامح جمع كل القيم التي تناضل البشرية من أجلها.

والخير يتحقق بفضل محبة **الله** وقوته، فقوة **الله** هي الضمان للمؤمن لكي لا يكون من الظالمين، وهي التي تمنعه من أن يظلم **"(ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب إن القوة لله جميعاً)** . **(فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة، أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخرى وهم لا ينصرون).**

وكلماازداد شعور الإنسان بقوة الله، ازداد ثقةً واطمئناناً بالمصدر الكلي

---

[66] الهوية والعنف ص 31.

للقوة، فلا يخشى على قوته أن تضعف أو تتلاشى. ما دام المصدر باقياً بدون فناء..." [67]

" وما كان الإسلام ليشرع الحرب تحريضاً على جمع المال والثراء أو احتلال الأراضي والأمصار، ولكن الإسلام يشرعها في آخر مطاف بعد أن تنفذ الفعالية للكلمة الطيبة والأسلوب الحسن وبعد أن تذهب أسباب العقل والمنطق ... " [68] (**وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين**) (البقرة 190). (**لا إكراه في الدين**) (البقرة 2- 256). (**أدفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم**) (فصلت 41 – 35). هناك طرق كثيرة لتبادل وجهات النظر، وآخر الطرق هي الحرب والقتال. (**وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله أنه هو السميع العليم**) (الأنفال 61).

وفكرة الجهاد لم تكن بدافع القتل والتسلط ، بل كانت لرفع الظلم والطغيان. وما يؤخذ من الأحاديث الشريفة: "**النهي عن القتال ما وجدت الصلاة**". و"**من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر**" ولا يجوز قتل كل من يؤمن بوجود الله (**أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله.**)(غافر 40- 27). فالإنسان المؤمن هو واحد في كل الأديان (**هو الذي خلقكم من نفس واحدة**) و(**إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون.**).

في الإسلام لم يكن الدين سبب الفرقة بين الفرق الإسلامية، بل الخلاف كان على نَسب الحاكم، فالصراع أخذ الطابع الاجتماعي. والمسلمين آن ذاك أجمعوا على ضرورة وجود سلطة، لكنهم اختلفوا على مصدر السلطة،

---

[67] الإسلام ومنطق القوة، ص 33- 34.

[68] الإنسان في الإسلام ص 282.

فالحاكم على ما اختاروا يجب أن يكون من قريش، ولكن من أي فئة من قريش، فالخلاف إذاً كان حول أمور مادية دنيوية.

الإسلام يستمد قوته من **الله**، باعتبار الله هو مصدر القوة، القوة الباقية التي لا تضعف ولا تتلاشى، فالمؤمن لا يخاف من القوى الطاغية الغاشمة ما دام متمسكاً بالإيمان، لأن الله سيعطيه المعونة من أجل تغيير واقع الظلم، ولا يوجد أي مبرر للتقاعس والانهزام والاستسلام للظلم، فالدفاع عن النفس حق شرعي. وتحقيق العدالة واجب أيضاً فلا يجوز السكوت عن الظلم، ولا التسبب بالظلم . **(لئن بسطت إلي يدك لتقتلني فما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين. إني أريد تبوأ بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين . فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين.)** (المائدة 5- 27 – 31)

" وبذلك يخلق الإسلام في قلب المجتمع رقابة ذاتية، لا تخضع لتكليف رسمي، ولا لوظيفة تقليدية، بل تخضع للشعور الإيماني الواعي بالرسالة الإلهية التي تتحول في قلب الإنسان إلى قوة دافعة، وفي كيانه الجسدي إلى قوة رادعة، على أساس من الانسجام مع وعي المسؤولية وحيويتها في حياة الإنسان." [69]

المسيحية والعنف

"جميع المسيحيين يؤكدون أن ملكوت **الله** الذي دشنه **يسوع** هو حكم **الله** الذي يسود فيه السلام والعدل. وأن يسوع نفسه جسد تماماً في سلوكه الشخصي مُثُل الملكوت الذي نادى به وأن جماعة الملكوت ينبغي أن تجوع إلى البر وتتبع السلام وتصبر على الانتقام وتحب الأعداء، وبعبارة أخرى يجب أن

---

[69] الإسلام ومنطق القوة، ص 57.

يكون الصليب سمتها المميزة، وأنه عند اكتمال الملكوت سوف: (**يطبعون سيوفهم سككاً ورماحهم مناجل**) لأنه (**لا ترفع أمةٌ على أمة سيفاً ولا يتعلمون الحرب فيما بعد**) (إش 2: 4) [70]

يذكر سفر الأمثال الأعمال التي يبغضها اللّه: (عيون متعالية، لسانٌ كاذبٌ، أيدٍ سافكةٌ دماً بريئاً، قلب ينشىء أفكاراً رديئةً، أرجلٌ سريعة الجريان إلى السوء، شاهد زورٍ يفوه بالأكاذيب، وزارع خصوماتٍ بين أخوة) (أمثال:6-19/17) وهذه الأعمال يعاقب عليها الرب (ويرد عليهم إثمهم وبشرهم يفنيهم، يفنيهم الرب إلهنا) (مزامير- 23/94) والقاتل لا يستطيع الهروب من فعلته حتى لو لم يحاسبه أحد (الرجل المثقل بدم نفسٍ يهرب إلى الجب. لا يمسكهُ أحدٌ) (أمثال- 17/28)

"كل مسيحي مدعو ليكون صانع سلام. فالتطويبات ليست مجموعة من ثمانية خيارات، بحيث يختار بعضهم أن يكونوا ودعاء، ويختار البعض أن يكونوا رحماء، ويختار آخرون أن يكونوا صانعي سلام، فهي تشكل مجتمعة وصفاً لأعضاء ملكوته. صحيح أننا لن ننجح في توطيد يوتوبيا على الأرض، وصحيح أن ملكوت المسيح الذي هو ملكوت البر والسلام لن يصبح عالمياً في نطاق التاريخ، ولن تُطبع السيوف سككاً والرماح مناجل حتى يأتي المسيح. ولكن هذه الحقيقة لا تعطي مسوغاً محتملاً للإكثار من المعامل التي تصنع السيوف والرماح. فهل تمنعنا نبوءة المسيح عن الجوع من السعي إلى توزيع للغذاء أكثر إنصافاً؟ وكذلك لن تمنعنا نبوءته عن الحروب من السعي وراء السلام، إن اللّه صانع سلام. ويسوع المسيح صانع سلام. فإذا أردنا أن نكون أولاد اللّه وجب أن نكون صانعي سلام." [71]

---

[70] المسيحية والقضايا المعاصرة ص 91.

[71] المسيحية والقضايا المعاصرة، ص 112.

مبدأ الخلاص في العقيدة المسيحية ليس إلا تأكيداً على محبة اللّه لكل البشر، فالأب السماوي لا يفرق بين مخلوقاته، ويمنح الفرصة لكل الناس للتوبة والرجوع عن الخطيئة. "أضف إلى ذلك إن بر اللّه تعبير جوهري عن محبته. فهو يحب العدل ويكره الجور. إنه يناصر قضية الفقير والغريب والأرملة واليتيم. ويطعم الجائع ويكسو العريان ويشفي المريض ويجد الضال. ويريد أن يخلص جميع الناس وأن يقبلوا إلى معرفة الحق في ابنه يسوع المسيح." [72]

الأمان يتحقق حين نفهم الآخر.

إذا كانت الديانة المسيحية بنيت على المسالمة والابتعاد عن المنازعات الشخصية، ونبذ كل ما هو مادي، والانسلاخ عن الدنيا والزهد فيها. والإسلام دين وشرع وصون للجماعة، وليس دين حرب وإبادة؛ فلماذا وصل بعض الناس إلى هذا الحد من الشر، وسؤ الظن بالآخر. وما هذا الاقتتال الأرعن باسم الدين!

الإنسان العاقل يعلم أنه مهما بلغ من المعرفة ومن القوة بأن هناك إرادة أعلى من إرادته، ويعلم بأن قدرات اللّه خارقة وكاملة، ولا يمكن لأحد أن يتحكم بمصير الخَلق، ويفرض على العالم آرائه الخاصة. ولو كان اللّه يريد للعالم أن يكون من لون واحد وفكر واحد لفعل ذلك، فالحجج والبراهين التي نستمدها من عَظمة خَلق اللّه واكتمال صنعه هي من أقوى الحجج لقبول التنوع وفهم الآخر سواء تم عرضها بصيغة القرآن أو بصورة الإنجيل.

---

[72] المصدر نفسه ص 60.

ولو كان اللّه لا يريد الحوار والعقل لما خلق اللّه الضمير والعقل، وضمير العاقل لـن يتركـه بسـلام إذا خـالف وصـايا اللّه، أو إذا سـكت عـن قـول الحـق، فالساكت عن الحق شيطان. ولهذا كان الجدال وكان الإقناع.

"إذن يؤدي الإيمان إلى توليد منهج عمل يدفع الإنسان باستمرار نحو توحيدية حضارية متماهية مع توحيدية الدين" [73] "ولا تعني العودة إلى هذه الأصول، المقدسة أو الكلاسيكية، سوى أنها عودة إلى الروحانية التي يتمكن من خلالها العائدون من إيجاد صيغة توافق توحد بين تطورات العصر وحاجات الناس من جهة، وبين المنهج الذي يشدهم عبر الإيمان إلى الوحي. ذلك أن الوحي بعد أن تحول إلى دعوة وشرع وثقافة ومعرفة، وجسدته الجماعة في تجربة تاريخية، قد أصبح حاضراً ومستقبلاً، أي أصلاً ومقياساً وليس مجرد بداية في الماضي كأي أصل زمني آخر." [74]

ومن الكفر القول أن الأديان هي سبب النزاعات والحروب، إنما الحقيقة هي أن الجهل بمضمون الأديان والبعد عنها هو سبب الحروب؛ فإذا كان المتشددين في الدين المسيحي، والمتشددين في الدين الإسلامي قد أكدوا على أن اللّه وحده مصدر السلطة، فأين التناقض في ذلك؟. وبات من الواضح اليوم بأن البعد عن الفهم الحقيقي للدين هو من أول مسببات العنف، فالبعد عن الفهم لا يولد إلا التعصب الأعمى، وهذا العمى الذي يصيب البصيرة يشل التفكير، ومنه تنطلق حملات التكفير والقتل على الهوية، فإذا لم تكن المذاهب لتتباعد فلماذا يكفر بعضها بعضا؟. وإذا كانت الإنسانية تتساوى في الوجود فلماذا التعصب والتحجر، والحوار مع المتعصب لا يأتي غير بالشحن والعبث، ولا يمكن الوصول إلى اتفاق معه. ولكن بالحكمة والتروي وعدم مواجهة هذا

---

[73] الحضارة والدين، ص 184.

[74] المصدر نفسه، ص 188.

الكره المدمر بالكره ربما ستكون الأحوال أفضل بكثير. والحل الوحيد هو المعرفة، وإعمال الفكر للوصول إلى الموضوعية والفضيلة العلمية والخُلقية، ونشر ثقافة المحبة التي كانت جوهر الرسالات السماوية، فالله محبة وصفح وسلام، وليس طمع وحقد وكراهية.

محمد عبده وجد أن هناك جماعات منذ العصر العباسي كانت تقاتل باسم الإسلام ولكنها لا تعرف الإسلام، كانت تتظاهر بمظهر الدين لخدمة السياسة: "فلم تكن إلا عشية وضحاها حتى تغلب رؤساء الجند على الخلفاء، واستبدوا بالسلطان دونهم، وصارت الدولة في قبضتهم ولم يكن لهم ذلك العقل الذي راضه الإسلام، والقلب الذي هذبه الدين. بل جاؤوا إلى الإسلام بخشونة الجهل، يحملون ألوية الظلم، لبسوا الإسلام على أبدانهم، ولم ينفذ منه شيء إلى وجدانهم، وكثيراً منهم كان يحمل إلهه معه يعبده في خلوته ويصلي مع الجماعات لتمكين سلطته." [75]

" إن سبب تراجع فعالية الرقابة الأخلاقية لبعض الزعماء الدينيين على الحكومات والمجتمع بشكل عام، هو انحلالهم الروحي والأخلاقي، عندما تركزت السلطتان الروحية والمادية في أيديهم ضمن نطاق الثقافة المثالية، أخذ هؤلاء التيوقراطيون يذعنون للتأثير الهدام للسلطة، وبدؤوا يخرقون أكثر فأكثر المبادئ الأخلاقية الأساسية، التي كانوا يعظون الناس بها. ولعل المسؤول الرئيس عن انحلال القيم الروحية والأخلاقية للزعماء الدينيين في الثقافة الحسية هو قيمهم المادية والداعية إلى الملذات الجسدية والمتع الحسية، فبدل أن يناضلوا كما ينبغي مسترشدين بقيم ملكوت الرب، أخذوا يناضلون بنشاط لأجل القيم المادية الصرفة لهذا العالم: السلطة والثروة، والراحة المادية، والاستمتاع والملذات والمجد، ألخ. وأخذوا يسترشدون بقيم ويتبعون وصايا

---

[75] الفكر العربي وصراع الأضداد، ص 372.

مختلفـة تمامـا (بـل ومتناقضـة أحيانـاً) مـع مـا تـدعو إليـه القـيم الأخلاقيـة الخالدة." [76]

" ونتيجة لذلك قد ينتهي الأمر بمقاومة العنف المبني على الدين ليس من خلال تقوية المجتمع المدني، ولكن من خلال نشر قادة دينيين مختلفين ذوي اتجاهات أكثر اعتدالاً ظاهرياً، والذين يشحنون للتغلب على المتطرفين في معركة داخل الدين نفسه، ومن الممكن أن يحاولوا ذلك من خلال إعادة تعريف مناسبة لمتطلبات الديانة المعنية. إن مشهد السلام في العالم المعاصر قد يكمن في الاعتراف بتعددية انتماءاتنا، وفي استخدام التفكير والمنطق باعتبارهما موجودات مشتركة في عالم متسع. والتحريض على العنف يحدث بفرض هويات انعزالية وعدوانية يناصرها ويؤيدها محترفون بارعون للإرهاب على أناس بسطاء وساذجين." [77] "

والتكفير لا يرضي **الله** وذلك صريح في القرآن الكريم **"(أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن. إن ربك هو أعلم بمن ضل سبيله وهو أعلم بالمهتدين)**"(النحل 125) ولو أراد الله تعالى أن نقاتل من يخالفنا الاعتقاد لقال **قاتلهم** بدل **جادلهم**،فالعدالة الإلهية لا تحتاج لمدافعين عنها، ولسنا نحن من يحكم على من اهتدى أو من كفر فالحكم هو لله وحده.

الأصولية

الأصولية مصطلح يعني التمسك بالنص الديني في الحكم على الأمور وإصدار التشريعات. فالأصولية لا يعنيها أي جديد، وهي تواجه كل الأفكار الوافدة

---

[76] الفكر السياسي، العدد 45 ص 180.

[77] الهوية والعنف، ص، 12.

الجديدة على الدين بالرفض والتكفير، ولا تعترف بالمبدأ التوفيقي بين العقل والنقل، فهي تعتبر أن العقل مرتبط بالطبيعة البشرية، بينما النقل يرتبط بالمشيئة الإلهية، ولا يمكن بنظرها الجمع بين طبيعة البشر الفانية، وبين المشيئة الإلهية الأبدية. وأصول الدين بالنسبة لها نظام حياة شامل ومعرفة كاملة لا تحتاج لمعرفة البشر لتعديلها أو تأويلها، وأي تأويل أو تعديل على جوهر العقيدة هو كفر بالله تعالى. هذه الأفكار هي لب الصراع بين الأصولية وبين المذاهب الأخرى. الأصولية ترفض أي شكل من أشكال عقلنة الإيمان.

والأصولية لا تتواجد في دين واحد بل هي موجودة في كل الأديان.

" وقد تنوعت الممارسات الدينية تنوعاً هائلاً عبر التاريخ، لكن ظل الإيمان الأصولي الصارم دائماً أسهل من أي شيء آخر لفرض النظام وتأكيده، ونحن نرى كيف كانت قوة الأصولية الدينية واضحة عبر التاريخ، وهي بالتأكيد واضحة للعيان في الحياة المعاصرة، وعلى الرغم من أن تفاصيل الممارسة تتنوع في الديانات المختلفة، فإن المبدأ العام من انخراط الدين في كل نواحي الحياة هو سمة للتمسك بأصول الدين في جميع الديانات. ومن السهل تجنيد الشباب للقتال عندما يبدوا لهم أن هناك معارضة ساحقة لهذه العقيدة أو تلك."[78]

مثلاً: " كانت المؤسسة الرسمية في روما تنظر إلى المسيحيين الأوائل بوصفهم مصدر إثارة وإزعاج، وظلت هذه النظرة إلى المسيحيين قائمة إلى أن اعتنق الإمبراطور الروماني "قسطنطين" المسيحية فانقلب الأمر إلى العكس تماماً، فبعد أن أصبحت السلطة الرومانية تعتنق المسيحية أصبحت هي نفسها غير متسامحة، كما كان قدامى القضاة يفعلون مع المسيحيين من قبل. وفي

[78] عالم يفيض بسكانه، ص 111.

الفيليبين عند تحويلها إلى المسيحية، أتمت إسبانيا ذلك التحول بوحشية فقتلت كل من كان يقاوم تعميده." [79]

وغالباً ما يتم استغلال بعض التيارات المتطرفة من قبل بعض القوى لبث التفرقة بين أبناء المجتمع الواحد.

جون كالفن يرى أن الطبيعة البشرية فاسدة وما يرتكبه المرء من شرور إنما يعود في أساسه إلى هذه الطبيعة، أما ما يأتيه من أعمال صالحة فهو يرتد في النهاية إلى الله، فجميع أفعالنا تتسم بوصمة الطبيعة الشريرة الفاسدة وكل ما فيها من صلاح فنرده إلى الله، لا إلى أنفسنا، ويتساوى البشر جميعاً في ذلك، ولن يشفع لنا أمام الله سوى شيء واحد هو الإيمان فحسب، والإيمان هو من الله وليس شيئاً يصنعه الإنسان لنفسه. والحكومة المدنية بالنسبة له هي ترتيب من الله لرخاء الناس في عالم ساقط، ولا ينبغي تحت أي ظرف أن يظن أنها وسيلة من وسائل البشر للحكم على أساس الرضا والاتفاق ، إذ ينبغي رد استخدام السلطة فيها باستمرار إلى الله لا إلى البشر." [80] لا يوجد في فكر مارتن لوثر و جون كالفن أي مجال لحكم الشعب أو العقد الاجتماعي فالله هو مصدر السلطة. كالفن لم يهتم بالديمقراطية أو بفكرة الانتخابات ما دامت مملكة الله لا توجد على الأرض، والحاكم السيء – كما يقول - ليس سوى عقاب للناس على خطاياهم.

القديس **بولس** يعتبر أن الحكمة هي الدين وحده. والسلطان هو خادم الله. وهو ترتيب من الله ومن يقاوم السلطان كأنه يقاوم إرادة الله: (لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة. لأنه ليس سلطان إلا من الله والسلاطين الكائنة هي

---

[79] نفس المرجع، ص، 110.

[80] الطاغية ص 205.

مرتبة من الله. حتى إن من يقاوم السلطان يقاوم ترتيب الله) (رومية: 13 – 1- 2).

كذلك القديس **توما الأكويني** يعتبر أن الله هو مصدر السلطة، ويعتبر المجتمعات السياسية هي حصيلة لسقوط الإنسان.

هذه بعض النماذج للفكر الأصولي المسيحي التي قد تتوافق إلى حد ما مع الأصولية في الإسلام من حيث أن الله هو مصدر السلطة، والحكمة هي الدين وحده.

وكنموذج لبعض الأصوليين في الإسلام: ً **سيد قطب** يعتبر أن الله هو مصدر السلطة، فالسلطة يتم تحديدها من الله. فسيد قطب له موقف متشدد وساخط على الأنظمة الحديثة التي لا تملك شيئاً من القيم، وحدها العقيدة الإسلامية مؤهلة لتحقيق ما أراده الله، والقرآن هو منهاج حياة نزل وفقاً للحاجات المتجددة، وفي القرآن الألوهية تنفي الحاكمية الأولى ولا يجب أن تكون هذه الحاكمية لغير الله، الحاكمية يجب نزعها من كل المشايخ والكهان والأفراد، والله وحده هو السلطان على الأرواح وعلى الضمائر والمال. والدين عند سيد قطب ليس نظرية تتعامل مع الفروض بل منهاج يتعامل مع الواقع. وقوانين الله لا تتغير ولا يجوز الأخذ بقوانين المجتمع الجاهلي والقيادة الجاهلية والتقاليد الجاهلية ولا حتى العمل على الالتقاء معه. قطب هو ضد أي توفيقية. فالديمقراطية مثلاً تناقض الإسلام المتشدد في المساواة بين الإيمان والإلحاد، كما أن الديمقراطية تجعل الشعب مصدر السلطة، بينما مصدر السلطة في الإسلام هو الله وحده.

ففي الدين المسيحي وفي الدين الإسلامي حقيقة لا جدال فيها باعتبار الله هو السلطة الوحيدة والمصدر الوحيد للتشريع وقوة الله فوق كافة القوى ولا يمكن لعدالة الإنسان أن تتجاوز العدالة الإلهية. وهذه الحقيقة يجب أن توحد

بين الجماعات والأفراد، لا أن تفرقهم ليشعر كل إنسان بأنه محصن ضد أي ظلم يمكن أن يتعرض له لأن الله سيخلصه. فالإعدام والتكفير والقتل مسائل لم تساهم في حل أي إشكال ولا في وأد أي فتنة، ولم تسبب للأصولية المغلقة غير المزيد من الانغلاق والرفض.

وكما تصر الأصولية على إيمانها، وتعتبر هذا الإيمان وحدة متكاملة لا تتجزأ، تصر العلمانية المتشددة – وهي في بعض النواحي أكثر تصلباً من الأصولية - على أن الحداثة القائمة على مبادئ مثل الديمقراطية والحرية هي المصدر الحقيقي للتقدم والنهضة والقيم، وهي بدورها – أي العلمانية - قد تناست الديمقراطية حين سعت إلى فرض أفكار الحداثة بالقوة.

وهل بإعدام سيد قطب في آب 1966 انتهى الصراع بين السلفية وبين الفكر التقدمي؟. وهل انتهت المواجهة بين التيار "الأصولي" والتيار "التحديثي" بقتل بعض أعلام الحركة التوفيقية التي كانت تحاول التقريب ما بين الدين والعلم والمذاهب؟. **جمال الدين الأفغاني** مثلاً كان يقول : أن الكفر هو سبب الانحطاط وفساد الحياة. والدين هو أساس المدنية الصحيحة والتقدم الحقيقي والأساس للمدنية والسعادة الإنسانية. فالدين يدفع إلى الاتحاد والتعاون، والتمسك بالفضائل التي هي أقصى حالات المدنية والتحضر، فضلاً عن أنه يؤمن سعادة الإنسان، وربط الأفغاني ما بين العلم والإيمان، وجعل العلم سبيلاً لمعرفة **الله**، فهو لا يتنكر لدور العلم. وينفي الأفغاني بأن العقيدة الإسلامية تشجع على القوة، وإذا شهد تاريخ الإسلام بعض حالات العنف أو التنكيل، فذلك عائد إلى مواقف سياسية من قبل بعض الحكام المسلمين الجاهلين، وليس بسبب العقيدة الدينية. وهذا الربط بين العلم والإيمان وجعل العلم سبيلاً لمعرفة الإيمان وضعه في موضع شك أمام بعض المتشددين، وتخوفاً من آراءه الإصلاحية قُتل الأفغاني في الآستانة.

"ومن اللافت لنظر الدارس أن الفكر العربي الحديث لم ينشغل بقضية مثلما انشغل بالتوفيق بين ثنائيات العقل والإيمان، والعلم والدين، التراث والمعاصرة، الدين والقومية، القومية والقطرية، العدل والحرية، الرأسمالية والاشتراكية، الشرق والغرب... الخ. ولم تأت هذه النزعة التوفيقية من فراغ (وإن اختلفت المبررات الداعية للتوفيق بين القديم والحديث) فقد كانت الفلسفة التوفيقية حجر الأساس فيما شهدته الحضارة العربية الإسلامية من فكر "كلامي" وفلسفي لدى المعتزلة ومدرسة الفلاسفة من الكندي إلى الفارابي إلى أبن سينا وأبن طفيل وأبن رشد. ولو أسقطنا هذه الجهود التوفيقية من التراث الفكري للعرب والمسلمين لفقد هذا التراث أهم ركائزه وأخصب عطاءاته." [81]

" لقد أوضح الإمبراطور الهندي " جلال الدين أكبر" القضية الأساسية منذ زمن طويل في ملاحظاته عن العقل والدين، في حوالي عام 1590، أصر على أن الدين لا يمكن أن تكون له الأولوية على العقل، حيث أن الإنسان لا بد أن يقبل أو يرفض عند الضرورة دينه الموروث عن طريق العقل. التزم "أكبر" بما أسماه "سبيل العقل" وأصر على الحاجة إلى الحوار المفتوح والاختيار الحر، وأكد "أكبر" أيضاً أن معتقدات ديانته الإسلامية تعتمد على العقل والاختيار الحر، وليس على "الإيمان الأعمى" ولا على ما أسماه "مستنقع التقاليد". وعندما هوجم من قبل التقليديين الذين احتجوا لمصلحة الدين الغريزي، أخبر أكبر صديقه وقائده العسكري الذي كان موضع ثقته "أبا الفضل" (الذي كان دارساً هائلاً في السنسكريتية وكذلك العربية والفارسية، وله الكثير من الخبرة بالديانات المختلفة ومن ضمنها الهندوسية والإسلام): قال له: (إن سعي العقل ورفض التقليدية واضح وضوحاً يجعله فوق الحاجة إلى الجدل. فإذا

---

[81] الفكر العربي وصراع الأضداد، ص 17.

كانت التقليدية ملائمة لما كان أمام الأنبياء إلا إتباع السابقين، ولما أتوا برسالات جديدة." [82]

التعصب

التعصب مفهوم من القرن الثامن عشر، جرى وصفه للتنديد بتزمت ديني (زيلوتية zelotisme) نسبة إلى زيلوت اليهودي المتعصب. فالمتعصبون يفترضون بأنهم دائماً على صواب، وعندما نتحاور مع هؤلاء الأشخاص، بالطبع سيخذلوننا ولا يمكن للنقاش معهم أن يمر بهدوء، ولا مجال معهم لكشف المغالطات، وهذا الانغلاق يتحول إلى نوع من الغطرسة؛ التي تتحول إلى عدوانية. **فرويد** حدد عقلية التعصب بثلاث مزايا: النرجسية ، والقدرة الكلية، والإسقاط أو الإطفاء. " وهنا تكمن إحدى الصعوبات التي نصادفها حين نفحص التعصب: فتطلعاته غالباً ما تكون تطلعات بشرية، مشتركة، محترمة ومقبولة؛ لكن ما يميزها هو جانبها المرتبط "بجنون العظمة"، والرغبة في تحقيقها خارج الوقائع، والرغبة في نفي كل الحدود، وعدم قبول أي كابح. ويكون غياب التسامح كلياً" [83] ومع وجود التعصب تتفاقم المشاكل وتزداد النزعة إلى العنف، الذي يفجر النزعة العدوانية، فالتعصب الاجتماعي من أخطر العوامل، وهو يولد مشاعر الاغتراب والإحباط.

ولا يأخذ التعصب شكلاً واحداً؛ فقد يكون دينياً أو عرقياً أو سياسياً، أو غير ذلك. ولا ينشأ التعصب إلا من الجهل، فالإنسان الذي يقتصر في دراسته

---

[82] الهوية والعنف، ص، 163.

[83] سيكولوجية التعصب ص 54.

علـى مـذهب معـين أو فكـر معـين، دون أي معرفـة بالمـذاهب ألأخـرى، أو الثقافات الأخرى، فإن رؤيته ستظل محدودة؛ ولا يمكـن تبادل وجهات النظر مع أصحاب الآراء المتصلبة. فمن الصعب أن يبقى الحوار والنقاش معهم ضمن الأطر الحضارية، وفي السياسة قد يتحول التصلب إلى بداية حروب لا تُعرف نتائجها.

والعاقل المتنور لا ينغلق تفكيره، ولا ينقاد بسهولة، ولكن الخوف من الجهل، فالمستعمر يستغل الجهلاء لتكريس نفوذه، وكلما انتشر الجهل تتحقق غايات المستعمرين. "فالمتعصب لا يبحث عن الإخلاص لذاته وعن تطوير قدراته الذاتية؛ إنه يتخلى عن "المصداقية" و "الأصالة" ويترك البحث عن حقيقة ذاته ولأجل ذاته، ليكرس نفسه لمثال مفروض من الخارج، مقبول ككل، ولا يجوز إعادة النظر في أمره. لأن تاريخه ومثله الشخصية يربطانه بالمثال بألف خيط، حتى أنه يشعر بأنه مقدر له أن يكرس حياته لأجله. زد على ذلك أن هذه الروابط هي في أعماقه عاطفية، رمزية، بدائية، أكثر مما هي معرفية، فكرية، أو فكروية. على الرغم من كونها باطلة ووهمية، يتقبلها كل فرد كأنها شيء مقدس ومحرم، لا يتجاسر أي شخص على تمحيصه ولا على تحديه." [84]

"يكون التعصب قريباً من الهذيان؛ ويمكن أن نسميه "ذهاناً اجتماعياً" وفوق ذلك يحتوي على عنصر عنف وغضب، فهو لا يقبل النقاش ويريد أن يفرض اعتقاده على الآخرين، ويكون غياب التسامح كلياً. باسكال في كتاب الأفكار يربط بين الجرح النرجسي والتعصب". [85]

[84] المصدر نفسه، ص، 47 – 48.

[85] سيكولوجية التعصب، ص 75.

" وللمتعصب فكرة أنوية نرجسية ، فهو الوحيد الذي يكون دائماً على حق؛ والإيمان بالقدرة الكلية لفكرته: فبفضلها سيتوصل إلى تغيير العالم سحرياً ، وإلى اجتلاب الفردوس؛ أخيراً نجد لديه فكرة إسقاطية تريحه من كل شبهات العنف والقصور البشري؛ إذ إن مع المكر موجودان في الآخر... إن المتعصب لا يتحمل الفكرة العلمية ، فهو بكلام آخر لا يقبل أن يرى دوره الحقيقي في جماعة بشرية وفي العالم." [86]

هل الدين يحد من العنف؟

دوركهايم يؤكد أن المجتمع واحد و وحدته دينية بالدرجة الأولى، وأن البشر مدينون في ما هم عليه على صعيد الحضارة إلى مبدأ مؤدب قائم في الدين.
وأهم علماء الإسلام **ابن خلدون** يرى أن الصبغة الدينية تُبعد الناس عن التخاصم والتحاسد وتوحد القلوب.
"ويميل أنصار السلام إلى الابتداء بالعظة على الجبل. فمن هذه النقطة من تعاليم **يسوع المسيح** يطور كثيرون التزامهم باللاعنف. فينبغي علينا ألا نقاوم شخصاً شريراً كما قال يسوع وينبغي علينا أن نحب أعداءنا ونحسن إلى مبغضينا ونصلي لأجل مضطهدينا. وهكذا فقط نستطيع أن نعلن أهليتنا كأولاد للأب السماوي، لأن محبته بلا تمييز، وهو يمنح بركات المطر والشمس للأشرار والأخيار على السواء. فإذا أبغضنا الذين يحبوننا فهذه طريقة الشرير. وإذا أحببنا الذين يحبوننا وأبغضنا الذين يبغضوننا فهذه طريقة العالم. أما إذا أردنا أن نتبع يسوع ونقبل معايير ملكوته، فينبغي أن نحب أولئك الذين

---

[86] سيكولوجية التعصب، ص 18.

يبغضوننا. أنظر(متى 5 : 38 ولوقا 6: 27 – 36)".[87] **(طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض، طوبى للجياع والعطاش إلى البر لأنهم يُشبعون. طوبى للرحماء لأنهم يُرحمون. طوبى للأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله. طوبى لصانعي السلام، لأنهم أبناء الله يُدعَون.)**(متى 5: 5 ،9).

ولكن الغضب حقيقة لا يمكن تجاهلها، والغضب أعمى لا يميز بين موقف وآخر، وبما أن البشر لا يمكنهم احتمال العيش في خضم العنف، فهم يحاولون بذل كل الطاقات للخلاص منه، لهذا كان الحل الديني، وهو بإسقاط الغضب نحو شيء آخر، كتقديم القرابين، أو الذبيحة، أو الدعاء بقصد كسب تأييد الآلهة التي ستنتقم من المجرم أو الظالم. والصبر حتى تتحقق العدالة، وعندما تتحقق العدالة الإلهية يستريح المظلوم وتهمد ثورة غضبه، فعدالة الآلهة تصبح أقوى من أي ظلم وأي قوة. (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) (الزمر 10). **الفارابي** يعتبر السعادة الحقيقية موجودة في العالم الإلهي، ولهذا لا يوجد مدينة شريرة بطبعها، بل بإرادة أهلها؛ فإذا اجتمعوا على الشر تكون شريرة - والشر هو البعد عن الله. وإذا اجتمعوا على الخير تكون خيرة – والخير هو القرب من الله.

" إن الديني في أكثر أشكاله يمسك بحقيقة تخفى على تيارات الفكر اللا ديني كلها، حتى أكثرها تشاؤماً، فهو يعرف أن ركيزة المجتمعات الإنسانية ليست شيئاً مسلماً به يستطيع البشر الادعاء بأنهم أصحاب الفضل فيه، لذا كانت علاقة الفكر الحديث بالديني البدائي جد مختلفة عما نتصور، ثمة إغفال أساسي لحقيقة العنف ونحن نشارك الفكر الديني فيه، على أن في الديني بالمقابل عناصر معرفية جد واقعية بشأن العنف تُخفى علينا كلياً، إن الديني يرشد الناس إلى ما يتعين عليهم فعله تجنباً لعودة العنف المدمر، فعندما

[87] المسيحية والقضايا المعاصرة، ص 92.

يُهمل البشر الطقوس وينتهكون المحرمات يحرضون العنف المتعالي بكل معنى الكلمة على النزول بينهم مجدداً والتحول إلى مخرب شيطاني، أي إلى رهان عظيم وعقيم في آن، يتقاتلون حوله ويفني بعضهم بعضاً جسدياً وروحياً، حتى الإبادة الكلية، إلا إذا جاءت آلية الضحية الفدائية لإنقاذهم مرة أخرى، أو بتعبير آخر، إذا اعتبر العنف المطلق أن المذنبين لاقوا الجزاء المستحق، وارتضى أن يعود إلى عليائه متنائياً عن البشر بما يكفي لمراقبتهم والإيحاء إليهم بذلك الإجلال الذي يجلب لهم الخلاص." [88] وهذا الثأر الإلهي يصوره **أنكسيمندرس** من خلال نص: " من هناك، من حيث تولد الأشياء، وإلى هناك حيث يُفترض أن تزول، بحكم الضراوة، بعد أن تتبادل العقاب والتكفير عن إثمها وفق المدة الزمنية المقررة لها." [89]

في الحروب الدينية الأبرياء يدفعون الثمن

يروي "أمرتيا صن" - فيلسوف واقتصادي هندي- في كتابه "الهوية والعنف" مشهد قتل "قادر ميا" الذي كان مسلماً وعاملاً باليومية، طُعن بينما كان في طريقه للعمل، على يد بعض الناس الذين لم يكونوا حتى يعرفونه، ولم يكن قد سبب أي إيذاء للقتلة، قُتل فقط لأنه كان مسلماً، لقد كان مضطراً للخروج في أيام الشغب بحثاً عن عمل من أجل بعض النقود لأن عائلته لم يكن لديها طعام، هذا المشهد صعق أمرتيا وهو لا يزال في الحادية عشرة من عمره، فاستمرت هذه الذكريات تلاحقه في حياته، وكان من الصعب على طفل مذهول لا يعرف شيئاً عن عنف الهوية، أن ينسى تلك الأشياء المرعبة

[88] العنف والمقدس ص 436.

[89] المصدر نفسه، ص 517.

التي حدثت، وهذه المجزرة التي تركت في عقبها آلافاً مؤلفة من من القتلى الهندوس والمسلمين. يقول أمارتيا: " لقد استطاع المحرضون السياسيون الذين شجعوا القتل، استطاعوا إقناع الكثيرين من الناس المسالمين من كلتا الجماعتين بالانقلاب إلى سفاحين مكرسين للقتل، لقد اقتيدوا إلى أن يفكروا بأنفسهم كهندوس فقط أو مسلمين فقط، (والذين ينبغي أن يطلقوا العنان للانتقام من "الجماعة الأخرى") وليس كأي شيء آخر على الإطلاق: ليسوا هنودا ليسوا من أبناء شبه القارة، ليسوا آسيويين، ليسوا شركاء في الإنسانية..." [90] هكذا وصف أمرتيا هؤلاء المحرضين على القتل. " إن المجزرة المفاجئة قد جاءت من لا مكان، لكنها بالطبع كانت مدبرة بإحكام على يد التحريض الطائفي، المتصل من شتى الوجوه، بالمطالب السياسية الملتهبة لتقسيم البلاد، ولم يكن الشغب الإجرامي القاتل ليستمر طويلاً، فلسوف يتبخر سريعاً من كل من جانبي البنغال بعد التقسيم... الضراوة المذهلة للعنف بين الهندوس والمسلمين كانت لها روابط سياسية قوية... وإن الأعضاء الأكثر فقراً في أي مجتمع هم الأسهل قتلاً في المشاغبات، حيث أنهم مضطرون إلى الخروج بلا حماية على الإطلاق بحثاً عن قوت يومي، وملاجئهم الواهنة من السهل اقتحامها وتخريبها. وفي الشغب بين الهندوس والمسلمين قتل السفاحون الهندوس المسلمين الفقراء المستضعفين بسهولة، بينما ذبح السفاحون المسلمون الهندوس الفقراء من دون اهتمام، وعلى رغم أن الهويات الاجتماعية لهاتين الجماعتين من الفرائس المستوحشة كانت مختلفة تماماً، فإن هوياتهم الطبقية كعمال فقراء لا يملكون وسائل اقتصادية كانت متماثلة. لكن لم تكن ثمة هوية أخرى غير العرقية الدينية أتيح أن تكون لها أي أهمية في تلك الأيام التي سادت فيها النظرة الاستقطابية المركزة على تصنيف انفرادي. إن وهم واقع

[90] الهوية والعنف، ص، 173.

صدامي متفرد اختزل الكائنات البشرية تماماً، وحرم الأبطال من حرية التفكير... العنف الطائفي في كل مكان من العالم لا يقل اليوم فجاجة، ولا يقل اختزالية عما كان منذ ستين عاماً. فوراء دعم الوحشية الفظة يوجد أيضاً اضطراب مفاهيمي حول هويات الناس، يحول البشر متعددي الأبعاد إلى مخلوقات ذات بعد آحادي. والشخص الذي جند للحاق برعاع الهوتو القتلة في 1994 كان يسأل، وإن كان بشكل ضمني، ألا يرى نفسه كرواندي أو أفريقي أو إنسان، (وهي هويات يشترك فيها مع التوتسي المستهدفين) ولكن فقط كهوتو واجبه الحتمي أن يعطي التوتسي ما يستحقون، إن مذبحة رواندا وما يتعلق بها من العنف بين الهوتو والتوتسي في بوروندي، قضيا على أكثر من مليون إنسان خلال أيام قليلة جداً. إن كراهية الناس ليست سهلة."[91]

ومن الواضح بأن أفعال الناس تتأثر بأمور كثيرة غير الدين، فهناك السياسة واللغة والطبقية والعرقية. " وعلى سبيل المثال انفصال بنغلادش عن باكستان كان قائماً على أسباب اللغة والأدب، مع الأولويات السياسية وليس على الدين، الذي كان يشترك فيه كل من قسمي باكستان قبل الانفصال. إن تجاهل كل شيء إلا الدين معناه طمس حقيقة الاهتمامات التي تحرك الناس لتأكيد هوياتهم والتي تتجاوز الدين بكثير."[92] " معظم الناس هم أناس آخرون" عبارة مبهمة أعلنها أوسكار وايلد. وقد يبدوا أن هذا القول كواحدة من أحاجيه المفرطة الخيال، لولا أن وايلد دافع في هذه الحالة عن رأيه بتقديم حجة مقنعة:"أفكارهم هي آراء أشخاص آخرين، حياتهم محاكاة، وعواطفهم اقتباسات". "إننا في الواقع نتأثر إلى درجة مدهشة بالناس الذين نرى إننا نشترك معهم في هوية واحدة. إن الأحقاد الطائفية يمكن أن تنتشر كالنار في الهشيم،

---

[91] الهوية والعنف، ص 174- 175.

[92] الهوية والعنف ص 164.

كما رأينا في كوسوفو والبوسنة ورواندا وتيمور والسودان، وأماكن كثيرة أخرى في أنحاء العالم. ومع التحريض المناسب يمكن أن يتحول وعي متعمق منذ النشأة بهوية مشتركة مع جماعة من الناس إلى سلاح قوي يوجه بوحشية ضد جماعة أخرى. والواقع أن كثيراً من النزاعات والأعمال الوحشية في العالم تتغذى على وهم هوية متفردة لا اختيار فيها. وفن بناء الكراهية يأخذ شكل إثارة القوى السحرية لهوية مزعومة السيادة والهيمنة تحجب كل الانتماءات الأخرى تعطي هذه الهوية شكلاً ملائما ميالا للقتال، يمكن أيضاً أن تهزم أي تعاطف إنساني أو مشاعر شفقة فطرية قد تكون موجودة في نفوسنا بشكل طبيعي. والنتيجة قد تكون عنفاً عارماً مصنوعاً داخل الوطن، أو إرهابا وعنفا مراوغاً ومدبراً على مستوى كوكبي. إن من أهم مصادر الصراعات الكامنة في العالم المعاصر الزعم بأن الناس يمكن تصنيفهم تصنيفاً متفرداً مؤسساً على الدين أو الثقافة. إن العالم كثيراً ما يؤخذ على أنه مجموعة من الأديان، مع تجاهل الهويات الأخرى التي يتمتع بها الناس ويقدرونها والتي تتعلق بالطبقية والنوع والمهنة واللغة والعلم والأخلاق والسياسات." [93]

[93] الهوية والعنف ص 11- 12 .

الفصل الخامس

العنف والسياسة

القول البارز **لروسو** في اعترافاته :" إن الحقيقة الكبرى التي يمكن أن تغير الجنس البشري تعود بشكل أساسي إلى السياسة." ويقول أيضاً : " أي شعب ليس إلا ما تريده طبيعة حكومته أن يكون". روسو صاحب العقد الاجتماعي، يرى أن المنافسة والحروب والعيوب الإنسانية حدثت في المجتمعات المدنية فطبيعة الإنسان كانت خيرة ولكن البيئة الاجتماعية هي التي تغير الإنسان .
أو كما قال **الكواكبي** في كتاب طبائع الاستبداد : "الأخلاق أثمار بذورها الوراثة، وتربتها التربية، وسقياها العلم، والقائمون عليها هم رجال الحكومة. بناء عليه تفعل السياسة في أخلاق البشر، ما تفعله العناية في إنماء الشجر". في العلاقات السياسية تضيع الكثير من النواحي الإنسانية المهمة في الحياة، ويتحول الأفراد إلى أسماء لها قيمة فقط داخل صناديق الاقتراع.
والاتجاهات السياسية قد تحقق للأفراد الاستقرار الأمني، و العدالة الاجتماعية، والمساواة في الحقوق؛ أو ربما تكون على عكس ذلك فتتسبب بالفوضى، وإثارة الشغب، ونشر الفساد. وكل حوادث العنف ذات الطابع السياسي يتم تبريرها لاحقاً على أسس واعتبارات اجتماعية أو أيديولوجية، فالعنف الذي تغذيه السياسة دائماً يوجد له المبررات، حتى ولو كانت مبررات واهية وغير منطقية. والسياسات الهادفة تعمل على توجيه الرأي العام بما يخدم

مصـالحها، حتـى ولـو تسـببت بالـدفع نحـو اسـتخدام القـوة وإثـارة الشـغب والفوضى.

والسياسـة هـي خاصـة مـن خصـائص الدولـة في المجتمعـات المعاصـرة، فالحكومـات تسـيطر علـى اقتصـاد المجتمـع وعلـى الـبرامج الثقافيـة والتربويـة وعلـى التنميـة بشـكل عـام، ولا يمكـن لأي مجتمـع أن ينـهض دون خطـة سياسـية، أمـا إذا كانـت الحكومـات ضـعيفة وتفتقـر إلى الحكمـة وخطـط التغيير الصحيحة أو إذا كانـت لا تملك الإرادة لأنهـا مرتهنـة للـدول الكـبرى أو للشـركات الكـبرى، لا يمكنهـا تحقيـق العدالـة والأمـان لمواطنيهـا، ولا التخفيـف مـن انتشـار العنـف علـى أراضـيها. فالإمسـاك بـالأمن ضـرورة لحمايـة المواطنين. والإمساك بالأمن يختلف عن البطش، أو العقـل السياسـي التسـلطي، فالعقل التسلطي يسبب اليأس ويقضي على المبادرات الخلاقة، ويسبب الفوضى الأمنية وعدم الاستقرار، وأكثر من هذا فالعقل السياسي التسلطي يعتمد على التحريض الذي يساهم في خلق حالات التعصب المقيتة بين الجماعـات، لضـمان استمرارية بعض الزعامات.

والتاريخ حافل بحكام وملوك منهم من كان مثالاً للفضيلة والعدالـة، ومنـهم من استولوا على السلطة وحكموا بـالقوة عـن طريـق الخـداع أو سـفك الـدماء، ومعظـم الحكـام الطغـاة يقـل تقـديرهم للفضـيلة ويزيـد حـبهم للمـال، وهـؤلاء الحكام الطغاة كان لا بد مـن أن يُواجهوا بالكـراهيـة، - خاصـةً إذا كانـت غالبيـة الشـعب فقـراء- ولـيس مـن المسـتغرب إذا كثـر عـدد اللصـوص والأشـرار، والشـر في هـذه الحالـة يعـود إلى فسـاد الحكـام. هـذا الحقـد الـذي يسـيطر علـى النـاس لـيس بسـبب الطبيعـة البشـرية، بـل هـو بسـبب أنانيـة وسـؤ تصـرف النخـب المسـؤولة، الـتي لا تسـعى إلا لتنميـة ثرواتهـا الخاصـة، وتبـادل المنـافع بينهـا وبـين رجـال الأعمـال، دون أن تهـتم بتثقيـف المـواطنين وتحسـين

أحوالهم. والحاكم الذي يزيد حبه للمال يقل تقديره للفضيلة؛ هذا ما قاله أفلاطون:"الثروة والفضيلة لا يجتمعان إذ بينهما ذلك الفارق الذي يجعل كفة إحداهما تنخفض كلما ارتفعت الأخرى، فإذا كُرمت الثروة والأثرياء في دولة ما ، قل تكريم الفضيلة والفضلاء فيها حتماً."

أرسطو بحث عن أسباب الثورات وكانت له معاينة واقعية لطبيعة الأنظمة القائمة في عصره، فمنزلة الدولة بالنسبة له تفوق منزلة الأسرة، وغاية الدولة هي الحفاظ على الأفراد وتحقيق العدالة ونشر الفضيلة. أرسطو انتقد الطبقية ورأى أن الدولة المثلى يجب أن تجمع بين حكم الفقراء والأغنياء، ولكنه كان يفضل حكم الطبقة الوسطى أكثر من حكم الأغنياء أو الفقراء. أرسطو يرى أن الغنى الناتج عن الربا والاحتكار غير صالح للمجتمع، والحاكم الذي يسعى للفائدة الشخصية حكمه فاسد. وأسوأ أنواع الديمقراطية هي التي يتولى الحكم فيها أشخاص غير مؤهلين للحكم، فتصبح إرادة الحاكم فوق إرادة القانون. والحاكم المستبد حريص على أن يستمر الجهل بين الناس فالمعرفة بالنسبة له خطيرة، وهي تتعارض مع الخضوع. وعندما يكتشف الشعب مدى استغلال الحكام ستكثر الفتن والحروب.

ما المقصود بالعنف السياسي؟

أغلب الباحثين والدارسين يعرّفون العنف السياسي بأنه استخدام القوة المادية أو التهديد باستخدامها لتحقيق أهداف سياسية. وفي دراسة ظاهرة العنف السياسي لا يمكن الاعتماد على مصادر إقليمية أو دولية محددة، بل يجب جمع المعلومات بشأن الموضوع نفسه من مصادر مختلفة، دائماً هناك تعارضٌ في

تغطيــة الأحــداث، وهــذا الاخــتلاف يعــود لســبب الاختلافــات السياســية والأيديولوجية، وإلى انحياز بعض من ينجز التقارير لجهة دون أخرى.

وهنـاك بعـض المؤشـرات الـتي تـدل علـى وجـود العنـف السياسـي مثـل الأحكـام العرفيـة، والاغتيـالات، وحظـر التجـول، والتعـذيب، ومـا شـابه. ولكـن هـذه الاحتمـالات قـد تتـداخل أيضـاً مـثلاً: المظـاهرات الغيـر منظمـة وأعمـال الشـغب والتمـرد وحـرب العصـابات الـتي تقـوم بهـا جماعـات غـير منضـبطة بقصـد خلـق أجـواء مـن الفوضـى والفتنـة تحتـاج حتمـاً إلى مـن يقمعهـا حتـى لا تتسـبب بـالأذى للناس. وهناك فرق كبير بين الثورة على الظلم وحكم الطغيـان، وبـين أحـداث الشغب الموجهة باتجاه إشعال الفتن لخدمة مصالح فئوية أو خارجية.

"وكثيراً ما يتم الخلط بين مفهوم العنف السياسـي وعـدة مفـاهيم أخـرى أبرزهـا الإرهـاب السياسـي، والصـراع السياسـي، وعـدم الاسـتقرار السياسـي. الإرهـاب السياسي هو سلوك رمزي يقوم على أساس الاستخدام المنظم للعنـف أو التهديـد باستخدامه، بشكل يترتب عليه خلق حالـة نفسـية مـن الخـوف والرهبـة وعـدم الشعور بالأمان لدى المستهدفين، وذلك لتحقيق أهداف سياسية. وتتمثل عناصر المفهـوم طبقـاً للتعريـف السـابق فيمـا يلـي: " إن الإرهـاب عمـل رمـزي، فهـو لا يستهدف الضحية في ذاتها وحسب، ولكـن النظـام أو الجماعـة أو الدولـة الـتي تنتمي إليها. والهدف الأساسـي منـه هـو إحـداث أثـر نفسـي سـلبي يتمثـل في حالـة من الخوف والقلق والرعـب والتـوتر لـدى المسـتهدفين، حيـث يمكـن في إطارهـا التـأثير في توجهـاتهم وسياسـاتهم. ولا يقتصـر حصـول الأحـداث الإرهابيـة علـى جماعات دون أُخرى، فكثير من الـدول الكـبرى الأعضـاء في المنظمـة الدوليـة تمـارس الإرهـاب السياسـي، وتقمـع شـعوب في دول أضـعف منهـا وتهيمن عليهـا. وهذه الدول لا تُحاسب على ما تفعل، ولا تُتَخذ ضدها ممارسات قانونية، بينمـا

يتم محاكمة أي دولة من دول العالم الثالث إذا قامت بعمل مشابه، أو ربما أقل خطورة بكثير من ممارسات الدول الكبرى.

وأكبر شاهد على أساس ما يحصل في دول العالم من تصفيات واغتيالات وتعديات على الحقوق هو التاريخ. مثلاً: المسألة الليبية تم التخطيط لها منذ سنوات. "ففي العام 1984 وضع "مكتب الدراسات والبحوث" التابع لوزارة الخارجية الأمريكية تقريراً يتعلق بالمسألة الليبية وما تقوم به ليبيا من دور مناهض للسياسة الأمريكية في المنطقة، وفي 24 و 25 آذار عام 1986 شنت الطائرات الأمريكية غارات متلاحقة ضد مدينتي طرابلس وبنغازي مستهدفة في الوقت ذاته مقر الرئاسة الليبية. كما أن الإدارة الأمريكية حملت ليبيا مسؤولية تفجير ملهى ليلي في برلين ذهب ضحيته جندي أمريكي، وشنت الولايات المتحدة الأمريكية حملة سياسية نجحت من خلالها في فرض عقوبات ضد ليبيا بحجة دعم الأعمال الإرهابية وتشجيعها. ويبدوا أن هذا الأمر كان ملفقاً لأنه بعد انهيار الاتحاد السوفييتي اعترفت أجهزة المخابرات في ألمانيا الشرقية عن مسؤوليتها عن تفجير الملهى الليلي التي حملت أميركا مسؤوليته للقيادة الليبية، ثم ما لبثت واشنطن أن شنت حملة إعلامية عام 1990 ضد معمل لإنتاج المتفجرات في ليبيا بالرغم من تأكيد السلطات الليبية والشركات الأوروبية المنشئة له بأنه معمل مستحضرات كيماوية. وبالفعل تم إحراق المعمل في العام 1991." [94] وبعد غزو ليبيا وقتل زعيمها معمر القذافي بأبشع صورة تصبح المسائل التي كانت في الماضي شبه مبهمة أكثر وضوحاً بعد الذي حصل.

---

[94] النزاعات الإقليمية في نصف قرن، ص 229.

الكواكبي: يعتبر السياسة أساس **الأخلاق**:" الأخلاق أثمار بذورها الوراثة وتربتها التربية وسقياها العلم، و**القائمون عليها هم رجال الحكومة** بناءً عليه تفعل السياسة في أخلاق البشر ما تفعله العناية في إنماء الشجر." **فالسياسة الحكيمة تسعى لتنوير العقول، بينما الحاكم المستبد يسعى لإطفاء نورها.** والجهل حسب الكواكبي هو المناخ المناسب لقيام الاستبداد. والسياسة الحكيمة تتمثل بثلاثة مبادئ أساسية هي الشورى فالمشورة تبعد الحكام عن الاستبداد بالرأي. والمساواة، والاشتراكية. والاستبداد السياسي يعتمد على جهل الناس، والتباس الأمور، واستغلال الدين. وقد لاحظ الكواكبي كيف يحاول الحكام في فترات الانقسام أو الأزمات اللجوء إلى المظاهر الدينية، ورجال الدين بهدف كسب العامة من الناس. ويضيف على ذلك: " السياسيين يبنون استبدادهم على أساس من هذا القبيل، فهم يرهبون الناس بالتعالي الشخصي، ويذلونهم بالقهر والقوة وسلب الأموال حتى يجعلونهم خاضعين لهم، عاملين لأجلهم، يتمتعون بهم كأنهم نوع من الأنعام التي يشربون ألبانها ويأكلون لحومها، ويركبون ظهورها وبها يتفاخرون."

والملفت في فكر الكواكبي هو تحليله للفتن التي تجر الفوضى، فالثورات والفتن لا تقضي على الحالة التي أوجدها الحكام المستبدين، فإذا قُلع المستبد لا يعني الخلاص من هذا الداء لأن جذوره ستبقى، وأي تصرف عنيف تجاه المؤسسة الحاكمة لا يصلح الأمور. ويعتبر الكواكبي أن العلم هو البديل عن العنف، وبواسطة المعرفة يمكن إصلاح الأمور، وخلع جذور الاستبداد وبدون الوعي لا مجال للتغيير، وكل تغيير إيجابي يحصل نتيجة وعي الظروف، والأسباب. والوعي لا ينتشر إلا بوجود مصلحين ومتنورين ينشرون الوعي بين

الناس. **والاستبداد لا يقاوم بالشدة:" كي لا تكون هناك فتنة تحصد الناس حصداً.**" والاستبداد إنما يُقاوم بالحكمة والوقت. " قد تحرق العامة عاصمة لأجل التشفي من أعوان المستبد. ولكنها بذلك لا تحصل على ما تريد فتقضي على جهد عملها ويظل المستبد في مكانه." فالطغاة يعملون على زرع الفتن والشك بين المواطنين، والقضاء على البارزين من أصحاب العقول، وتعويد الناس الخسة وحجب ما يعمل على تنوير الناس، وإفقار المواطنين حتى لا يهتموا إلا للبحث عن قوت يومهم. فكل من يريد أن يحرض على القتال سوف يجد الحجج التي تعمل على تعطيل الوعي وشل التفكير، وإدخال الناس في أوهام العنصرية، وأبشع ما يكون هو استغلال الدين. **أبن كثير** أيضاً لا يوافق العلماء في خلع الحاكم بالقوة. يقول: " الإمام إذا فسق لا يعزل بمجرد فسقه على أصح قول العلماء، بل ولا يجوز الخروج عليه لما في ذلك من إثارة الفتنة، ووقع الهرج، وسفك الدماء الحرام، ونهب الأموال، وفعل الفواحش، وغير ذلك مما كل واحدة فيها من الفساد أضعاف فسقه. كما جرى مما تقدم إلى يومنا هذا." [95]

محمد عبده لا يثق بثورة الجماهير حيث رأى أن "الغوغاء عون الغاشم ويد الظالم". وخاصة إذا كانت هذه الجماهير غير مثقفة أو واعية تماماً لما يحصل. أما **أرسطو** فالسياسة بالنسبة له هي "علم السعادة الاجتماعية" ووظيفة الدولة هي تحقيق السعادة للمواطنين وحمايتهم.

أرسطو يقول أن السياسة هي الغاية العليا، لأنها تسعى لخير الإنسان، والجميع يبتغون من كل عمل يعملونه خيراً لأنفسهم، وكل مجتمع يتكون من عناصر متنوعة من أغنياء وفقراء، ومتوسطي الحال، وحسب نوعية المجتمعات يجب أن تسن القوانين، والضرورة تقتضي بقيام سياسات متعددة، فجمهورية أفلاطون

---

[95] الطاغية ص 119.

لا يمكن أن تتحقق بنظر أرسطو، لذلك يجب أن ننظر إلى الواقع لرسم سياسات تناسب الجميع، وخير السياسات هي السياسة المعتدلة، وأفضل طبقات المجتمع هي الطبقة الوسطى، حيث يصعب على من اتصفوا بفرط الغنى أو فرط الفقر أن ينقادوا للعقل، فالذين توفرت لهم أسباب القوة والثروة يأبون الخضوع، ويعتبرون مصلحتهم فوق مصلحة الدولة، والفقراء والذين فقدوا النفوذ تعلموا الخضوع كالعبيد، وهكذا تصبح الدولة المكونة من طبقتين طبقة الأغنياء وطبقة الفقراء دولة أسياد وأرقاء، وليست دولة عدالة، فحكم الأغنياء حكم فاسد، وكذلك حكم الفقراء. وخير السياسات هي السياسة المعتدلة، لأنها وحدها لا تتعرض للثورات. ويعتقد أرسطو أن هناك أناساً مهيئين بطبعهم لأن يكونوا عبيداً فهذه التفرقة موجودة بالطبيعة، كالتفرقة بين الروح والجسد، أو بين الإنسان والحيوان.

أما عند **الفارابي**، تتمثل الحكمة السياسية بتنشئة وتعليم المواطنين، وتنمية مواهبهم، والأخلاق تتشكل من خلال المعارف، فالسياسة ينبغي لها أن تعتمد على المعرفة الصائبة، كما أن المدينة الفاضلة تقوم على آراء صائبة، والعلاج الحقيقي لخراب البلد هو في توحيد السلطة، وتوحيد الرأي، وإيجاد عقيدة تقوم على البراهين اليقينية لا على المجادلات الكلامية. فالمجادلات لم تزد الناس إلا فرقة، ولم تستطع أن توحد شملهم. وبناء الآراء على أساس الظنون يعني الضلالة والفوضى الاجتماعية، والانقياد الأعمى باتجاه العنف. بالنسبة للفارابي لا يوجد مدينة خيرة أو مدينة شريرة بطبعها بل بإرادة أهلها، فإذا اجتمع أهلها على الخير تكون خيرة وإذا اجتمعوا على الشر تكون شريرة، وأهل المدينة الفاضلة يبحثون عن السعادة الحقيقية وبما أن السعادة الحقيقية غير متوفرة في العالم الأرضي، فالسعادة الحقيقية هي في العالم الإلهي. وليس باستطاعة كل إنسان أن يكون رئيس للمدينة الفاضلة، فالرئاسة تتحقق

بشيئين أحدهما أن يكون الرئيس صاحب مخيلة كاملة تسمح له بالاتصال بالعقل الفعال، وذلك يكون بالفطرة والطبع، ولقد وضع الفارابي شرط أساسي لرئاسة المدينة الفاضلة هي أن يتوفر في الرئيس المخيلة الكاملة في كل ما يتعلق بالمجتمع والأفراد وما يحدث لهم. وإذا لم يكن الرئيس يعرف الفلسفة النظرية التي تؤدي إلى الطريق القويم لا يمكن للمدينة أن تزدهر، بل ستهلك حتماً بعد مدة.

الفصل السادس

العوامل الاجتماعية والعنف

- - - - - - - -

تأثير التفاعل الاجتماعي على السلوك

سارتر يميز بين حقيقتين اجتماعيتين: المجموعة، والجماعة. المجموعة تضم عدداً من الأفراد المجتمعين في مكان واحد، والذين يتصلون من خلال علاقات مجردة، غير شخصية. كما هي الحال في وحدة العمل، فيقوم كل منهما بأدوار يحددها موقعه في البنية الاجتماعية. أما الجماعة فتتحدد على العكس من ذلك، أي أن كل فرد يسهم بما أوتي من قدرة على إنجاح المشروع المشترك وينظر إلى مساهمة الآخرين باعتبارها أمراً ضرورياً لا بد منه. فالجماعة لا تظهر عن صدفة، بل أنه لا بد من توفر بعض الشروط المادية أو العاطفية التي تعزز وجودها.

ويشير ليوين Lewin (1959) إلى عوامل ثلاثة قد تدفع إلى التنازع داخل الجماعة:

1 – الإحباط والتوتر.

2 – غياب مرجعية ذات سلطان وازع .

3 – الافتقار إلى نشاط ممتع." [96]

ولكن هناك اختلاف في التفاعل بين الأفراد والمحيط الاجتماعي من حيث تأثير العوامل التي ينتجها المحيط، مثلاً: الإدمان موجود تقريباً في كل

[96] الجماعة السلطة والاتصال، ص 12.

المجتمعات ولكن نسب المدمنين تختلف بين المجتمعات حسب الثقافة، ومستوى الوعي، أو البيئة الحاضنة، وليس من الممكن أن يتفاعل جميع أفراد المجتمع مع هذه الظاهرة بشكل كامل. فالتفاعل مع الظواهر يختلف بين الناس، وكذلك تختلف الاستجابة للضغوطات؛ ولكن نادراً ما يوجد اختلاف بين العوامل المؤثرة التي تحث على العنف وارتكاب الجرائم عند الجماعات، فالإدمان عامل مساعد على ارتكاب جرائم سواء كان في مجتمعات غنية، أو في المجتمعات الفقيرة. وأنماط السلوك لا تظهر واضحة في الظروف العادية، فهي بحاجة إلى إثارة، لأن السمات الأساسية المكونة للشخصية موجودة داخل الأشخاص كبناء عصبي يستجيب للمثيرات بشكل واضح أمام أي موقف محرج أو صدمة مفاجئة، ولهذا السبب تصبح الاستجابة الفردية، أو الجريمة العرضية نتاجاً اجتماعياً بالدرجة الأولى، فالأنا الفردية تتفاعل مع المعطيات الاجتماعية لتشكل سلوك ونمط كل فرد.

" يعتبر **دوركايم** الجريمة جزء متكامل من كل المجتمعات، بمعنى أنها لا بد وأن توجد في جميع المجتمعات، ولكن شكلها يتغير، لأن الأفعال التي تحدد على أنها إجرامية ليست كذلك في كل مكان. ويذهب دوركايم إلى القول بأن المجتمع يترك الحرية لأفراده لكي يختلق قليلاً أو كثيراً من المعايير الجمعية، وينتج عن ذلك أن بعض الناس يغالون في هذا الانحراف فيرتكبون الأفعال الإجرامية، ولكنه يؤكد أنه لا يوجد شيء يمكن أن نسميه بالخير المطلق، فإن الناس يجب أن تُترك لهم الحرية لكي يختلفوا عن معايير الجماعة، وإلا أصبح التغير الاجتماعي مستحيل، فإذا كان لنا أن نحقق التقدم يجب أن نترك الأصالة عند الناس لكي تعبر عن نفسها، فمن الضروري أيضاً بنظر دوركايم أن نترك لأصالة المجرم أن تعبر عن نفسها... هناك ناس

استطاعوا خرق قواعد وقوانين وتعليمات الكف أو المنع والتحريم، مثل هؤلاء الناس الذين خرقوا القواعد يوصفون بأنهم مجرمون." [97]

ويضع سزرلاند نظرية تكوينية للسلوك الإجرامي مؤداها أنه:

1- السلوك الإجرامي يتعلم لا يورث، فالشخص الذي لم يدرب على الجريمة لا يبتدع سلوكاً إجرامياً.

2- السلوك الإجرامي يتعلم بالداخل مع أشخاص آخرين.

3- الجزء الأساسي في تعلم السلوك الإجرامي يحدث في نطاق جماعات الأشخاص ذات العلاقة الودية الوثيقة، فأجهزة الاتصال غير الشخصية كالسينما والصحف تلعب دوراً ضئيل الأهمية في نشر السلوك الإجرامي.

4- حينما يتعلم السلوك الإجرامي فإن التعلم يتضمن في ارتكاب الجريمة الذي يكون أحياناً في منتهى التعقيد وفي بعض الأحيان في غاية البساطة." [98]

"ولتحديد مسببات العنف قام إليكسون فيليس وآخرون (1998) بدراسة موضوعها بروفيلات العنف لدى الشباب: إدمان المخدرات ومشكلات أخرى متزامنة، مستخدماً مجموعات من بين طلاب 4500 مدرسة ثانوية سواء من المنتظمين بها أو ممن لم يستكملوا دراساتهم بولاية كاليفورنيا، وذلك بهدف تحديد سلوكيات العنف، ومشكلات الصحة العامة، والمشكلات السلوكية العاطفية. وقد أسفرت نتائج الدراسات عن أن أكثر من نسبة 50 ٪ من أفراد العينة تورطوا في سلوكيات عنف، وأكثر من 25 ٪ من أفراد نفس العينة ارتكبوا جرائم كإدمان المخدرات والاتجار بها، كذلك أظهرت النتائج أن الشباب الذين اتصفوا بسلوكيات وجرائم العنف مقارنة بنظرائهم العاديين، يعانون من مشكلات في الصحة العامة، وتدني التحصيل الأكاديمي، وضعف

---

[97] مبحث الجريمة، ص 70.

[98] مبحث الجريمة ص، 49.

العمليـات العقليـة المعرفيـة، والمشـكلات السـلوكية والعاطفيـة تـدفعهم إلى ارتكاب الجرائم. وقام كالندا جرين green (1995) بدراسة لمحتجزين في السجن متوسط أعمارهم 16 عاماً، موضوعها العلاقة بين العنف والجريمة، وبين القابلية لارتكاب السلوكيات الخطرة لدى المراهقين، وقد أسفرت نتائج الدراسة عن وجود علاقة ارتباطية موجبة دالة بين العنف والجريمة والقابلية للأذية والسلوكيات الخطرة، وعلى عكس ما هو متوقع أسفرت نتائج الدراسة عن أن هؤلاء الشباب لم يروا أنفسهم مذنبين، كذلك تبين أن نسبة 45 ٪ منهم يعتقدون أن انتمائهم لجماعة يشجع سلوك العنف بينهم.

وقام جول بينيت وآخرون (1996) ببحث أسباب تناول الكحول في أماكن العمل وعلاقته بالعنف، ومن جهة أخرى علاقة ذلك بالاغتراب الاجتماعي، مستخدماً مجموعة من العمال والشباب بثلاث مدن بالولايات المتحدة ، فاتضح أن تناول الكحول له تأثير على اقتراف سلوكيات العنف." [99]

وحاول دونالد تافت Donald R.taft تكوين نظرية لشرح وتفسير معدلات الجريمة الكبيرة في الولايات المتحدة الأمريكية، وهذا ملخص للعوامل التي تسبب النزعة الإجرامية حسب دونالد:

1- الثقافة الأمريكية نامية ومتطورة، فما كان خطأ بالأمس أصبح اليوم صواب والعكس صحيح.

2- الجريمة نتاج للصراع الثقافي أي صراع القيم والعادات.

3- الثقافة المادية لها دور وذلك لأن المحرومون والفاشلون يحاولون تقليد الناجحين.

4- ضعف العلاقات بين أبناء الجيرة يؤدي إلى الاغتراب وإلى مزيد من الجريمة.

---

[99] العنف لدى الشباب الجامعي ص 40 .

5- الثقافة الأمريكية تساهم بتشجيع الولاء لجماعات معينة من ذلك تفضيل الرجال ليس لصفاتهم الشخصية ولكن لأنهم مواطنون أصليون، أو تفضيلهم لسبب الجيرة أو الطبقة وهذا يؤدي إلى فرز الناس حسب الطبقات مما يسبب العداوة والصراع والجريمة.

6- بقاء بعض القيم القديمة مثل الفردية المطلقة أو الفردية المتطرفة أو رغبة بعض الفئات في جعل القانون في صفهم واستغلال أحكامه.[100]

العالم الأمريكي سذرلاند Sutherland يستبعد الأسباب العامة للجريمة، السلوك الإجرامي لا يورث وإنما هو مكتسب، ويكتسب السلوك الإجرامي بعدة مراحل:

1- يكتسب بالتعلم وهو يستبعد الوراثة في إنتاج السلوك الإجرامي.

2- السلوك الإجرامي يتم عن طريق الاتصال بالأشخاص الآخرين سواء بالقول أو الإشارة أو التقليد. وبدون الاحتكاك بالمجرمين لا يتم تعلم هذا السلوك.

3- يتم بخاصة داخل جماعة صغيرة، يربط بين أفرادها روابط شخصية.

4- عملية تعلم السلوك الإجرامي تتكون من عنصرين: الأول فن ارتكاب الجريمة، والثاني توجيه الميول والدوافع وتبرير التصرفات الخاصة.

5- توجيه الميول والدوافع مكتسب أيضاً.

6- يصبح الشخص مجرماً عندما تغلب عوامل مخالفة النصوص القانونية على عوامل احترام هذه النصوص. واكتساب احترام القانون يبدأ منذ الطفولة.

7- والاختلاط المتفاوت يتنوع حسب تكراره، ومدته، وأسبقيته، وعمقه.[101]

---

[100] مبحث الجريمة ص **72**.

[101] علمي الإجرام والعقاب، ص، **75**.

تأثير القيم

ليفي بريل يخلص إلى القول بأن عادات الناس لا تتطور فقط بفضل النظريات الأخلاقية، بل تتطور بطريقة مباشرة ومستقلة. ومن الخطأ القول بأن الطبيعة الإنسانية واحدة في كل زمان ومكان، بل إن الطبيعة الإنسانية والضمير هما في تنازع بين الواجبات وبين المطامح؛ والضمير الأخلاقي معقد جداً وحافل بالتناقض، فالواجبات الفردية في صراع مع الواجبات الاجتماعية، والواجبات تجاه الأسرة، والمهنة، والأمة. لهذا يدعو ليفي بريل إلى دراسة الواقع الاجتماعي، وتحليل ماضي المجتمعات الإنسانية، وإدراك القوانين والروابط التي تحكم الظواهر، فالضمير الأخلاقي مؤلف من جملة عادات وأعراف، وأخلاق الشعوب تتحدد وفق الأعراف والتقاليد، وهي ليست واحدة في مختلف الحضارات، فمفهوم الإنسان يختلف باختلاف الزمان والمكان والبيئة والحضارة وأسلوب الحياة والفكر، والقول بوحدة الطبيعة الإنسانية قد نقدته الدراسات الحديثة، ومحتويات الضمير الخُلقي لا تظل ثابتة، فتتلاشى منه عناصر قديمة وتحل محلها أخرى جديدة، وهذا التغيير لا يحدث دون تنازع أو تصادم، فالحشود المتراكمة من العادات والسلوك والمعتقدات، تتطور في الضمير، فتسقط قيم وتبقى أخرى، ويتطور الضمير تبعاً لذلك. ويقدم ليفي بريل مثالاً للتأكيد على رأيه فيقول: ماذا نجد لو حللنا محتويات ضمير خُلقي لرجل من الأشراف في فرنسا في القرن الثالث عشر، سنجد فيه عناصر من مصدر جرماني تتحد مع معتقدات واصطلاحات مصدرها شعوب البربر التي كانت تسكن إقليم الغال، وسنجد أيضاً الضمير يحتوي على عناصر من أصل مسيحي وبعض العناصر التي تمت بصلة إلى الحضارة اليونانية، وهذا الخليط من رواسب الحضارات المختلفة، أوجد لنا ذلك النموذج الخاص من

الخُلق والعادات، ومما لا شك فيه أن أخلاقنا الحالية ستكون بالمثل موضوع دراسة لأحفادنا.

الإذلال والعنف

في أوائل القرن التاسع عشر قام عالم الاجتماع **أوغيست كونت** باتباع المنهج التجريبي في دراسة الظواهر الاجتماعية، ولما كانت الجريمة من أخطر هذه الظواهر، كان البحث عن أسبابها من أهم الأمور التي شغلت الباحثين، أمثال **كتلت** quetlet مؤسس مدرسة "الوسط الاجتماعي" في بلجيكا، وقد حاولت هذه المدرسة البحث عن أسباب الجريمة في البيئة الاجتماعية للمجرم. وقد أرجعت هذه المدرسة الدور الأساسي لتكوين شخصية المجرم إلى البيئة الاجتماعية. التي تضع الفرد منذ ولادته في وسط مفسد يدفعه إلى الجريمة. و" كشفت مدرسة الوسط الاجتماعي على يد الأستاذين لاكاساني (1843-1924) ومانيفرية (1922- 1850) عن نظرية تتلخص في عبارتين شهيرتين هما:

أ- ليس للمجتمعات إلا المجرمين الذين يستحقونهم.

ب- والميكروب هو المجرم، وهو عنصر لا يعيش إلا إذا وجد البوتقة التي تمكن من نموه وتفاقم خطره." [102]

"وفي المدرسة الإيطالية الجديدة حاول أنريكو فيري enrico ferri أن يُبرز أهمية عامل البيئة في خلق الجريمة في كتابه "علم الاجتماع الجنائي" (1884) فقال أن الجريمة خلاصة تفاعل ثلاثة أنواع من العوامل:

---

[102] مبحث الجريمة، ص، 45.

1- الطبيعية والجغرافية، كالجنس والمناخ والموقع الجغرافي.

2- العوامل الأنتروبولوجية، وهي السن والنوع والخصائص العضوية.

3- العوامل الاجتماعية وتشمل كثافة السكان والعادات والتقاليد والتنظيم السياسي والظروف الاقتصادية.

ومن هذه العوامل الثلاثة ينشأ ما أسماه ferri "قانون الكثافة الجنائي"، ومؤداه أن اقتران عوامل انتروبولوجية معينة بظروف اجتماعية معينة وعوامل طبيعية وجغرافية ينتج عدداً معيناً من الجرائم." [103]

" وقد أوضح جبرائيل فارد gabriel frade باحث فرنسي، بأن الإجرام لا يرجع إلى التكوين الحيوي للمجرم بل يعود إلى طبيعة المجتمع والبيئة التي ينشأ فيها المجرم. وكان من أوائل الناس الذين قرروا بأن الجريمة والجنوح تتعلمان كما تتعلم أية مهنة أخرى . والجريمة في نظره عبارة عن مهنة تعلمها الفرد من الآخرين في الجماعات المتلاصقة التي تقوم بينها علاقات صداقة وطيدة وشخصية، وليست سمة أو صفة يرثها الفرد،". [104]

عندما تكثر حالات العنف، ويكثر اللصوص والأشرار "ثُمة أدلة تحليل نفسي عديدة تبرهن بأن الإذلال يشجع على استجابات عنيفة في ظروف معينة يوجهها المسحوقون ضد أنفسهم في بعض الأحيان. فخذ بالحسبان حالة تم اختيارها عشوائياً: هي حالة تشارلز ستاركويزر (تم إعداد فيلم عن جرائمه بعنوان ألأوطان البغيضة)عاش ستاركويزر الفقر وإهمال الأهل في بلدة صغيرة تدعى نبراسكا، حيث قتل في أوائل 1958 أحد عشر شخصاً ومثل فيهم في نوبة رماية دامت أسبوعاً. رجلاه مقوستان وذو مظهر بدني غير جذاب، إذ اشتهر بلقب "الزبال" محلياً. فسيرته الذاتية التي خُطت قُبيل إعدامه تُفسر أنه عد

[103] مبحث الجريمة ، ص 41.

[104] المصدر نفسه، ص 74.

نفسه قبل الجرائم التي ارتكبها بفترة لا بأس بها بوصفه قُمامة ومهزوماً. إن الديناميــة المرتبطــة بحــالات مثــل حالــة ســتاركوزي غريبــة ومأســاوية، وإن العلاقات المحطمة مع الأهل خلال الطفولة المبكرة، وتجربة الأمهات المهملات على وجه الخصوص، أو الآباء الغائبين تولد أحياناً وضعاً أسوأ من الحزن العاطفي بكثير؛ ويسفر عنها إخفاق الرعايا في التفكير بذواتهم عينها أو بالذوات الذهنية لمن حولهم. ويشعر الذين يخفقون بالتفكير بأنفسهم ويعاملهم المحيط وكأنهم عدم، وإن العدمية تجعلهم عرضة لإسقاط فوضاهم الذاتية على الآخرين قسرياً، أو على ذواتهم عينها. فالعنف محاولة يائسة لمؤازرة ذواتهم الضعيفة أو الغائبة إما من خلال إيذاء النفس ("إذا قتلت نفسي، فلن يتعين عليَ التفكير بما أفكر به") أو من خلال اضطهاد الآخرين ("إذا قتلتك، فلن يتعين عليَ التفكير بما تفكر به")؛ يمكن خداع العنف إلا أن هذا الخداع عينه يوفر على نحو متناقض ملاذاً آمناً ضد الضرب الذي ذاقته الذات. ويبعث العنف على نحو مؤقت، شأنه شأن الأوكسجين، الحياة في ذات ما عانت من الاختناق، مختنقاً بما بقي من ذات، بالكاد شابهت ذاتاً بادئ ذي بدء." [105]

عملية التوحيد بين هذه الجماعات تشبه التقمص لمبدأ معين أو لفلسفة معينة، وهي عمليات لا شعورية تصبح جزء لا يتجزأ من كيان الشخص. وكلما كان الفرد مسايراً لمعايير الجماعة يُعتبر مقبولاً، وكلما ابتعد عن معايير الجماعة يتعرض للنبذ أو الاستبعاد. آراء غوستاف لوبون lobon تتوافق مع أفكار frade من هذه الناحية يقول: أن أهم القوى التي تساعد على تجانس الجماعات هي الاستهواء والتقليد والمشاركة الوجدانية. وحين يتم نبذ فرد من الجماعة تكثر الأحاديث حوله ويمقته الجميع. وعندما لا يجد المستبعد من الجماعة مكاناً يحميه أو عائلة ترعاه حتماً سينتقم لنفسه بأي طريقة.

---

[105] العنف والديمقراطية، ص 109.

المعايير واختلاف السلوك

وفق تحليل قام به إدوارد سبرانجر E.Spranger استطاع تحديد ستة قيم أساسية تتحكم في أنماط السلوك عند الإنسان هي: القيم النظرية، القيم الاقتصادية، القيم الجمالية، القيم الاجتماعية، القيم السياسية، والقيم الدينية. وحين نعرف أي قيمة من هذه القيم تسيطر على الشخص يمكن أن نعرف أي نمط من الأنماط يكون عليه ذلك الشخص.[106]

إذا لم يكن هناك اختلاف في الأنماط السلوكية بين الناس لما كان لكل فرد سماته الخاصة، وميزاته ودوره الذي يؤديه في المجتمع، وتتشكل الأنماط السلوكية أيضاً حسب المواقف التي يتعرض لها الفرد فتؤدي إلى تكوين شخصية متفردة وهوية ذاتية. ومفهوم الشخص السوي أو المتوازن من الناحية النفسية يختلف من ثقافة إلى أخرى أو من جماعة إلى أخرى، حسب المعايير المتبعة في الجماعات، وقد يكون هناك سلوك لا يلقى قبولاً لدى بعض الجماعات ولكنه يعتبر مألوفاً أو مقبولاً لدى البعض الآخر. وهذه الهوية الاجتماعية تبدأ في طبع ميزاتها منذ الطفولة، فالطفل يتطبع على السلوك، والذي لا يتلقى العقاب المناسب على بعض الأفعال العنيفة لن يشعر بالقلق في المراحل اللاحقة من حياته في ممارسة أي فعل مشابه.

المدرسة الوضعية المنطقية وهو اتجاه فلسفي معاصر يقوم على أساس التجربة التي تمثل المصدر الوحيد للمعرفة القائمة على أساس العقل، ومن أهم ما توصلت إليه هذه المدرسة؛ أن المجرم وجد نفسه مدفوعاً باتجاه الجريمة بسبب ظروف شخصية وفيزيائية وأخلاقية محيطة به وهذه الظروف الخارجية قادته رغماً عنه باتجاه الجريمة. وقد يكون لآثار الصدمة في مرحلة الطفولة أو

---

[106] نفس المرجع ص 126

المراهقة اضطراب يترافق مع سلوكاً عدوانياً ، أو مشكلات كعدم التوافق، والخوف، وعدم الثقة بالآخرين، وغيرها من الاضطرابات.

" ويمكن لنا في هذا الصدد العودة إلى التجربة التي أجراها كوينز كو kuenz kuo حيث استخدم حوالي ستين قطة صغيرة حديثة الولادة فقسمها إلى مجموعتين متساويتين من ناحية العدد. ثم بدأ بإطعام المجموعة الأولى اللحم واللبن والسمك المخلوط بالأرز، أما المجموعة الثانية فقد أُطعمت اللبن والخضروات ولم يقدم لها اللحم على الإطلاق. ثم عاد وقسم القطط إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول ويتكون من عدد من القطط النباتية وعدد من القطط الحيوانية وعاش هذا القسم في عزلة تامة عن القطط والفئران، (كل قطة عاشت في عزلة عن القطط والفئران) أما القسم الثاني نصفه قطط لاحمة ونصفه قطط نباتية عاشت مع أمها فترة كافية لترى الأم وهي تقتل الفئران، أما القسم الثالث فقد تربى بعد ولادته بحوالي أسبوع مع الفئران في قفص واحد دون أن يرى قطط أخرى، ثم قام كو بعد فترة باختبار العلاقة بين القطط والفئران ولخصها كما يلي:

ظروف تربية القطة	عدد القطط	عدد القطط التي قتلت فئران	النسبة المئوية
انعزالية كاملة	20	9	٪45
رأت أمها تقتل الفئران	21	18	٪86
عاشت مع الفئران	18	3	٪17

وهـذا يعـني كمـا يـبين الجـدول أن لظـروف التنشـئة دوراً كـبيراً ـ في اكتسـاب السـلوك العـدواني عنـد الحيـوان ويمكـن لهـذه النتيجـة أن تنسـحب علـى الإنسان." 107

كمـا تـبين نتـائج الأبحـاث الـتي أجرتهـا الباحثـة الإنتروبولوجيـة الأمريكيـة مارغريت ميد margeret mead في جنوب شرقي آسيا في غينيا وعرضت نتائجها في كتابها المشهور الجنس والطبائع في ثلاثة مجتمعات بدائية، الأهمية الكبرى للعلاقة الجوهرية التي تربط بين الطباع وأسلوب التنشئة الاجتماعية أثناء مرحلة الطفولة المبكرة. وتبين دراسات ميد أهمية الطريقة التي يتم بها إرضـاع الأطفـال ومـدى تـأثير هـذه الطريقـة في بنـاء شخصـيات عدوانيـة أو متسـامحة. لقد لاحظت ميد وجود اختلاف كبير بين شخصية الراشدين في قبيلتي الآرابيش، والموندوغومور: فالرجال والنساء في قبيلة الآرابيش يتميزون بسمات الرقة والنعومة والوداعة والطيبة والصدق والتفاؤل، بينما يتميز رجال قبيلة الموندوغومور ونساؤها بالشدة والصرامة والفظاظة وقسوة القلب إنهم آكلة لحوم وصيادو رؤوس واستطاعت الباحثة أن تفسر هذه الظاهرة بالعودة إلى دراسة أسلوب التربية السائدة في كلتا القبيلتين، فوجدت أن الطفل في الآرابيش يعامل برقة و وداعة متناهيتين، ويحظى بعناية فائقة من قبل الأبوين فهو يجد دائماً من يحمله على كفيه، والأم تُرضع طفلها في كل لحظة يعلن فيها عن حاجته، وتترك له الفرصة متاحة دائماً في أن يتوقف عن الرضاعة ليبتسم ويرتاح، وهو لا يُعنف عندما يُخرج فضلاته، ولا يُكره على السير إلا عندما يحين موعد سيره، ولا يُفطم إلا بعد أمد طويل. أما الطفل في قبيلة الموندوغومور فيربى على مبدأ العدوانية والتسلط، حيث يتم فطامه فجأة، ولا يُسمح له بالرضاعة من ثدي أمه إلا لفترة قصيرة جداً ويُطرد عن ثدي أمه في أي

---

[107] التربية إزاء تحديات التعصب والعنف . ص 68.

لحظة يتوقف فيها ليأخذ قسطاً من الراحة والأمهات يرضعن أطفالهن وقوفاً ويمنع الطفل أثناء ذلك من تحريك يديه و يبعد بسرعة إلى السلة الخشبية التي يوضع فيها، فحياة الطفل في هذه القبيلة مشحونة بالعنف والقهر والعناء ولحظات الرضاعة هي لحظات بؤس وشقاء، وهذا يكمن في أصل المظاهر الاغترابية لشخصية الموندوغومور." 108

وكثيرة هي التجارب التي تؤكد على تأثير العوامل الاجتماعية والثقافية على تنشئة الأطفال وتحديد سلوكهم في المستقبل، فالأسر في داخل المجتمع تنشئ أطفالها بطرق مختلفة وتغرس فيهم عادات وقيم مختلفة، فبعض المجتمعات التي تربي أطفالها على التنافس والعدوان ينشأ فيها الأفراد وهم يتسمون بسمات التنافس والعدوان، والمجتمعات التي تهتم بتربية أطفالها على التعاون والوداعة والمسالمة، يتسم أهلها بسمات التعاون والوداعة والمسالمة.

" إن الأفراد المحيطيين بالطفل لا يؤثرون فقط في مفهومه لذاته، وذاته المثالية، إنما يؤثرون أيضاً على نظرته العامة للأفراد الآخرين وهذا المفهوم يسمى أحياناً "بالآخر المعمم" generaliged other إن الآباء في سلوكهم نحو الآخرين وملاحظاتهم عن الأفراد خارج نطاق الأسرة يعطون الطفل معلومات موثقة عن كيفية إدراكه للغرباء وقد يُقدم الآباء أحيانا تعليمات مباشرة مثل "لا تثق بالناس كثيراً" هذا بالإضافة إلى أن الطفل غالباً ما يكون له خبراته المباشرة مع الآخرين وهذه المواجهات تُحدث تعديلاً لما قد تعلمه مباشرةً أو بصورة غير مباشرة داخل الكيان الأسري." 109

"الإنسان بطبيعته مسالم لا يميل إلى المقاتلة أو العدوان إلا إذا اعترضته عقبات في سبيل إشباع حاجاته الأساسية التي بدونها لا يستطيع الحياة. وإذا نظرنا إلى

---

[108] التربية إزاء تحديات التعصب والعنف، ص 70.

[109] سيكولوجية الشخصية ص 82 .

دافع المقاتلة والميل إلى العدوان نظرة اجتماعية نجد أنه يُكتسب في ظل البيئة التي يعيش فيها الفرد نتيجة احتكاكه بالجماعة التي يعيش فيها ، بما يتضمنه ذلك من احباط وقمع وصراع والإنسان من خلال عملية التنشئة الاجتماعية يكتسب ويتعلم أفضل أساليب التعبير عن هذا الدافع والتسامي به. وللثقافة والمجتمع تأثير في تحوير دافع المقاتلة مثلاً: في قبائل كواكيوتل kwakiutly (من الهنود الحمر في كندا بجزيرة مانكونر على ساحل كولومبيا البريطانية في المحيط الهادىء) تُحسم الخصومة بإقامة مباراة يقوم فيها كل من المتخاصمين بالتنازل عن قدر من ممتلكاته ومنحها للغير فمن تفوق على خصمه في هذا فهو الفائز المنتصر. وفي قبائل أخرى لا يضرب الفرد جسم الخصم حين يتشاجران بل يأخذ كل منهما عصا يضرب بها حجراً أو شجرة، فمن كُسرت عصاه قبل كان هو المنتصر. كذلك دلت بحوث علم الإنسان أن العدوان يكاد يكون لا أثر له في بعض القبائل مثل قبيلة الأرابيش في (نيو غينيا) التي يتسم أفرادها بالهدوء والدعة والمسالمة. بينما تسود روح العدوان في بعض القبائل مثل قبيلة موندوجيمور التي يتسم أفرادها بالخشونة والغلظة والشدة والعنف." [110]

وليس لأحد أن يلوم شخص تسود حياته اللاأخلاقية والغلظة إذا كانت هذه الصفات موجودة بين أبناء شعبه الذين تربى بينهم. فهذه الغلاظة والقسوة ليست بسبب التكوين البيولوجي لهذا الشخص إنما هي بسبب ظروف التنشئة.

---

[110] علم النفس الاجتماعي ، ص 117 .

الحالة الاقتصادية والعنف

إن تدهور المستوى الاقتصادي يثير سخط المواطنين الرازحين تحت وطأة الفقر، وتدهور المستوى الاقتصادي على علاقة مباشرة مع السياسات المتبعة في الدول، وتُعتبر التبعية للخارج من أكثر أسباب التدهور الاقتصادي، فالتبعية للدول الكبرى الغنية تؤمن النمو والربح للدول المصدرة على حساب الدول الفقيرة المستوردة.

وهل يمكن أن يكون للرأسمالية علاقة بالظاهرة الإجرامية، هذا الربط بين الظاهرة الإجرامية وبين الظروف الاقتصادية قام على أساس كتابات **ماركس** و **أنجلز** معتبرين أن الجريمة حصيلة فرعية للظروف الاقتصادية:" فعدم المساواة الاقتصادية وبمعنى آخر الرأسمالية هي العامل الأساسي في الجريمة التي تمثل رد الفعل لانعدام العدالة الاجتماعية. وقامت هذه المدرسة على أساس دراسات واقعية مبنية على الطرق الإحصائية، التي أوضحت تغير معدل الجريمة ومدى ارتباطه بالظروف الاقتصادية، وقررت أن لن تكون هناك جريمة في المجتمع الاشتراكي، ومع أن آراء هذه المدرسة استُمِدت من دراسات واقعية، إلا إنها مع ذلك توصف بكونها مدرسة علمية لأنها بدأت بعرض فروض عامة وجمعت عنها معلومات بطريقة مكنت الآخرين من إعادة العمل واختبار النتائج. وربطت هذه النظرية بين الظاهرة الإجرامية والحالة الاقتصادية، وقد دفع **بونجر** الهولندي (1876- 1940) بهذه النظرية إلى حدها الأقصى في كتابه (الجريمة والظروف الاقتصادية) ولقد عكس التطور الاقتصادي صداه على تطور الجريمة فالانتقال من الاقتصاد الزراعي إلى الاقتصاد الصناعي خلال القرن التاسع عشر صحبه انتقال من جرائم العنف إلى جرائم الذكاء. ولقد عزا بونجر الأفعال الإجرامية وخاصة الجرائم ضد الممتلكات إلى الفقر،

والعلاج يكون من خلال قيام مجتمع لا طبقي، ويقول بونجر أن نزعة الأنانية في الإنسان لا تؤدي بذاتها إلى جعله مجرماً، فلا بد أن يكون هناك شيء آخر، ويقول أن التاجر والحرامي يشبهان بعضهما من حيث أن كل منهما يسعى للحصول على المال، ويهتم بمصالحه الخاصة."[111] هذه العلاقة بين الفقر والإجرام لا تعني أن الفقراء مجرمين، ولكن نسبة عالية من جرائم الأغنياء تبقى طي الكتمان فهم يستطيعون إخفاء جرائمهم بما عندهم من مال أو نفوذ يمكنهم من الإفلات من العقاب.

" أكدت العديد من الدراسات أن سياسة الانفتاح الاقتصادي أثرت بشكل سلبي على الحياة والقيم السائدة، ومن تلك الدراسات ما توصلت إليه دراسة نجوى حافظ (1986) من أن العوامل الاقتصادية بما تتضمنه من غلاء وارتفاع الأسعار وأزمة السكن والدخول المتواضعة دفعت بالشباب إلى الهجرة، وإلى ظهور القيم السلبية مثل عدم الانتماء، واللامبالاة، وشيوع مظاهر الانحراف والرشوة. كما أكدت أن المشكلات الاقتصادية كان لها أثرها على إحباط الشباب وسلبياتهم وانعزالهم عن المجتمع. كذلك أوضح علي الدين هلال(1984) أن سياسة الانفتاح الاقتصادي قد أدت إلى التفسخ الاجتماعي الذي خلق مناخاً صالحاً لنمو الرأسمالية الطفيلية التي تروج للغريزة دون العقل وتغذي بالتالي قيماً انحلالية وازدواجية ثقافية وحالة من الاغتراب بين الشباب، ودفع البعض إلى الفكر المتطرف وانتشار العنف. وأجرى أحمد العتيق وحاتم أحمد (1995) دراسة اهتمت بتحديد عوامل البيئة الفيزيائية والاجتماعية المهيأة للسلوك العنيف عند الشباب، وتكونت عينة الدراسة من 700 شاب وفتاة، 300 من شباب الجامعات، و 400 من مراكز الشباب، بلغ متوسط أعمارهم 23 عاماً، كما بلغ متوسط الازدحام في الغرفة التي يقطن فيها أفراد

---

[111] مبحث الجريمة ص 44- ص 71.

العينة 3,4 في حين بلغ متوسط حجم الأسرة 6,3 أفراد. تم تطبيق مقياس تحليل البيئة الاجتماعية والمادية للشباب ومقياس احتمالية السلوك العنيف. وقد أسفرت النتائج عن أن 28٪ منهم يعانون من مشكلات مادية متوسطة. كما أشارت النتائج إلى وجود علاقات ارتباطيه موجبة دالة بين انخفاض المستوى الاقتصادي واحتمالية العنف. وقد أسفرت نتائج الدراسة عن أن سوء التوافق الأسري يترتب عليه انخفاض المساندة الاجتماعية والنفسية للأبناء، ويمثل ذلك حرماناً نسبياً من شأنه أن يزيد من احتمالية العنف لدى الأبناء الشباب." [112]

كما قام إليكسون فيليس وآخرون (1998) بدراسة موضوعها بروفيلات العنف لدى الشباب: إدمان المخدرات ومشكلات أخرى متزامنة. مستخدماً مجموعات من بين طلاب 4500 مدرسة ثانوية سواء من المنتظمين بها أو ممن لم يستكملوا دراساتهم بولاية كاليفورنيا. وذلك بهدف تحديد سلوكيات العنف ومشكلات الصحة العامة والمشكلات السلوكية العاطفية وقد أسفرت نتائج الدراسة عن أن أكثر من نسبة 50 ٪ من أفراد العينة تورطوا في سلوكيات عنف وأكثر من 25 ٪ من أفراد نفس العينة ارتكبوا جرائم كإدمان المخدرات والاتجار بها. كذلك أظهرت النتائج أن الشباب الذين اتصفوا بسلوكيات وجرائم العنف مقارنة بنظرائهم العاديين يعانون من مشكلات تدني المستوى المادي، والتحصيل الأكاديمي وضعف العمليات العقلية." [113]

والثقافة في هذا الإطار، لا تعني القراءة ودروس الرياضيات وغيرها من المواد العلمية فقط، بقدر ما تعني نشر التوعية والتركيز على الأخلاق بالدرجة الأولى. والأكثر من ذلك فإن بعض المؤسسات التعليمية لا يعنيها إلا دفع

---

[112] العنف لدى الشباب الجامعي ص 36 – 38.

[113] العنف لدى الشباب الجامعي. ص، 40.

الأقساط وتحقيق الأرباح. وهكذا تكون الثقافة غير مكتملة ويمكن تحميلها جزء من مسؤولية الجهل، ولا يمكن للأفراد القيام بعمليات التغيير دون المساندة الثقافية، للحد من الانزلاق في بؤر الفساد. مثلاً: السعي خلف المكاسب السريعة قد يدفع ببعض الجشعين إلى طرق ملتوية وخطيرة، كتجارة المخدرات مثلاً، أو الترويج لها، فالإدمان والغش والسرقة وغيرها من مظاهر الانحلال الأخلاقي، كلها مؤشرات تنذر بخطر انتشار العنف والجرائم داخل المجتمعات. ورغم هذه الحقيقة لا تعمل معظم المؤسسات الإعلامية، أو التربوية على وضع حد لمظاهر التسيب. ومثالٌ آخر على ذلك: الإسراف عند بعض الطلاب: فالطالب المسرف سيكون بمثابة الصدمة لرفاقه الغير قادرين على مجاراته، فالتأثير المباشر لظاهرة الحسد، أو الغيرة يدفع ببعض الناس نحو التقليد الأعمى لأشخاص من حوله لديهم قدرات مادية لا يستطيع امتلاكها، أو يحاول تقليد مجتمعات لا يعرفها إلا من خلال الإعلام، الذي يصورها وكأنها أساطير، وهذا ما فعلته معظم الدول المتطورة كفرنسا، وأمريكا، وبريطانيا، رغم وجود طبقات محرومة ومعدمة من أبنائها الأصليين تعيش بين الأزقة وعلى الأرصفة، وهذا الترويج لمظاهر الرخاء والترف والبيوت الراقية المريحة، تجعل من الطبقات المحرومة التي لا تملك أدنى مستويات الاستقرار أو الراحة، أو العمل، تجعلهم يحسدون الأغنياء، وهذا الحسد المدمر يمثل بركاناً من الحمم قد ينفجر في أي فرصة أمام هؤلاء المترفين. وهذا العنف الناتج عن الكراهية،أو الأنانية يدفع باتجاه إيذاء الآخرين وتدميرهم. ومما لا شك فيه أن كميات كبيرة من الأسلحة الرخيصة كالمسدسات والرشاشات موجودة ومن السهل الحصول عليها في هذه المجتمعات الراقية، مما تجعل الكثيرين عرضة للعنف. ولا يمكن تجاهل إحدى أهم الظواهر المرتبطة بالعنف وهي ظاهرة السأم. "فالحقيقة الصعبة على

حد تعبير محللي السأم، تكمن في عد العنف متعة- الموصوفة بالمتعة الماسوشية، (أي التلذذ بإيلام الآخرين).- وإنجازاً وشكلاً من الإثارة التي تدغدغ ليس مخيلة الضحايا وحسب، بل المعتدين وشهود عيان أعمال العنف أيضاً؛ أحياناً، يُعد الأفراد العنيفون المنفردون بضحاياهم تسلية، كما في الحالة (التي وصفها آرثر ميلر) لشاب لا يستطيع التأقلم مع مجتمعه، "أعياه السأم، منغمس فيه وملتزم به حتى ينتشي لدقيقتين أو ثلاث؛ فيقوم بغزوة قريبة ويشعر بإثارة المجازفة بجلده أو حياته وهو يهشم زجاجة مملوءة بالنفط على رأس طفل ما. وتعد نظريات السأم من العنف مثيرة للاهتمام، لكن انطلاقاً من صفتها العرضية تتجاهل دينامية النفس البشرية والمؤسسات الاجتماعية؛ إذ يتضح أنها استفزازية أكثر منها مقنعة، وإن التفسيرات التي تنسب العنف إلى الانفتاح والتعددية المميزة للمجتمعات المدنية تصيب عين الحقيقة." [114]

الإعلام والعنف

في عصرنا، عصر العولمة، مسيرة التطور سريعة، والمجتمعات لم تعد مغلقة، ولا مجال للتعتيم على الفتن. وللإعلام في هذا العصر قدرة فائقة على تشكيل وعي الإنسان.

" في العولمة يرتبط الإنسان بالفضاء الكوني ارتباطاً أسطورياً، والفضاء الإلكتروني يشكل اليوم أذواق البشر وقيمهم وعاداتهم واهتماماتهم، ويعتمد هذا الفضاء أكثر النظريات العلمية تطورا في محاصرة إدراك البشر ووعيهم. وتعتمد العولمة الفضائية في عملية السيطرة على وعي البشر وسائل خفية

[114] العنف والديمقراطية، ص 105.

مستترة وعلنية مضمرة، مباشرة وغير مباشرة شعورية ولا شعورية، ذكية ومتناهية الذكاء، قادرة وبالغة الاقتدار، وذلك من أجل محاصرة وعي الإنسان وتصفية قدراته النقدية ومن ثم استلابه وتوظيفه في خدمة التسليع الاقتصادي والسلعة. وتتمثل التحديات الإعلامية للعولمة في نزعة السيطرة على الإدراك وتعطيل فاعلية العقل، وتكييف المنطق، والتشويش على نظام القيم، وتوجيه الخيال، وتنميط الذوق، وقولبة السلوك، وتكثيف نوع معين من السلع والمعارف عبر ثقافة الاختراق الإعلامي، التي تهدف إلى التطبيع والهيمنة واختراق الهوية وتعليب الثقافة." [115]

ولكن مما لا شك فيه أن وسائل الإعلام لها الكثير من الإيجابيات، وهي تعبر عن مجمل آراء المجتمع وتسلط الأضواء على المشاكل الاجتماعية وتقوم بنشر الثقافة. ولكن الإعلام اليوم صار سياسياً بالدرجة الأولى ويستخدم لأغراض عسكرية وسياسية، أكثر مما يُستخدم لأغراض اجتماعية. وإذا كانت السياسة ترتكز على التحريض والشعارات، فالقوة اللغوية أحياناً تحاكي العنف، فتفعل وتدمر كما السلاح، حين تسيطر على عقول الناس ومشاعرهم.

ومن الواضح أن هناك الكثير من وسائل الإعلام لا تخضع لرقابة، وبالتالي لا تنمي القارئ أو المستمع أو المشاهد على حب الفضيلة وتجنب الانحراف، بل تعمل في بعض الأحيان على التفرقة وإثارة الشهوات والعنف. ومن أهم وسائل الإعلام التلفزيون الذي يدخل كل بيت، وله قدرة للتأثير من خلال الصوت والصورة على كافة الفئات الاجتماعية، وهو الوسيلة الأكثر تأثيراً في التغيير بالنسبة للمجتمعات،رغم المنافسة القوية له من خلال منظومة شبكات الاتصالات والمواصلات الحديثة والأنترنت. أما تأثير باقي وسائل الإعلام

---

[115] مجلة عالم الفكر العدد 36، ص 343.

كالصحف والكتب والمجلات فقد تراجع أمام تأثير التلفزيون. وتتصف بعض المحطات بالموضوعية، وتتبع سياسات حكيمة تعمل على التهدئة، بينما تعمل محطات أخرى على التحريض والدفع باتجاه الفتنة لأسباب وغايات سياسية. ومعظم النزاعات المسلحة تعتمد على الدعاية، ومن وسائل الدعاية الشعارات التي تؤثر تأثيراً بالغاً على الجماهير؛ وخاصة الجماهير الغوغائية الجاهلة؛ "كما أشار الكاتب الفرنسي "آلان مينك" أن الجماهير المغفلة أو ما نسميه بالحشود الغوغائية المحدودة الفكر والمغسولة الدماغ التي تحطم كل شيء وكأنها في حالة تنويم مغناطيسي لعدم وجود أي فكر لديها أو تنظيم أو برنامج ثوري ترمي الوصول إليه، بل هي كالسيل تحطم في طريقها كل شيء لتصب في المحيط بدون أي فائدة سوى نشر الخراب والدمار." [116]

وكثيرة في هذه الأيام هي الوسائل التي تعمل للتأثير على اللاوعي الجمعي، و بعض وسائل الإعلام المغرضة لا تكتفي بعرض المشاهد التي تناسبها بل تقوم بتزييف وقلب الحقائق التي لا تناسبها، كما تعمل على إشغال الناس ببعض المسائل الجانبية التي تُبعد الأنظار عن الأحداث الفاعلة، وبذلك تشغل المتلقي وتمنعه من التحليل لمعرفة مدى دقة المشاهد التي تظهر أمامه. "وحسب "لوهمان" هناك فرق بين المعلومة وبين الفهم، فالمعلومة هي معالجة اختيارية للاختلافات، إنها ليست إرسالاً، والإخبار أحد مكونات التواصل، والفهم يتأسس على التواصل وليس على الوعي. فالتواصل حراك محرك ومتحرك باتجاهين وله أساليبه وأهدافه، وأي حراك من حيث هو اسم صفة لفعل اجتماعي وفعل بالوقت نفسه، لا بد أن يأتي ذاتياً، أو نتيجة التأثر بالآخر ليصبح تحريكا،

[116] مجلة الفكر السياسي ، العدد 45، ص 93.

فالمتحرك ليس بالضرورة أن يفهم المعلومة، إنما الأهم أن يؤديها، وهنا يبقى في دائرة المستقبل والمتأثر فقط." [117]

ولهذا ينصب اهتمام رجال السياسة في الظهور على الرأي العام من خلال الإعلام بأفضل صورة، وكل سياسي يسعى للحصول على الكلمات المناسبة لتجريد خصمه من مكتسباته، ويعمل على مواجهة شعاراته والاستيلاء عليها ليحاربه بنفس سلاحه.

فاللغة الإعلامية تفعل وتدمر كما يفعل السلاح، وأحياناً أكثر منه، لتصل إلى حد تدمير القيم والنفوس، فالكلام المؤثر يتغلغل إلى العواطف ويكون له تأثير يشبه تأثير السحر. " وليس غريباً أن تأتي نتائج الثورات سريعة، ومتسرعة أحياناً! لأنها عادة ما تقلب الأوضاع رأساً على عقب، إما للأمام باتجاه مصالح المجتمع، وإما للوراء ضد مصالحه. وتعامل الإعلام مع الجماهير يتجه دائماً إلى هدف أو أكثر يُقصد منها تكوين آراء ومواقف عند المتلقين عن طريق الإقناع بالقضايا التي يعرضها ومنها ما يكون صائباً وحقيقياً، ومنها ما يريد الإعلام خلقها وتكوينها." [118] " وهنا يبرز سؤال مهم لا بد من التنبيه إلى خطورته: ما هي الوسائل التي تساعد هذه الجماهير، على أن تعي وتفهم ما حولها؟ أليس غريباً أن الوطن العربي يتلقى توجيهه السياسي وإعلامه ومعلوماته فضلاً عن صحافته المقيدة وتلفزيوناته المخترقة ومشكلاته الغذائية من ثلاث محطات إذاعية أجنبية: مونت كارلو، والإذاعة البريطانية، وصوت أمريكا، وهي في غنى عن التعريف! أليست هذه هي القوى الموجهة للرأي العام العربي؟ ومعنى ذلك أن الرأي العام العربي بحاجة الطلائع المثقفة منه- وهو فاقد الثقة فيما حوله، ويعيش في نمط حياة واستهلاك غريب جداً على مرحلة تطوره – حتى

---

[117] دور الإعلام في التغيير والحراك الاجتماعي، ص 63.

[118] دور الإعلام في التغيير والحراك الاجتماعي، ص، 21- ص 59.

عندما تواتيه لحظات "الصحوة" فإنه يلجأ إلى هذه الجهات ليتلقى أخباره ومعلوماته." [119]

" وتسير أغلب الفضائيات العربية في نسق فعاليتها الإعلامية على النهج العولمي للشركات الاقتصادية الكبرى في ترويج السلع وبيع الأحلام والإثارة والمتعة والنجومية والبورصة والحظ والثروة والحظوة، ومن المدهش أن وسائط التلفزة الفضائية العربية لا تقل خطراً و همجية عن الوسائط الغربية والصهيونية أحياناً، في قتل الروح النقدية عند الطفل وترويج الخرافات، وتعزيز القيم الاستهلاكية، والترويج لكل مفاهيم العنصرية والطائفية والعشائرية. ولا يمكن تجاهل دور الأنترنت في المجتمعات العربية الذي يدخل البعض في متاهات التعصب والفضائح والكراهية." [120]

وهذا الإعلام الموجه يعمل دائماً على تحريك المشاعر ويحاكي الميول وبعض الرغبات، ويفتح الباب أمام البغضاء، خاصة حين يعمل على تصوير الآخر كأنه وباء علينا التخلص منه. والمحصلة دائماً المزيد من العنف المزيد من القتل من التهديد والتحريض. ولكن كيف يمكن تحقيق التعاون بين الدول العربية لوقف هذه الهجمة الغربية؟ وهل يمكن لجامعة الدول العربية القيام بهذه المهمة؟ عام 1944 عقد اجتماع تحضيري في الإسكندرية استعرض فيه المجتمعون اقتراحات ثلاثة وهي قيام وحدة عربية و إقامة اتحاد فدرالي وقيام جامعة تضم الدول العربية المستقلة. وفي 7 تشرين الأول صدر بروتوكول الإسكندرية الذي تضمن الأسس التي تقوم عليها جامعة الدول العربية. ومن أهداف جامعة الدول العربية **السعي لاستتباب الأمن بين الدول الأعضاء من أي عدوان خارجي، وعدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول الأعضاء واحترام**

[119] جامعة الدول العربية، عالم المعرفة العدد 299، ص 154.

[120] مجلة عالم الفكر العدد 36، ص 343.

استقلال وسيادة هذه الدول، وحل النزاعات بالطرق السلمية. ولكن مواقف الجامعة العربية لم تكن فعالة في معظم القضايا المصيرية، بسبب الخضوع لإرادات البيئة الدولية، وشكلت الجامعة حلفاً مع الغرب في كثير من القضايا المصيرية العربية، منها قضية فلسطين. ففي عام 1950 لم تستطع الجامعة العربية اتخاذ قرار بحق الأردن حول أزمة الضفة الغربية ومسألة فلسطين. وفي عام 1961 أثر إعلان استقلال الكويت أعلن الرئيس العراقي عبد الكريم قاسم ضم الكويت وإلحاقها بمحافظة البصرة. عندها تحرك الأمين العام للجامعة وأرسل قوات عربية إلى منطقة النزاع. وخلال الحرب الأهلية اللبنانية 1975 واكبت الجامعة الأحداث منذ اليوم الأول لاندلاعها وأرسلت قوات حفظ السلام العربية وقوات الردع العربية ولكن جهود العرب فشلت لحل الأزمة اللبنانية بسبب الأبعاد الإقليمية.[121] وكذلك في مسألة النزاع على الحدود بين المغرب والجزائر، وحرب اليمن في الستينات. "وقد انتهت الجامعة واقعاً وعملاً إلى تغليب الدبلوماسية على حساب القانون، بما يضمن محاولة التوفيق بين المواقف المتعارضة وتهدئتها أكثر من الحرص على فض المنازعات وتسويتها. والأكثر من ذلك أنه في حال عجز الجامعة عن إيجاد الإجماع اللازم لمواجهة العدوان الواقع على إحدى الدول الأعضاء في الجامعة يفتح الباب واسعاً أمام التدخل الأجنبي بدعوى المحافظة على السلام العالمي."[122]

"وفي عام 1973 أثناء حرب تشرين بين إسرائيل والدول العربية قامت دول الأوبيك بفرض حظر نفطي على الغرب في سبيل دعم القضية العربية، ولكن الغرب تجاوز هذا الحضر بمجموعة من الإجراءات أولها تخفيض قيمة الدولار بالنسبة للذهب ما أفقد رفع سعر النفط أهميته، وثانياً لعبت هذه الدول على

[121] راجع: النزاعات الإقليمية في نصف قرن.

[122] جامعة الدول العربية، عالم المعرفة، ص 179.

التناقضات الداخلية داخل الدول العربية. وهكذا قضى الملك فيصل في السعودية على يد أحد أفراد العائلة المالكة. ثم استدراج مصر إلى مباحثات ثنائية انتهت بتوقيع اتفاقية سلام مع إسرائيل سنة 1979." [123]

وهذا الرضوخ للسياسة الخارجية والتناقض في مواقف الجامعة كان السبب المباشر في أزمة الثقة بين الرأي العام العربي، فميثاق الجامعة لم يحقق الأماني القومية العربية. ولم يشر ميثاقها إلى أي تعاون إعلامي يخدم القضايا العربية. وإذا كانت معظم هذه الأنظمة تتبع في سياساتها الولاء لشخص الحاكم أكثر من الولاء للدولة فإن أي خلاف مع الحاكم أو أي نقد له يُصنف على أنه خلاف مع الدولة. بالإضافة إلى ذلك فإن القائم على رأس الدولة يتمتع بنفوذ هائل فيجمع ما بين السلطات التشريعية والتنفيذية، رغم عدم وجود الخبرة السياسية، فمعظم النخب السياسية العربية غير متجددة، وتطبق القوانين بطريقة انتقائية وعشوائية في سياساتها مما ينعكس سلباً على التوجهات الأساسية للدولة. ومن أخطر الأمور هو الاختراق الغربي عن طريق الإعلام العربي لكثير من القيم السائدة في مجتمعاتنا، وتعمل هذه الوكالات على تصوير الغرب بأنه الفردوس على وجه الأرض، وهذا الاختراق يتم عبر وسائل إعلام مغرضة، وأفكار يتم الترويج لها من منطلق حرية الرأي. ولا يقتصر الضرر على تغيير التوجهات السياسية للجماعات، بل يطال الأفراد بكل ما يتعلق بحياتهم العائلية والمهنية والثقافية. فكيف يمكن للمجتمعات العربية أن تتناسى القيم ألأخلاقية التي تتحلى بها ، وتنشغل بأمور لا طائل منها كمتابعة عرض أفلام العنف والقتل الأجنبية، أو تلك المجادلات السياسية التحريضية، أو غيرها من البرامج السخيفة التي لا تحصى. وهذا الواقع جعل من العرب

[123] النزاعات الإقليمية، ص 114.

أسرى لما هو خارج عن كينونتهم الذاتية المتميزة، فأين الصوت العربي والفكر العربي الحر وإبداعه، لا صوت الغرب ولغة الغرب وإبداعات الغرب. هذه الحرية الإعلامية التي يطلقون شعاراتها اليوم، هي من أبرز وجوه الاستعباد، وهذا الإعلام المُغرض هو الوجه الآخر لسلاح الدمار، وهو يعمل على تقويض الحضارات وتعطيل الإبداع، وتبرير العنف والإدمان.

" هناك أدلة على أن التوسع والتركيز على نشر أخبار العنف في أجهزة الإعلام يثير النزاعات العدائية لدى الأشخاص... وفي دراسة حقلية أفسح الباحثون المجال لعدد من الأشخاص من مواضيع الدراسة ليشاهدوا على مدى أسابيع عدداً من البرامج التلفزيونية التي تميز بعضها بالعنف وجرت مراقبة سلوك هؤلاء الأشخاص في بيئاتهم الطبيعية للتأكد بما إذا كان مستوى العنف لديهم يتغير كنتيجة لمشاهداتهم. وقد أجرى الباحثون هذه الدراسات في سلسلة من الاختبارات الطبيعية الهادفة إلى مراقبة سلوك الفتيان الجانحين في المؤسسات الإصلاحية في الولايات المتحدة الأمريكية وبلجيكا، وبالنتيجة وفرت هذه الدراسة الدعم للفرضية القائلة بأن مشاهدة أفلام العنف يمكن أن تؤدي إلى ممارسة السلوك العدائي، فالفتيان الذين شاهدوا الأفلام العنيفة أظهروا من السلوك العدائي ما يفوق كماً ونوعاً ما أظهره الفتيان الذين شاهدوا الأفلام غير العنيفة" [124]. ولكن هناك دراسات تبين أن مشاهدة أفلام العنف يمكن أن تؤدي إلى تخفيض ميل المشاهد للتصرف بعدائية.

"وقد تركز تبرير الباحثين لنتائج بحثهم على مفهوم الأثر التنفيسي فإن الشخص الذي يشاهد العنف المتلفز يمر بتجربة العنف بشكل تعويضي من خلال تماثله مع الممثل على الشاشة، فيطلق بهذا الغضب الحبيس والمشاعر

---

[124] العدائية ، ص 106

العدائية الدفينة بدون أن ينخرط في أعمال العنف في الواقع." [125]. " كذلك فهناك عدد من العوامل التي تؤثر في نتائج مشاهدة العنف المتلفز، فعلى الصعيد الفردي مثلاً، تحمل دراسات "لبيركويتيز" و"باندورا" معلومات مهمة في هذا الخصوص فقد استنتجت هذه الدراسات أن الناس يتصرفون بعدائية أكبر بعد مشاهدة برنامج عنيف فقط إذا كان هؤلاء الناس غاضبين أو محبطين أصلاً، وأن محتوى البرنامج نفسه ليس له أثر موحد ومتناسق على كل المشاهدين." [126]

وأخيراً يمكن القول أن حرية الإعلام هو كلام بعيد عن الصواب، ولا يحق لأي كان أن يتكلم خاصةً إذا كان يحمل أفكارا مضللة، أو مواضيع غير مجدية. ولا يحق لأي شركة أن تعرض أفلاماً مسيئة. فصورة الحدث تفرض نفسها على المشاهد أينما كان، حتى ولو كان هذا الحدث لا يعنيه.

العدالة

" في "العادلون" يطرح **كامو** السؤال: " أينبغي اليوم أن تسيل أنهار من الدم لكي يمكن غداً إقامة العدالة، وهل يتعين علينا أن نُصبح قتلة ليكون عندنا نظام اجتماعي أفضل." هل يُفترض المرور بالتنكيل وبطرائق التصفية حتى يتمكن أولئك الذين سيبقون أحياء من العيش الأفضل؟" [127]

العدالة القانونية.

جون لوك يقول: يبدأ الطغيان وإلحاق الأذى بالآخرين عندما تنتهي سلطة القانون.

---

[125] نفس المرجع ص 108

[126] نفس المرجع ص 111

[127] سيكولوجية التعصب، ص 52.

فـلا يمكـن لأي مجتمـع أن يكـون متحضـرا مـا لم يكـون قائمـاً علـى مبـادئ القـانون. "ويعـرف العـدل بأنـه الإرادة الراسـخة والدائمـة لاحـترام كـل الحقـوق وأداء كل الواجبات." [128]

هل العقوبات القاسية تحول دون ارتكاب الأفعال الخطيرة والجرائم؟

"تعد القوة دون العدل استبداداً، والعدل دون القوة تناقضاً، إذ ثمة أشـرار دومـاً؛ أما القوة دون العدل متهمة بالظلم، فمن الضروري وضع العـدل والقـوة في بوتقـة واحدة، ولذلك ضمان مـا هـو عـادل أن يكـون قويـاً، أو مـا هـو قـوي أن يكـون عادلاً. ويستقي **دريدا** من **باسكال** الملاحظة القائلة أن العنف والقـانون توأمـان، ثـم يحـول تلـك النظريـة المطروحـة إلى الـزعم التوليـدي القائـل برعايـة ممارسـة العنـف الدائمـة لـبروز أنظمـة القـانون والعـدل في أي وسـط، فبغيـاب العنـف، لا وجود للأحكام القانونية، ولا للعدالة." [129]

وهنـاك فـرق بـين السـلطة والقـوة. " يـرى جـاك مارتيـان أن علينـا أن نفـرق بـين السـلطة والقـوة، فـالقوة هـي الـتي بواسـطتها تسـتطيع أن تجـبر الآخـرين علـى طاعتـك، في حـين أن السـلطة هـي الحـق في أن توجـه الآخـرين أو أن تـأمرهم بالاستماع إليك وطاعتك، والسلطة تتطلب قوة، غير أن القوة بـلا سـلطة ظلم واستبداد، وهكذا فإن السلطة تعني الحق." [130]

"وليس العنف مجرد نتاج عقل "شرير" على الإطلاق، كما اعتاد القضـاة قولـه، ولا يمكن تصنيفه وفق المفهوم القانوني "للجنـون"، الأمـر الـذي يحـط مـن شـأن الشخص العنيف إلى مصاف حيوان أو شيء عاجز عن التقدير أو المسـؤولية عـن تصرفاته الذاتية. فالسلوك بمجمله بما فيه السلوك العنيف، سواء صُنف "سيئاً" أو "جنونيـاً" ذو مغـذى مـن الناحيـة النفسـية، لكـن مـا لم يُفهـم لا يمكـن

---

[128] الأخلاق النظرية، ص 165.

[129] العنف والديمقراطية، ص 185.

[130] الطاغية، ص 56.

منعه." [131] ولهذا كان من واجب العدالة عدم الاستخفاف بمخاطر التسلط والإذلال والتشرد.

مع العدل يصبح العنف ضعيفاً. "وكثيراً ما يتم الخلط بين العدل وبين تطبيق القانون ويظن أن العدل بالمعنى الأخلاقي هو العدل بالمعنى القانوني. إن العدل القانوني لا يكون عدلاً أخلاقياً إلا إذا كان القانون نفسه مطابقاً للعدل الأخلاقي، وهو أمر قد يحدث وقد لا يحدث، أو هو غالباً لا يحدث. لأن القانون من وضع السلطة المسيطرة على الحكم وهي غالباً ما تسعى إلى صيانة سيطرتها، فهي تشرع لصالح نفسها لا لصالح المجموع. وحتى لو شرعت لصالح الغالبية، كما هي الحال في النظام الديمقراطي السليم، فإن هذا التشريع يظلم قطاعات قد تكون كبيرة تكاد تصل إلى النصف من المجتمع. ويكفي المرء أن يلقي نظرة عامة على تاريخ النظام القضائي ليدرك ضعف، بل وأحياناً انقطاع العلاقة بين العدل الأخلاقي والعدل القانوني.

ويفرق القديس **توما الأكويني** بين العدالة التوزيعية، والعدالة التعويضية، فالعدالة التوزيعية تنظم العلاقات بين الناس، من حيث توزيع الثروات والخيرات العامة، أما العدالة التعويضية تتمثل في احترام الأشخاص، واحترام الحق، والوفاء بالوعود والعقود والاعتراف بالجميل. وبما أن العدل الاجتماعي لا يهدف، ولا يمكن أن يسعى إلى القضاء على الفوارق الطبيعية بين الناس، وكل ما يستطيع هو الحد من إساءة استعمال هذه الفوارق، وتنظيم الخيرات المشتركة. فالفوارق الطبيعية بين الناس: في الذكاء، والقوة، والجمال، والطباع – أمور لا يمكن القضاء عليها، وهي بدورها تجر إلى فوارق أخرى: مثل الفروق في الثراء، وفي النجاح الاجتماعي، وفي النفوذ السياسي، وفي الشهرة بين الناس، وفي تحصيل المناصب الرفيعة، والمكانة الاجتماعية

---

[131] العنف والديمقرلطية، ص 184.

المرموقة. إن ما يسعى إليه العدل الاجتماعي الحق هو أن يعوض عن الضعف وعن الهزيمة وعن قلة الحيلة تجاه القوة والغلبة والاحتيال. وبفضل العدل يصير العنف ضعيفاً، واهي السلطان، متوتراً، مقسوراً." [132]

---

[132] الأخلاق النظرية، ص 169- 170.

الفصل السابع

الغذاء والعنف

الحرية الحقيقية هي عندما يحقق الشعب اكتفائه الذاتي من الغذاء والدواء، فدول العالم الثالث خاضعة لتحكم المستوردين الأجانب، ونقص الغذاء في بعض دول العالم هو نتيجة سوء توزيع الغذاء وليس بسبب ندرة الغذاء.

وهذه الدول تتراجع دائماً على المستوى الاقتصادي بسبب سيطرة شركات تتحكم بتصنيع واستيراد الأغذية والأدوية، وهذه السيطرة تزيد من أعداد الفقراء. "إن جميع ما نشتريه أو نستخدمه من بضائع - بترولنا والأدوية التي يصفها لنا الأطباء، والأشياء الضرورية مثل الماء، ووسائل المواصلات، والصحة، والتعليم،وحتى حواسب المدرسة، والمحاصيل التي تُزرع في الحقول المحيطة بمجتمعاتنا كل هذا يزداد تحكم الشركات فيها، وهذه الشركات وبحسب هواها قد تغذينا أو تدعمنا أو تخنقنا... هذه هي السيطرة الصامتة- العالم في صبيحة الألف الجديدة حيث أيدي الحكومات تبدو مقيدة... والشركات الكبرى هي التي تحدد قواعد اللعبة... وفي هذه الأثناء يُلقى جانباً بالعدالة والإنصاف والحقوق والبيئة وحتى قضايا الأمن الوطني، وخذ مثلاً: حالة طالبان – لقد ظلت الولايات المتحدة تدعمها حتى العام 1997 بسبب مصالح شركات النفط الأمريكية. وذلك على الرغم من سجل النظام الكئيب هناك في مجال حقوق الإنسان، وأصبحت العدالة الاجتماعية تعني الوصول إلى الأسواق." [133]

---

[133] السيطرة الصامتة، العدد 336 ص 14- 15.

هل يمكن القول أن النقص في الغذاء أو المجاعات ستؤدي إلى انتشار أعمال العنف؟.

عندما تستطيع الدول أن تتحكم في اقتصادها وعلى الأخص منتجاتها الغذائية لن يكون هناك مجاعة على الإطلاق. ونقص الغذاء في العالم هو وهم وليس حقيقة. "فالعالم اليوم يُنتج كمية من الحبوب كفيلة بتأمين 3600 وحدة حرارية يومياً لكل إنسان على الأرض، وهذا كافٍ لتسمين معظم الناس، ومعدلات زيادة إنتاج الطعام قد فاقت معدلات الزيادة السكانية بما لا يقل عن 16 ٪." [134]؛ فالهند مثلاً تحتل المرتبة الأولى بين دول العالم الثالث من حيث تصدير الغذاء بينما يعاني 300 مليون مواطن من المجاعة. وبنغلادش حسب الإحصاءات الرسمية تستطيع أن تؤمن 2064 وحدة حرارية لكل مواطن من إنتاج الأرز، بالإضافة إلى الخضار والفاكهة والألياف التي يمكنها أن تقضي على المجاعة في هذا البلد، وفي إفريقيا سيدهش الكثيرون أن يعرفوا أن إفريقيا تصدر طعاماً أكثر مما تستورد، وتعتبر دول جنوب إفريقيا دول مصدرة للمواد الغذائية بينما يموت 000، 50 ألف طفل أسود سنوياً بسبب مشاكل الجوع، ويقع اللوم في سوء استخدام قدرات إفريقيا على المستعمرين، والحكومات الإفريقية تخصص أقل من 10٪ من ميزانيتها للزراعة في الوقت الذي تهدر فيه نسب كبيرة من النفقات على قواها العسكرية.

والادعاء بأن المجاعة في دول غرب إفريقيا في بداية السبعينات كان سببها الجفاف غير صحيحاً، لأن تقريراً نشرته الفاو (منظمة الأمم المتحدة للغذاء والزراعة) يفيد بأن كل واحدة من دول غرب إفريقيا الساحلية أنتجت ما يكفي من الحبوب لإطعام مواطنيها حتى خلال سنوات المجاعة، ومن الملاحظ

[134] الجوع في العالم، ص 13.

أن صادرات منطقة الساحل الغربي ازدادت خلال سنوات الجفاف، وكان الفلاحون الفقراء أكثر الناس معاناة، لقد أُجبروا على بيع محاصيلهم بأسعار بخسة لتسديد ديونهم للفلاحين الأغنياء.

وفي العام 1985مأساة أثيوبيا كانت من صنع الإنسان فإن تمليك الأرض للفلاحين لم يكن على سلم أوليات الحكومة العسكرية، فالمجاعة التي ضربت البلاد سببها الإقطاع، بينما ابتلع الإنفاق العسكري عام 1984 حوالي نصف الميزانية العامة. كما استوردت حكومة أثيوبيا بين عامي 1976 و 1980 أسلحة ب 20 مليار دولار، وكانت الولايات المتحدة تزيد من تسليح الصومال في تلك الفترة في إطار سباق النفوذ على إفريقيا ولم تلبث أن اندلعت الحرب بين أثيوبيا والصومال عام 1978 وهذه السياسة الداعمة للصومال أعطت الحجة لحكومة أثيوبيا كي تزيد الإنفاق العسكري وتخفيض الدعم للزراعة... وحتى الحقول المتبقية قام بعض الثوار بقصفها وحرقها. فمن المؤكد أن الأسباب الأساسية للجوع في هذه الدول هي من صنع الإنسان ويمكن معالجتها. [135]

" ولنأخذ تجربة ولاية "كيرالا" الهندية، تدل معدلات الوفيات والولادات على أن كيرالا هي أقل المناطق جوعاً في الهند، لأنها حولت المزارعين من مستأجرين إلى ملاكين، ولو لمساحات صغيرة. كما أن الحبوب وغيرها من السلع الأساسية لا تُعتبر مجرد سلع تجارية تُباع لمن يدفع أكثر، بل تُبقي أسعار الطعام منخفضة.

وفي المجتمع السويدي قرر السويديون منذ وقت طويل أن الزراعة والطعام أهم من أن يُتركا للسوق وحدها، ففي السويد لا يحق إلا للفلاحين العاملين امتلاك الأراضي، كما أن الأسعار تخضع للمراقبة كي لا ترتفع كثيراً

---

[135] الجوع في العالم أنظر الصفحات 14- 15- 16- 25.

وتُخرج العائلات الزراعية من دائرة المنافسة، أكثر من ذلك لا يسمح لأسعار الأغذية بالتغير مع تقلبات السوق وذلك لحماية العائلات المزارعة. والتخفيف من حدة الجوع في مدن المكسيك في السبعينات لم يكن سببه زيادة الإنتاج، بل دعم الحكومة للسلع الاستهلاكية لتأمين قدرة الفقراء على شراء الطعام." [136]

ولم تكن التجارة الحرة هي الحل للتخفيف من مشاكل الجوع، لأن السوق العالمية تتحكم بها طبقة من التجار، وهذه التجارة تحول أكثر الناس أفقر من أن يشتروا طعاماً مزروعاً على أرضهم فالخضار والحبوب واللحوم كلها سلع تُشحن إلى خارج العالم الثالث، ولا يُمكن تجاهل الأجور الزهيدة التي يتقاضاها المزارع في معظم دول العالم الثالث، مثلاً العامل في حقول الموز في الفيليبين لا يحصل على أكثر من دولار ونصف يومياً، وعامل الشاي في سريلانكا يكون محظوظاً إذا جلب معه 72 سنتاً إلى البيت، والفلاح المكسيكي يكسب في اليوم أقل مما يكسبه المزارع الكاليفورني في الساعة، وفي الفيليبين البلد المصدر للموز لا يستطيع المزارع كسب أكثر من دولار في اليوم، والمزارعون يعيشون في أكواخ مكتظة وهم معرضون دائماً للتسمم بالمبيدات. وعندما تدعم الحكومة المحاصيل المعدة للتصدير تخسر الطبقات الشعبية المحاصيل الأساسية مثل الذرة أو الفاصوليا وغيرها فتصبح الطبقات الفقيرة أكثر جوعاً.

وكلما حاولت دول العالم الثالث زيادة التصدير لرفع عائداتها من العملة الصعبة تُواجه بانخفاض الأسعار العالمية فتقع في مطب الخسارة وليس الربح، وهذه السيطرة تُلقي بالأكثرية الفقيرة في مواجهة مع المستوردين الأجانب. وقد نجحت الصين خلال العقود الثلاثة الماضية في استغلال السوق العالمي لأنها

---

[136] الجوع في العالم، مرجع سابق، ص 106.

ركـــزت علـــى إنتـــاج الأغذيـــة الأساســـية للمـــواطنين وتوزيعهـــا بالشـــكل الصحيح.[137]

هل المجاعات تساهم في حصول الجرائم؟

" إن كـثيراً مـن المجاعـات حـدثت مـن دون أن يكـون هنـاك كـثير مـن التمـرد السياسـي أو النـزاع الاجتمـاعي أو الحـروب بـين هـذه الجماعـات، وعلـى سـبيل المثال، سنوات المجاعة في إيرلندا في أربعينيـات القـرن التاسـع عشـر كانـت مـن أكثر السنوات سلاماً، ولم تكـن ثمـة محـاولات تقريبـاً مـن الجمـاهير الجائعـة للتـدخل، علـى الـرغم مـن أن السـفن كانـت تبحـر واحـدة بعـد الأخـرى مـن نهـر شانون محملة بالأغذية تحملها من إيرلندا الجائعة إلى إنكلترا المتخمة، والـتي كانت تتمتع بقوة شرائية أكبر.

وإذا نظرنـا إلى أمثلـة أخـرى حصـلت في كلكتـا أثنـاء مجاعـة البنغـال العـام 1943 تشـمل مشـاهد أنـاس يموتـون جوعـاً أمـام محـلات الحلـوى الـتي تعـرض خلـف زجـاج واجهاتهـا أطعمـة مغريـة لذيـذة، دون أن يُكسـر زجـاج واحـد، أو تحدث أي فوضى في القانون والنظام. وقد كان البنغاليون مسؤولين عن العديد من أحداث التمرد العنيفة (حدث أحدها ضد الحكم البريطاني في 1942 في السـنة السـابقة لمجاعـة 1943 لكـن الأمـور كانـت هادئـة في سـنة المجاعـة نفسها).

ولكن قضية التوقيـت مهمـة، علـى وجـه الخصـوص، حيـث أن الشـعور بـالظلم يمكـن أن يغذي الأشياء والسـخط علـى مـدى فـترة زمنيـة طويلـة، بعـد أن تنتهـي آثـار الـوهن والعجـز الناتجـة عـن الحرمـان والمجاعـة بكـثير. ويبـدوا أن ذاكـرة

[137] الجوع في العالم ، أنظر الصفحات 109- 114- 117.

الإفقار والدمار تتلكأ كثيراً ويمكن استحضارها واستخدامها لتوليد التمرد والعنف. ربما تكون سنوات المجاعة الإيرلندية في أربعينات القرن التاسع عشر سنوات سلام، لكن ذاكرة الظلم والمرارة الاجتماعية تجاه التجاهل السياسي والاقتصادي أدت إلى شعور الإيرلنديين على مدى أكثر من 150 سنة. وقد لا يقود الإملاق الاقتصادي إلى أي عنف مباشر لكن من الخطأ أن يجعلنا ذلك نسلم بأنه لا علاقة بين الفقر من ناحية والعنف من ناحية أخرى." [138]

الأغذية القاتلة

حتى وإن وجد الغذاء في العالم الثالث فهو غذاء غير صحي لأسباب عديدة أهمها نوعية المبيدات المستخدمة في الزراعة. " حيث تُعتبر ربع أنواع المبيدات المصدرة من الولايات المتحدة إلى بلدان العالم الثالث خطيرة بالمقاييس الأمريكية، ويذهب معظمها إلى الحقول حيث لا تتأمن الحماية الكافية للفلاحين، في مزارع القطن والموز في الفيلبين وساحل العاج وأمريكا الوسطى.

معلمة في إحدى مدارس الترينيداد تقول: إن معظم تلامذتها كانوا يغيبون عن الصف في اليوم التالي لرش مزارع قصب السكر بالمبيدات من الطائرات، وكانت أعراض كالغيبوبة والتقيؤ والخدوش الجلدية تظهر على الأولاد. وبعد فضيحة وفاة فتاتين في ماليزيا جراء تعرضهما "للباراكوات" عام 1985 أعلنت وزارة الصحة أن 1200 فلاح قتلوا منذ العام 1980 بسبب هذا المبيد وحده.

وتشهد صناعة المبيدات ارتفاعاً في العالم الثالث حيث القيود وشروط السلامة أقل صرامة، فقد أدى اجتماع عاملي المكونات القاتلة ونقص إجراءات السلامة إلى مقتل 2000 وإصابة 200 ألف نسمة في كارثة تسرب المبيدات

---

[138] الهوية والعنف، ص، 145- 146.

الكيماوية من معمل "يونيون كاربيد" في مدينة بهوبال الهندية. وتعتبر الوكالة الأمريكية لحماية البيئة "أبيا" أن المبيدات هي المشكلة البيئية الأساسية في البلاد، وحتى الآن تمكنت الوكالة منح رخص السلامة ل 37 مادة من أصل 600 مستعملة في صناعة 45 ألف نوع من المبيدات وأحياناً تُضطر الأيبا توفيراً للوقت أن تعتمد على نتائج التحاليل التي تجريها الشركات المنتجة، وبعد فترة وجدت إحدى المحاكم أن التحاليل التي على أساسها مُنحت مئات الرخص مزورة بأكثريتها." [139]

عنف الدواء

والسؤال الذي ينبغي أن يُطرح هنا: إضافة إلى موضوع الأغذية هو حول نوعية الأدوية التي يتم توزيعها في الدول الفقيرة؟.

" ويغدوا وجه الشبه بين الحرب والكارثة الصحية جلياً، وبخاصة في حالات تفشي الأوبئة والأمراض المستوطنة حين يظهر بديل واقعي لغياب المعالجة الطبية أو لتوزيع أدوية غير فاعلة. وينعكس هذا بالدرجة الأساس في حالة الأمراض المعدية التي تقف وراء النسبة العظمى للوفيات في العالم. فيصبح والحال هذه من صلب واجب المنظمات الإنسانية فضح الطبيعة التدميرية الخفية للنظام السياسي. ولأن العمل الإنساني يرفض المنطق القائم على تجزئة الجنس البشري إلى من يجوز لهم العيش ومن يتحتم عليهم الموت، فإنه سيُعد بالضرورة في نظر السلطة عملاً هداماً ما دام أنصار النظام القائم قلما يتعاطفون مع أولئك الذين يقرر النظام تصفيتهم أو يجيزها، فإن الشرط الأول لنجاح العمل الإنساني هو رفض التعاون في عملية الفرز المهلكة. هذه الأعمال العنيفة التي ترافق

---

[139] الجوع في العالم، مرجع سابق، ص 53.

النشاطات الإنسانية تُنسب إما بسبب الأهمية الرمزية والعملية للمساعدات بالنسبة لأكثر الأطراف نفوذاً وقوة على الصعيدين الدولي والمحلي، أو نتيجة لإحساس وكالات الإغاثة بضرورة حماية مصالحها المؤسساتية." [140]

المعونات الغذائية والدوائية رهينة الإستراتيجية الدولية أو لأجندة سياسية، ونادراً ما يكون هناك إعانات إنسانية فالحكومات المانحة للمساعدات تقدم المعونات بالاتفاق مع السلطات التي ستستلم المعونات لكي تقوم بتوزيعها. وهذه الجهات المانحة لا تهتم إذا وصلت المساعدات إلى مستحقيها أم لم تصل المهم هو تحقيق أهدافها السياسية، ولهذا يتم استغلال حالات المجاعة والمرض.

" إن أسعار الدواء تحكم على الملايين من البشر بالهلاك، فالمرضى في البلدان الغنية وحدهم يحصلون على منافع صحية، فالشركات المصنعة للأدوية تعتمد في انتقاء استثماراتها على بلدان غنية ومرضى أثرياء، ولهذا كان اهتمام هذه الشركات يتركز على الدول الغنية. وانطلاقاً من اهتمامها بأرباحها وأرباح حاملي أسهمها، فمن الواضح أن مصالح هذه الشركات تصب في إنتاج وتسويق عقاقير تضمن حصولها على عائدات عاجلة لاستثماراتها، أي تلك التي تستهدف أمراضاً مربحة، ومرضى أثرياء. ومن هنا فإن ميل هذه الشركات إلى تطوير مضادات للاكتئاب أكبر بكثير من ميلها لإنتاج مضادات للملاريا، بل حتى إلى إيجاد استخدامات جديدة لأدوية متوافرة بالفعل بدلاً من ابتكار علاج جديد لمرضى النعاس. ومما تقدم يبدوا أن القطاع العام يوظف مبالغ طائلة في ميدان الأبحاث الطبية الأساسية، بما فيها تلك المتعلقة بأمراض استوائية. ولكن إذا استكملت هذه الأبحاث، فإن القطاع العام يترك للقطاع الخاص الجزء الأعظم من مهمة تطوير المنتج النهائي، ونظراً إلى أن الدوافع التي تقف وراء شركات إنتاج المستحضرات الطبية تقوم أساساً على مقدار

---

[140] في ظل حروب عادلة، ص، 14.

الأرباح المتوقعة، فهي لن تعمد إلى توظيف هذه الأبحاث في إنتاج أدوية ما لم تدر عليها أرباحاً طائلة وسريعة." [141]

وعلى الرغم من كل الأصوات الداعية إلى حق الفقراء في الحصول على الدواء، وصدور بعض القرارات مثل قرار محكمة بريتوريا الذي طرح مسألة إتاحة الفرص أمام المرضى الأكثر فقراً في العالم للحصول على العلاج، وفي إعلان الدوحة أقر بأن الحق في الحصول على الرعاية الصحية ينبغي أن يتقدم من حيث الأهمية على حقوق الملكية الفكرية، لجعل وسائل المعالجة الطبية سهلة أمام المرضى الذين لا يستطيعون دفع تكاليف العلاج، لا زال في كل عام يموت بضعة ملايين من البشر معظمهم من الأطفال بسبب أمراض ممكن معالجتها، وعلى سبيل المثال فإن علاجاً فعالاً لمرض الملاريا قد لا يُكلف سوى 1,2 يورو في المتوسط، ولا تزيد كلفة عملية قيصرية على 155 يورو تقريباً ونظراً إلى أن متوسط دخل الأكثرية من أبناء البلدان الفقيرة يقل عن يورو واحد في اليوم، لا زال هناك نسوة يمتن لعجزهن عن دفع تكاليف العملية القيصرية. والأطباء العاملون في البلدان الفقيرة لا يمكنهم تأمين العلاجات التي يمكن أن تُنقذ مرضاهم. ولا يبقى للفقراء سوى الوقوف أمام أبواب المستوصفات التي توزع عليهم أدوية مجانية معظمها فاقدة للفعالية. "

ولا ريب في أن تطوير وإنتاج العلاجات المناسبة يتطلبان توظيف استثمارات دائمة في ميدان الأبحاث والتطوير، وهو ما يصح بالنسبة لكل الأمراض وعلاجاتها. ومع ذلك ففي الفترة 1975 – 1999 لم يكن هناك بين 1393دواء طرح في الأسواق سوى 13 دواء لمعالجة أمراض المناطق الاستوائية التي تفتك بملايين البشر سنوياً، ناهيك عن أن القسم الأعظم من هذه الأدوية الثلاثة عشرة جاء وليد أبحاث أجريت في المجالين البيطري والعسكري،

---

[141] في ظل حروب عادلة، ص، 338.

وبكلمة أخرى فإن هذه الأدوية لم تكن لتسهم في معالجة مرضى البلدان النامية إلا عن طريق المصادفة. وعلى الرغم من أن هناك ما يتراوح بين 300 و 500 مليون من حالات الإصابة الجديدة بالملاريا تسجل سنوياً وتتسبب في وقوع مليون أو مليوني حالة وفاة، فليس هناك من علاج غير الكلوروكين الذي بات يفقد فعاليته شيئاً فشيئاً، وكان هذا الدواء قد أنتج لأول مرة عام 1934 ليصبح واحداً من أوسع الأدوية المضادة للملاريا شيوعاً." [142]

إذا كان الغذاء، أو الدواء سيتحول إلى ورقة توظف لخدمة مصالح أصحاب النفوذ فهذا أمر في غاية البشاعة، فاستغلال المرضى أو الجياع جريمة بحق الإنسانية ولا يمكن القبول بها. "بعد أن كان مصطلح "الضحية" في العصور القديمة يشير إلى الكائن البشري أو الحيوان الذي يُقدم قرباناً لهذا الإله أو ذاك صار المعنى المعاصر له يرمز إلى الشخص الذي يعاني من جراء خطأ وأذى شخص آخر، وما تجره عليه مصالح الآخرين أو انفعالاتهم، وبات من المسلم به أن الحروب والكوارث الطبيعية والاحتيال هي أسباب معاناة الضحايا. بيد أنه هناك اليوم عشرات الملايين من أناس آخرين لم يُعتبروا ضحايا على الرغم من أنهم قد استوفوا معايير كلا التعريفين المتقدمين لهذا المصطلح، وما أولئك إلا المرضى الذين لا ينالون من العلاج ما ينبغي أو ما يمكن أن ينالوه، ولأنهم لا يشكلون ورقة رابحة فليس بوسعهم الفوز بالعلاج الذي يحتاجون إليه، وليس أمامهم سوى تدبر أمرهم بأدوية عقيمة بل خطرة أحياناً. ولأنهم لا ينتمون إلى أي من الجماعات ذات النفوذ على الصعيدين السياسي والاقتصادي فقد أضحوا بطرائق عدة "قرابين" تُقدم على مذبح الاقتصاد السياسي لعالم الصحة." [143]

---

[142] العنف والسياسة والعمل الإنساني، ص، 333 – 334.

[143] العنف والسياسة والعمل الإنساني، ص، 33.

المساعدات ليست الحل

في النصف الأول من الثمانينات تركزت المساعدات الأمريكية على بضع حكومات، وهذا التركيز لا علاقة له بمدى فقر الدولة، فقد حصلت 10 دول من أصل 70 دولة على نصف المساعدات البالغة 34 مليار دولار، مصر وإسرائيل وحدهما حصلتا على الثلث منها، وفي السنة المالية 1985 بلغت حصة الفرد الواحد من المساعدات الأمريكية في 31 دولة فقيرة محدودة الدخل دولاراً واحداً للشخص الواحد، هذا فيما بلغت الحصة 28 دولار في الدول الأفضل حالاً. وحصلت أفقر عشر دول في العالم ومعظمها دول إفريقية على أقل من 5 ٪ من مجمل المساعدات،برغم المجاعة والفقر المنتشرين في إفريقيا الصحراوية، فلا علاقة للمجاعة في أسلوب توزيع المساعدات حيث تذهب معظم المساعدات الغذائية لدعم الحكومات الحليفة، فخلال الحرب الهند الصينية في أوائل السبعينات حصل مؤيدو الولايات المتحدة هناك على 20 ضعف من المساعدات الغذائية أكثر مما حصلت عليه خمس دول إفريقية تشكو المجاعة، فأكثر من نصف المساعدات المقدمة لا تُمنح مجاناً بل هي تُباع باعتمادات وتسليفات للدول المتلقية، والتي تستطيع بدورها أن تبيعها لمن يستطيع الشراء من مواطنيها، ولكن إذا كان المواطنون أصلاً يعانون من الجوع لأنه ينقصهم المال الكافي لشراء الغذاء، فأية فائدة تُجنى من هكذا مساعدات ؟.[144] "فالحكومة ألأمريكية انطلاقاً من نظرتها إلى العالم بأنه ينقسم إلى معسكرين متنافسين، تُقدم المساعدة المجانية إلى تلك الحكومات التي تُحارب الإصلاح والتطور طالما هي تدعي الانتماء إلى معسكرها،

---

[144] الجوع في العالم، أنظر ص 128- 130.

فالسلفادور وباكستان والفيلبين بزعامة ماركوس كانت من أهم الدول التي تتلقى مساعدات اقتصادية أمريكية، علماً بأنها من أعتى الدول محاربةً للإصلاح وأكثرها شراسة ومقاومة لأي تغيير إصلاحي تستفيد منه الأكثرية، بعد أن فرض ماركوس الأحكام العرفية عام 1972 حصل على بليون دولار كمساعدات اقتصادية أُخذت من جيوب دافعي الضرائب الأمريكيين، هذا عدا المساعدات العسكرية، وقد استعمل ماركوس هذه المساعدات لمتابعة سياسته الاقتصادية الرافضة بعناد أي إصلاح. وتستعمل أمريكا أسلوب قطع المساعدات كشكل من أشكال العقاب، ففي العام 1983 عاقبت دولة زيمبابوي التي صوتت ضدها في الأمم المتحدة، وخلال حملة المرشح الرئاسي سلفادور أليندي الانتخابية في تشيلي لم يتورع سفير الولايات المتحدة أدوارد كوري عن الإعلان بأنه "لن تصل حبة قمح واحدة ولا مسمار إلى تشيلي بزعامة أليندي، وإذا وصل إلى الحكم سوف نفعل ما نستطيع لجعل تشيلي والتشيليين أكثر الناس حرماناً وجوعاً." وهذا لم يكن تهديداً بل أوقفت أمريكا بشكل كلي مساعداتها لهذا البلد، وكذلك فرضت حظراً تجارياً كاملاً على نيكارغوا. وعدا المساعدات الغذائية نجد أيضاً أن المساعدات العسكرية الأمريكية تُساهم في تسليح الحكومات وتقويها ضد شعبها الجائع." [145] أو تقوم بدعم بعض التنظيمات المتمردة.

حتى صندوق النقد الدولي اعتمد سياسة منسجمة مع القيادة السياسية في أمريكا. "فربطا قروضهما لدول العالم الثالث بإحداث تعديلات أساسية في النظم الاقتصادية لهذه الدول، ومن هذه التعديلات: تخفيض الإنفاق الحكومي، بخاصة فيما يتعلق بالتقديمات الاجتماعية، وتجميد الأجور وتخفيضها إذا أمكن، وفتح الأسواق الداخلية أمام التجارة الدولية، وتخفيض

---

[145] الجوع في العالم نفس المرجع ص 132- 133.

قيمة العملة الوطنية مقابل العملات الصعبة، وطبقت العديد من دول إفريقيا وأميركا اللاتينية هذه الإجراءات سعياً وراء الاستثمارات وتحسين اقتصادياتها، لكن النتائج كانت تدميرية، إذ وقعت هذه الدول ضحية أعمال عنف داخلية، وانخفض معدل النمو في هذه الدول، زد على ذلك أن عدد الفقراء في أمريكا اللاتينية قد زاد من 130 مليون عام 1980 إلى 180 مليون عام 1990. وفي أفريقيا 200 مليون يعيشون تحت مستوى الفقر من أصل 690 مليون.

وفي رواندا تحت ضغط الأمريكيين وتدخل البنك الدولي أقدمت رواندا على تخفيض قيمة الفرنك في أواخر عام 1990 ما أدى إلى اجتياح الحرب معظم مناطقها، فانهارت مؤسسات الدولة ومعها مرافق القطاع العام وعمت المجاعة في البلاد، ومن اللافت أنه أثر اندلاع الحرب الأهلية قدم البنك الدولي ملايين الدولارات إلى الحكومة في رواندا بداعي استعادة الأمن والاستقرار، فأُنفقت هذه القروض في استيراد السلاح وزيادة عدد القوى المسلحة من خمسة آلاف إلى أربعين ألفاً، وكان تمويل العمليات العسكرية على حساب معالجة الأزمة الاقتصادية. وهذا أوقع البلاد في دوامة عنف متواصلة." [146]

تأثير الغذاء على السلوك

" من الصعب أن نتوقع أي شيء من أناس يمتلئون من الطعام طوال اليوم، في حين أنهم لا يستعملون عقولهم في أي سبيل على الاطلاق، بل أن المقامرين يفعلون شيئاً، وفي هذه المرتبة هم خير من هؤلاء الكسالى." **(كنفوشيوس)**.

[146] النزاعات الإقليمية في نصف قرن، أنظر الصفحات، 244- 246- 247.

" إذا كان المأكل حياتاً وصالحاً، كان التفكير والتصرف سليماً وصالحاً، وكانت الحكمة والنباهة والعقل والتعقل، وإذا كان المأكل مكوناً من جثث حيوانات أصبح التفكير أنانياً والتصرف فظاً مفعماً بالحقد والضغينة وجرائم الحروب... إن الدراسة التي قام بها البروفسور "رايت" على ستمائة نوعاً من شعوب العالم تؤكد أن الشعوب التي تأكل غذاءً حيوانياً ومشتقاته بنسب كبيرة كانت نسبة الحروب في مجتمعاتها أكثر من الشعوب التي تركز في غذائها على الحبوب والخضار؛ تمت الدراسة في تحليل تاريخي بدءاً من سنة 1480 إلى سنة 1941، وأشارت النتائج المستخلصة من هذه الدراسة إلى أن الشعب الإنكليزي هو أكثر شعوب العالم خوضاً للحروب، بينما اليابانيون والصينيون هم أقل الشعوب خوضاً لها، ولا شك أن الجميع يعرف ويلاحظ الاختلاف البارز بالنوعية الغذائية بين الشعب الإنكليزي أو الفرنسي الذي جاء في المرتبة الثانية من حيث الحروب التي خاضها، وبين الشعب الياباني أو الصيني. إن المهاتما غاندي قد ربح الحرب وحده ضد أقوى دولة في العالم بواسطة سلام ذاتي كان يتحلى به، وكان مما لا شك فيه لغذائه أثر كبير على تفكيره." [147]

" ثمة صلة وثيقة بين العقل والجسد والعقل المادي يشتهي دائماً اللطائف والمتارف، ولتفادي هذه النزعة يبدوا الصيام والقيود المفروضة على الغذاء شيئاً ضرورياً. أن العقل المادي يصبح عبد الشهوات بدلاً من أن يكون المسيطر عليها، ومن أجل ذلك يحتاج الجسد دوماً إلى أطعمة نظيفة غير مثيرة، وإلى صيام دوري. إن أولئك الذين يستخفون بالقيود الغذائية والصيام مخطئون بقدر ما هم مخطئون أولئك الذين يعلقون آمالهم كلها على الصيام والقيود الغذائية. وتعلمني تجربتي أن الصيام وذلك التقييد مفيدان جداً لكل من يتطلع تفكيره

---

[147] سر الشباب الدائم، ص 22- 24.

إلى كبح الذات. والواقع أن الغُلمة لا يمكن أن تُنتزع من العقل انتزاعاً كاملاً إلا بمساعدتهما. إن كل إنكار للذات مفيد للروح. إن غذاء الرجل الساعي إلى كبح النفس يجب أن يكون مختلفاً عن غذاء الرجل الساعي إلى المتعة، كما يتحتم أن تكون أساليب حياتهما مختلفة." [148]

الهرمونات والسلوك العدواني

على الرغم من أن الإسهامات الهرمونية للعدائية يبدو أنها ضئيلة بالنسبة إلى الإسهامات الأخرى ولكن الهرمونات قد تسهم بوضوح في بعض المجالات.

" ولأن تأثير البيئة الاجتماعية والخبرة في العدائية هو تأثير قوي، مما يفسر عدم الاهتمام النسبي بالتأثيرات الهرمونية، التي تبدو إلى يومنا هذا تأثيرات ضئيلة وغير مترابطة على الأقل في الإنسان. حتى في الجرذان قد تكون العوامل الاجتماعية مهمة في السلوك العدائي. وعلى سبيل المثال، فحصت مجموعة من الدراسات وقع تاريخ التنشئة على السلوك العدواني في سلالة من الفئران معروفة بالمستويات المرتفعة من الاقتتال بين ذكور النوع الواحد. فتربى بعض الفئران فقط مع أمهاتها، بالإضافة إلى إناث أخرى غير مرضعة. وتربت مجموعة أخرى مع إناث غير مرضعة، وبالتالي لم يكن باستطاعتها إرضاع هؤلاء الصغار. والملاحظة كانت أن الاقتتال بين الأفراد التي تربت مع اثنتين بالغتين ينخفض بمعدل 90٪. وعلى الرغم من أن الإسهامات الاجتماعية للعدائية هي كبيرة نسبة إلى الإسهامات الأخرى، ولكن لا يمكن تجاهل تأثير الهرمونات، فمن الواضح أن الهرمونات قد تسهم بشكل واضح في هذا

[148] قصة تجاربي مع الحقيقة، ص 382.

المجال. وتشير الدراسات بأن الذكور يستجيبون للسلوك العدواني الجسدي أكثر من الإناث." [149] " وتذهب الفرضيات إلى أن التعرض ما قبل الولادة لمستويات مرتفعة من الأندروجين يزيد من احتمال نشوء أفكار السلوك العدوانية، أو رؤية العدوان في أفعال الآخرين، ثانياً يرفع الأندروجين من مستويات التهيج الفسيولوجي وليس من الضروري أن تنتج هذه التغيرات في العمليات الإدراكية أو العاطفية مباشرة من الأندروجين الذي يعمل على الدماغ في طور النمو، ولكن قد تنتج أيضاً من نتائج سيكولوجية أخرى عند التعرض للأندروجين. مثلاً: يُعتقد أن المستويات المرتفعة من اللعب بالألعاب العنيفة ومن العنف في وسائل الإعلام تزيد من التوقعات العدائية. ولذا فإن الهرمونات قد تعمل بطريقة غير مباشرة من خلال زيادة الاهتمام بالأفلام والألعاب العنيفة. واحتمال أن التعرض للأستروجين خلال نمو الجنين يؤدي إلى ازدياد السلوك العدواني في البلوغ، وأن العلاج بالإستروجين في البلوغ ينشط السلوك العدائي." [150]

" وجدت بعض الدراسات أن الأفراد الذين اختاروا استعمال الستيرويدات الأندروجينية أظهروا مستويات عالية من السلوك العنيف ومن الهياج، في إحدى الدراسات على سبيل المثال: أظهر 60٪ من مستخدمي الأندروجين ارتفاعاً في درجات السلوك العدواني في اختبار حالة – سمة الغضب state – trait anger expression inventory. ... وفي دراسة ثانية كان المراهقون الذين يستخدمون الستيرويدات الاندروجينية أكثر عرضة لأن يكونوا ضحايا للعنف وأن يكونوا هم أنفسهم عنيفين." [151] " وقد ربطت الدراسات بين مستويات الأندروجين في الدورة الدموية في البالغين وبين السلوك العدواني في الأفراد

[149] جنوسة الدماغ، عالم المعرفة ص 169.

[150] نفس المرجع ص 172.

[151] جنوسة الدماغ، عالم المعرفة ص 163.

عانوا من بيئات هرمونية غير تقليدية ما قبل الولادة، بالإضافة إلى ذلك بحثت بعض الدراسات عن التأثيرات التنشيطية أو التنظيمية المحتملة للهرمونات في السيادة، لأنه يعتقد أنها ترتبط بالسلوك العدواني." [152]

ومن المؤكد أن زيادة إفراز هرمون الأدرينالين يسبب ردود فعل عنيفة، مثلاً عند التعرض للخطر، أو لحالة من الهلع والرعب، يزيد إفراز الأدرينالين فتتسارع دقات القلب، ويرتفع ضغط الدم، وتتقلص العضلات، فتحصل ردود فعل عنيفة. وهذا الهرمون يرتفع بشكل واضح في دم الأشخاص الذين يكثرون من تناول اللحوم بنسبة عالية. فالحيوان حين يشعر بخطر الذبح يُصاب بالذعر وتتقلص عضلاته، وترتفع نسبة الأدرينالين في دمه، وحين يتناول الإنسان اللحم يكون قد أخذ نسبة عالية من هذا الهرمون المسبب للتوتر. وهذا ما يُفسر وجود عدوانية واضحة عند بعض الأشخاص في الظروف العادية، مثلاً: قد يفسر شخص ذو طبيعة عدوانية اصطدام شخص آخر به بطريقة عرضية وغير مقصودة أنه فعل عدواني فيتصرف بطريقة فظة، رغم أن هذه الحادثة كانت عادية. ومعظم هؤلاء الأشخاص ساديون بطبعهم وقد تكون السادية متوارثة عن طريق الجينات أو بسبب الإفراط في تناول بعض الأطعمة. ولقد أثبتت الدراسات أن الستيرويدات الأندروجينية تؤدي إلى مستويات عالية من السلوك العنيف ومن مستويات التهيج الفسيولوجي.

ومن أهم العوامل الموضوعية المرتبطة بالسلوك العدواني هي تعاطي المخدرات على أنواعها مثل الكوكايين والأفيون والكحول، وتثبت الدراسات أن تعاطي المخدرات يؤثر في الهرمونات، وتؤدي الكحول إلى إحداث تغييرات في المراكز العليا في الدماغ فتضعف قدرتها على ضبط السلوك وعلى التحكم العضلي وضعف الإدراك الحسي.

---

[152] جنوسة الدماغ عالم المعرفة ص 161.

الفصل الثامن

العنف الفردي

الأسباب والدوافع

لمعرفة الأسباب للدوافع العدوانية الفردية لا بد من اكتشاف العوامل التي يتغير بتأثيرها سلوك الفرد، واستجاباته للمثيرات، سواء كانت مثيرات تتعلق بالنواحي العقلية، أو الفسيولوجية، أو الانفعالية. أو في ما يخص ظروف التنشئة منذ الطفولة. أو ما يتعلق بتأثير العوامل التي ينتجها المحيط الاجتماعي، أي الاتجاه العام للأفراد، أي ما يسمى بالرأي العام، مثلاً: كالتعصب، أو التمييز العنصري، أو الطبقي. وكذلك وجود بعض الظروف الضاغطة، كأخبار الكوارث، والاحتيال، والإدمان وغيرها. وكل هذا يؤدي إلى اضطرابات سلوكية تنتج عنها ردود فعل عنيفة. وإذا كان معظم علماء النفس والاجتماع والفلاسفة يؤكدون على دور المجتمع والتربية في التأثير على سلوك الأفراد، إذاً فلا يمكن للعدائية أن تنطلق دون وجود عوامل مثيرة أو ظروف ضاغطة. فالوعي الجماعي هو عبارة عن سيرورة تاريخية، ولهذا لا يمكن دراسة العدائية من خلال الفرد فقط دون معرفة العوامل المؤثرة في سلوكه والتي شَكَلها المحيط الاجتماعي.

كيف تحصل الجريمة

مدرسة التحليل النفسي، أو النظرية التحليلية في تفسير الجريمة تميل إلى القول بأن الجريمة يمكن أن تحصل لأي من الأسباب الثلاثة:

1- العجز عن التحكم في الدافع الإجرامي [الذات الدنيا] بسبب وجود ضعف أو عجز الذات الوسطى أو العليا ووقوفهم دون النمو المطلوب، ويقال أن المجرم لديه قدرة قليلة للكبت repressing الدوافع أو البواعث الغريزية أي الدوافع الإجرامية وذلك نتيجة لوقوع خطأ في النمو. وعلى ذلك يصبح الفرد الذي تسيطر عليه الذات الدنيا مجرماً نتيجة لذلك.

2- قد ينتج لتكوين الخلق المضاد للمجتمع من حدوث اضطراب في نمو الذات الوسطى ويحدث هذا أثناء السنوات الثلاثة الأولى من الحياة.

3- قد يؤدي النمو الزائد عن الحد في الذات العليا إلى تكوين ما يسمى بالمجرم العصابي. ذلك لأن الضمير الحاد جداً لا يوفر أي إشباع لمطالب الذات الدنيا. ومؤدى هذه النظرية أن المبالغة في تكوين ذوات الإنسان، أو التشدد الزائد في تكوين الذات العليا قد يؤدي إلى حدوث الجريمة. [153]

هكذا تصبح السلطة الرادعة واضعة لحدود الرغبة من خلال المحظورات والممنوعات. بالنسبة لفرويد الرغبة مكبوتة ومنحرفة دائماً وهذه الرغبة المكبوتة تمثل صراعاً مرضياً بين الأشخاص لا يلين مع اللاوعي الداخلي ولا يمكن السيطرة عليه، بينما ينتقد **ريكور** حتمية الرغبة عند **فرويد** لأن السلطة عند ريكور تعبر عن تحول في تاريخ الفرد من إشباع للرغبة عبر رغبة أخرى، فالرغبة تصبح حركة جدلية، كما عند **هيغل** حيث تصبح الرغبة شيء **آخر** تحقق الذات نفسها من خلاله وفيه. ريكور يدمج بين الوعي العقلي

---

[153] مبحث الجريمة، ص، 64.

والبدني فالوعي العقلي يحاول السيطرة على الرغبة المجهولة الجسدية؛ وخاصةً في مرحلة الطفولة حيث يستبطن الطفل بعض نماذج الرغبات التي تُكون هويته، ونجاح هذه المرحلة الأولى من العمر أو فشلها ينعكس على تطور شخصية المرء.

وهناك علاقة بين الغيظ الشديد والعنف، فالعنف الناتج عن الغيظ فعل غير عقلاني، وقد لا يكون لدى الفاعل نية التدمير أو الضرب أو القتل، وأحياناً يتم ارتكاب الجريمة نتيجة ردود فعل على أحداث ضاغطة. أو للدفاع عن النفس. وفي حالات الدفاع عن النفس الفاعل لم يكن قد خطط مسبقاً لما ارتكب، وفي هذه الحالة يكون الجاني أشبه بالضحية، وقد يندم على تسرعه، فيتعرض لنوبات من عذاب الضمير لا تنتهي؛ ولكن هناك على النقيض من ذلك مخلوقات تتسم بقدر كبير من العدائية، ولا تقيم وزناً لأي عمل إجرامي مهما كان نوعه، فالمشكلة الحقيقية للعنف تكمن بوجود مثل هؤلاء الأشخاص.

الطبيب الإيطالي سيزار لومبروزو Cesar Lambroso والذي عاش في منتصف القرن الرابع عشر عزا الجريمة إلى ما يمكن تسميته بالجنون الخلقي Moral insanity وفكر في طريقة يعرف بها الأشخاص الذين يصبحون مجرمين Criminal. ولكن أصبح واضحاً اليوم أنه لا يوجد سببٌ واحدٌ للجريمة ولهذا يصبح اصطلاح النمط الإجرامي الذي أطلقه لامبروزو في الماضي هو اصطلاح خاطئ، وأصبح من الأجدر على العلماء أن يبحثوا عن الظروف والملابسات المرتبطة بأي جريمة ترتفع معدلاتها، وما هي الصفات أو الخصائص إذا كان هناك أي صفات أو خصائص ترتبط بصورة متكررة مع نمط معين من السلوك.

وهناك علم يبحث في الجريمة والنزعة الإجرامية يُعرف "بعلم الإجرام" وهذا العلم ينبري لدراسة مصادر الإجرام لدى المجرمين بغية الحد منه والقضاء عليها. ولعلم الإجرام تاريخ طويل يرجع إلى سقراط وأبوقراط وأفلاطون وأرسطو، إذ عزا هؤلاء الجريمة إلى "نفس فاسدة" في المجرم أساسها عيوب خلقية جسمية. واعتبر أفلاطون مصدر الجريمة بعض الانفعالات مثل الحسد – الغيرة - الطمع – الغضب – والبحث عن اللذة. ولم يتوقف أرسطو عن البحث في العلاقة بين الجريمة والمجتمع. وفي القرن الثامن عشر لاحظ كل من بكاريا Baccaria وفولتير Voltair أن السرقة هي جريمة الفقر وأن مكافحة الجريمة تقتضي من الدولة رعاية من لا يملكون مورداً للرزق. أما القديس توما الأكويني فاعتبر أن شهوات الإنسان هي السبب في غالبية الجرائم.

لكن عالم النفس **فريمان** (1948) قسم الناس طبقاً لمتغيرات ثلاثة تتحكم في أنماط السلوك وهي:

1- استثارة الدوافع.
2- تفريغ الضبط.
3- القدرة على التمييز.

وهذا يعني أن من الممكن أن يكون هناك من الناس من تستثار دوافعهم بقوة مع ضعف الضبط الذي قد يصل بصاحبه إلى حد الإجرام؛ وهؤلاء يقدمون الجرائم، ويكون تكيفهم سيئاً كالسيكوباتيين.

تعريف السيكوباتي :

"يصيب الإنسان كثير من الأمراض والعلل، منها ما يهاجم جسمه، ومنها ما يهاجم عقله وتفكيره، ومنها ما يهاجم وظائفه النفسية، ولعل أخطرها جميعاً ما يهاجم خُلقه ومعاييره ومثله. ولقد اصطلح علماء النفس الحديث على تسمية

هذا الاضطراب بالسيكوباتية. مثل هذا الشخص يخرق القانون الخُلقي ويهدده دون مبالاة، ويرتكب المحرمات والمعاصي والأخطاء دون أن يشعر بتأنيب الضمير، أو بلوم الذات." [154]

ويعاني السيكوباتي من عدم الاستقرار العاطفي إلى درجة تقترب من الحالة المرضية، ويتصرف بفجاجة ويبرهن عن عدم النضج الأخلاقي وعدم التبصر في عواقب الأمور، وهو عصبي المزاج وسريع الغضب وميال للانتقام والعدوان والخداع والابتزاز والكذب أو ما شابه هذه المزايا، ولا يشعر بالشفقة على ضحاياه، ويقال أنه يقتل ويضحك." ويمكن للسيكوباتية أن تنشأ عن خبرات طفولة تتسم بالقسوة والوحشية فقد يكون قد تعرض للإهمال، أو فقدان أحد الوالدين أو كلاهما، أو قد ينحدر من آباء سيكوباتيين.

ويرى بعض الباحثين أن السيكوباتية ترتبط بعدم تكامل القشرة المخية أو لحاء المخ وعدم النضج الفسيولوجي وانعدام التوازن الحيوي حيث دلت رسوم موجات المخ عندهم أن هذه الرسوم تشبه رسوم مخ الأطفال." [155]

إن وسائط الهذا، والأنا، والأنا السامية ليست "أماكن" كما في الطوبوغرافيا الأولى، وإنما هي أدوار في الشخصية، يجري تعلم هذه الأدوار وتمثيلها من الصور الخارجية في التاريخ. ولا تتوافق الطوبوغرافيا الثانية مع الطوبوغرافيا الأولى، فالأنا ليست تماماً مثل الوعي، ولا الهذا تماماً مثل الوعي. بل تصبح الطوبوغرافيا الثانية تنوعاً ثلاثياً في موضوع قواعدي بخصوص المجهول وفوق الشخصي في تكوين الفرد، فالشخص عبارة عن دلالة تاريخية للهذا، أو لما هو غير مسمى، وما هو غير معروف حتى الآن، أما الأنا فهي ما يتم الإيمان به،

---

[154] مبحث الجريمة، ص 161.

[155] مبحث الجريمة ص 163.

والأنا السامية هي أكثر مما هو شخصي والفرد هو عبارة عن مركب مؤقت لعلاقات متغيرة تتكون من خلال الخطاب الرمزي." [156]

الأنماط السلوكية هل هي مكتسبة أم وراثية؟

العدوان من أهم المسائل التي تشغل الباحثين، وهناك فرضيتين أساسيتين بخصوص العدوان، الأولى تقول أن العنف فطري متأصل في البشر. والثانية تقول أن العنف مكتسب من خلال المحاكاة، وهذه الفرضيات ما زالت تثير الجدال بين الباحثين، فبعض الدراسات تؤكد على العوامل البيئية وتأثير المحيط وبعضها لا ينفي أثر الوراثة ، ومنهم من يعتبره ناتج عن تركيب جيني ينتقل من جيل إلى جيل، ومنهم من يرده إلى الغريزة، أو التربية السيئة وخبرات الطفولة.

ومن المؤكد أن العوامل الوراثية تضع الإطار العام الذي ينمو من خلاله الذكاء، ولا يمكن تخطي هذا الإطار، ولكن هذا لا ينفي تأثير العوامل البيئية على إمكانية استخدام الذكاء وتطويره. وهذا الذكاء قد يتجه نحو الخلق والإبداع والعلم، وإما يُستغل لتفعيل الاحتيال والجريمة.

تأثير العوامل البيولوجية على السلوك

" لا شك أن شخصية الفرد وسلوكه يتأثران بالعوامل الفيزيائية، كما يظهر ذلك في سلوكه اليومي وفي مظهره، وحيث يتأثر بقدرته على السمع والرؤية

---

[156] الأنماط الثقافية للعنف، ص 136.

والإحساس واللمس والإحساس بالحرارة والبرودة، كما تؤثر في سلوكه مقدار ما يمتلك من قوة وعضلات، كما يتأثر بكفاءة قلبه في النشاط ورئتيه ومعدته وأمعائه ، وفوق كل ذلك يتأثر بمخه أو دماغه وتؤثر هذه العوامل، وغيرها في مقدار ما يتعلمه الفرد. ولا شك أن هذه العوامل الفيزيائية كالقلب والدماغ والمعدة تؤثر تأثيراً كبيراً في الوظائف النفسية للفرد. وهناك كثير من الشواهد والأدلة التي تقطع بحدوث التفاعل بين العوامل الوراثية الجسمية والعوامل البيئية، ومن هذه الأدلة الأمراض التي تنشأ من عوامل نفسية كالقلق والتوتر والحزن والاكتئاب، ولكن أعراضها تتخذ شكلاً جسمياً أو عضوياً. ومن الأمراض الدالة على التأثير المتبادل بين النفس والبدن: الربو وضغط الدم والسكر وتصلب الشرايين والحساسية وبعض أمراض الفم والأسنان وبعض الأمراض الجلدية." [157]

ولكن هل يمكن معرفة تأثير العامل الوراثي على بعض السلوكيات المنحرفة التي يدينها المجتمع؟ "من المجالات الكبرى التي يشتد الاختلاف على تحديدها، أنماط السلوك التي تعتبر من قبيل الأمراض، لأن المجتمع يدينها، أو تعتبر انحرافا، فلقد أثار الكشف المسحي الوراثي وكذلك الكشف المبكر عن السلوك النفسي الاجتماعي المنحرف، المخاوف حول انتهاك الحقوق المدنية لمن تمارس عليهم عملية التنبؤ هذه. فإذا كشف التنبؤ عن الطفل أن قدراته على التعليم ضعيفة أو أنه سيكون فيما بعد ضد المجتمع ، أو يقوم بأفعال عدوانية ومعادية للمجتمع، فإن ذلك قد يؤدي إلى توقعات لسلوك غير مقبول اجتماعياً. وقد يؤدي الرأي والموقف المسبق المترتب على ذلك لدى هؤلاء الكبار وغيرهم من الذين يقدمون الثواب والعقاب إلى تسهيل السلوك الغير مرغوب فيه، كذلك فإن معرفة صدق نتائج الكشف المسحي من عدمها قد تؤدي إلى

---

[157] مبحث الجريمة، ص 120.

خلق نبوءة تتحقق بذاتها ، وقد تستخدم تلك التنبؤات من جانب شخص ثالث لتهيئة فرصة أو الحرمان من فرصة ، مثل التعليم أو التوظيف ، الأمر الذي قد يكون أساسياً لنمو إمكانات وقدرات الشخص المعني الفطرية ، وبالتالي يعتبر من حقوق الإنسان." [158] ولهذا لا يتم التركيز على أهمية التنبؤات لما لها من آثار اجتماعية وأخلاقية ، فهذا التقدم في علم الوراثة لا يعني تنبؤات دقيقة كاملة دائماً ، بالإضافة إلى انتهاك حرمة الخصوصية للأفراد الذين خضعوا لعملية التنبؤ ، ولكن هذا لا يقلل من أهمية الاستفادة من تطوير وتحسين القدرات الذاتية للأشخاص الذين لديهم قابلية للأمراض العقلية.

ولا شك أن العوامل التكوينية genetic factors تلعب دوراً هاماً في ظهور السمات الفيزيائية والعقلية والسلوكية ، كالذكاء والنزعة الإجرامية والاستجابات الانفعالية في بعض الأمراض النفسية.

"والقاعدة الأساسية المألوفة للوراثة يعبر عنها بحيث أن السمات الموحدة يحددها زوج واحد من الجينات ، ولكن معظم السمات التي تم معرفة محدداتها ليست بهذه البساطة. فلون العين الأحمر في فراشة الفاكهة لا يعتمد على زوج واحد من الجينات ، وإنما على تركيب مكون من نحو خمسين جينة ، أو على عمل هذه المجموعة من الجينات أو الصبغيات. والسمات التي تختلف على بعد معين مثل الطول بمعنى أنها توجد بنسب أو بمقادير متفاوتة في الناس ، يحددها أكثر من جينة واحدة والذكاء مثله مثل الطول يختلف على امتداد مقياس ما ، من الضعف العقلي إلى العبقرية ، وبالمثل كافة السمات المعقدة لا تعتمد على جينة واحدة وإنما على تضافر عدد منها." [159]

---

[158] تقنيات الطب البيولوجية وحقوق الإنسان، ص 253.

[159] مبحث الجريمة ، ص 93.

" ومن الدراسات البارزة في هذا المضمار دراسة توماس وزملائه (1970) الذين وجدوا أدلة تجريبية تؤيد فكرة الوراثة من السمات المزاجية للطفل، وإن الأطفال يختلفون عند الولادة في أحوالهم المزاجية، فلقد استطاع هؤلاء العلماء أن يميزوا ما وصفوه بأنه الطفل "السهل" والطفل "الصعب" ثم الطفل "البليد".

" كما تشير بعض الدراسات التي أجراها باحثون بعلم وظائف الأعضاء إلى أن الجزء المسمى بالجهاز الطرفي في المخ limpic system هو المسؤول عن السلوك العنيف، وتوضح النظرية الفسيولوجية وجود علاقة بين العنف وبين بعض مراكز المخ، فالسلوك العنيف من أكثر ما يميز مرضى الصرع عن الأشخاص العاديين ، وتبين إحدى الدراسات التي اهتمت بفحص عقول القتلة المصريين الموجودين بالسجون أو مستشفى الأمراض العقلية والتي أوضحت أن أكثر هؤلاء يعانون من رسم مخ شاذ، وهذا ما يؤيد الأساس الفزيولوجي للعنف.

ومن جانب آخر أرجع كونراد لورنز طاقة العنف إلى أنها تتكون في التنظيم العصبي المركزي." [160]

" ولم تبدأ الدراسة العلمية للمجرم إلا سنة 1871 م بالمحاولة التي قام بها الطبيب الإيطالي سيزار لمبروزو Cesar Lombroso . كان لومبروزو أستاذاً للطب الشرعي والعصبي بجامعة Pavia وطبيباً في الجيش الإيطالي. وقد أتاحت له خدمته في الجيش ملاحظة بعض مميزات الجنود الأشرار لم تكن متوافرة في الجنود الأخيار، ومنها وشمات ورسوم قبيحة كانوا يحدثونها على أجسامهم. واتضح له من تشريح جثث كثيرين من المجرمين وجود عيوب في تكوينهم الجثماني، كما فحص جماجمهم، فلاحظ في هذه الجماجم شذوذاً في الأسنان، وفي حجم الجبهة. وتصادف أنه قام بتشريح جثة قاطع طريق شقي

---

[160] العنف لدى الشباب الجامعي، ص 21.

يدعى Villela من جنوب إيطاليا، فشاهد في مؤخرة جبهته فراغاً شبيهاً بذلك الذي يوجد في القرود، Villela كان يتميز بخفة غير عادية في حركته وجنوح إلى المباهاة والتفاخر بنفسه وميل إلى التهكم والسخرية من الغير، الأمر الذي انتهى به إلى التقرير بأن المجرم وحش بدائي تتجلى فيه بطريقة الوراثة، خصائص ترجع إلى ما قبل التاريخ الإنساني. كما تناول لمبروزو بالبحث حالة مجرم اشتهر بجرائم العنف والدم، هو الجندي Miseda وخلص منها إلى القول بأن الجريمة ترجع إلى التشنجات العصبية التي تدفع إلى ارتكاب أفعال عنيفة. وهكذا تطورت في نظر لمبروزو صورة المجرم من "الوحش البدائي" إلى "الجنون النفساني" إلى "النسيج العصبي". ثم توصل بعد ذلك في كتابه "الجريمة" أن لكل جريمة أسباب عديدة، ولما كانت تلك الأسباب تختلط مع بعضها في الغالب، فيجب أن لا يؤخذ كل سبب فيها على انفراد. ولقد كان لومبروزو يرى أن هناك منطقة مشتركة بين الإجرام والصرع." [161]

" وتبين لنا المعلومات المتوافرة بين أيدينا أنه نادراً ما يكون للعوامل الجينية الوراثية أثرها في أكثر من نصف حالات تغير الخصائص السلوكية مما يدعو إلى الاهتمام الشديد والخطير بالعوامل والأسباب الأخرى غير الوراثية، فيبدوا أن السبب الوراثي للخلاف السلوكي متعدد، فتدلنا النتائج على تباين وتعدد العوامل الجينية المهيئة والمساعدة على حصول الفصام، وتثبت العيوب التشريحية الدماغية لحالة فصام في واحد من توأمين وحيدي البويضة غير متساويين في الإصابة بالفصام أن السبب يعود إلى عوامل غير وراثية." [162]

---

[161] مبحث الجريمة ص 38 – 40.

[162] تقنيات الطب البيولوجية وحقوق الإنسان، ص 249.

ويبدو أن الضغوط البيئية لها تأثير مباشر بالنسبة للأشخاص الذين لديهم قابلية للأمراض العقلية، ولها تأثير على الأعراض المرتبطة بالقلق والاكتئاب.
ويمكن القول باختصار: أن سمات الشخصية لا تورث، وإنما هناك تكوينات معينة في الجهاز العصبي والغدي تهيئ الفرد لأنواع معينة من السلوك حينما تتفاعل مع المؤثرات البيئية.

تأثير خبرات الطفولة على تحديد الشخصية

كارل يونغ تكلم عن تأثير الأفكار الموروثة، مثلاً هناك مخاوف عند الأطفال من أفكار الغول والجن والليل وما شابه، وهذه الأفكار الموروثة تكمن في اللاوعي الجماعي، وكل المواقف الغامضة التي يعجز الطفل عن تفسيرها تثير فيه الخوف، ولكن هذا الخوف من الكائنات الخيالية يضعف مع تقدمهم بالعمر، لتحل مكانها المخاوف المتعلقة بالنواحي الحياتية الأخرى. ولهذا نجد أن حياة الشعوب مليئة بالطقوس الدينية والقيم والأدعية وغيرها، لأنها تخفف من الضغوط النفسية.
وكل الأفكار والمخاوف والتصرفات عند الأطفال تعود إلى الأهل وما يظهرونه من حب أو نبذ للطفل.
ولتحليل السلوك الإنساني يركز علماء النفس على معادلة ربط الأثر بالسبب، أو العلاقة بين المثير والاستجابة. **واطسن** يقول :المهم في علم النفس هو معرفة العلاقة بين المثير والاستجابة، وينفي واطسن أثر الوراثة النفسية أي وراثة السلوك العدواني فالوراثة بالنسبة له هي الوراثة الفزيولوجية فقط وليس النفسية، والفروقات بين الناس هي فروقات اجتماعية، وسلوك الإنسان هو نتيجة لعمليات التعلم. وهناك دراسات كثيرة قد أسفرت عن إمكان تعليم

الطفل تعليماً شرطياً، الابتسامة والامتصاص وغير ذلك من أنماط السلوك، فلقد أمكن تعليم الطفل الخوف من لعبته التي كان يسعد بها وذلك بعد اقتران رؤية هذه اللعبة بسماع الطفل لأصوات فجائية عالية. ويقول واطسن أنه يمكن تحويل الأطفال الذين ليس لديهم إعاقة فكرية إلى اختصاصات متنوعة كأطباء أو مهندسين أو باحثين...، أو يمكن تحويلهم إلى متسولين أو سارقين أو منحرفين... بغض النظر عن ميولهم أو اتجاهاتهم وقدراتهم ومهنة آبائهم، فجميع الناس حسب **واطسن** متساوون عند الولادة، وهناك ثلاثة انفعالات فطرية عند الأطفال هي الخوف والغضب والحب، والفروقات بين الناس هي فروقات اجتماعية، وليس فروقات وراثية.

والواقع أن الجنين يتأثر بكثير من العوامل والظروف حتى قبل أن يولد، وقد تؤدي بعض العوامل إلى سوء تكوين الجنين malformation ومن هذه العوامل مرض الأم واضطراباتها وتناول الأدوية والحالة الانفعالية... ألخ." [163]

وفي دراسة عن أطفال التبني تم استعراض نتائج بعض الدراسات منها دراسة أجريت في جامعة ستانفورد الأمريكية تمت فيها مقارنة العلاقة بين أطفال التبني وبين ذكاء آبائهم في التبني والعلاقة بين ذكاء الأطفال وذكاء آبائهم الحقيقيين ولقد تضمنت هذه الدراسة 214 طفلاً. وكذلك دراسة في جامعة مينسوتا الأمريكية تضمنت 194 طفلاً. ودراسة ثالثة في جامعة إيوا. وتم التوصل إلى نتيجة مفادها أن الأطفال يشبهون آبائهم الحقيقيين أكثر مما يشبه أطفال التبني آبائهم بالتبني، مما يدل على أن أثر الوراثة في الذكاء أقوى من أثر البيئة، ويظل التشابه قائماً بين الأطفال وآبائهم حتى وإن لم يعش الطفل مع والده، ولقد وجد أن الانتقال إلى بيوت التبني يؤدي إلى تحسين مستوى ذكاء الطفل ربما بسبب الغنى الثقافي والمعرفي للبيت الجديد. وتؤكد

---

[163] مبحث الجريمة، ص 112.

هذه الدراسات أهمية علاقة التفاعل بين العوامل البيئية المكتسبة والعوامل الوراثية. ومن المؤكد أن هناك علاقة بين الذكاء وطرق التعليم.[164]

ومن الملاحظ في معظم الدراسات أهمية وجود الأم، فحرمان الطفل من أمه له أثر كبير على النمو الانفعالي والعقلي عند الطفل، فعدم وجود الأم ينمي لديه الشعور بالقلق وعدم الأمن.

الغرائز وعلاقتها بالسلوك

حين نتكلم عن الغريزة لا بد من إعطاء تعريف منطقي لعمل الغريزة. فعمل الغريزة يكمن في انفصال المشاعر عن العقل، وعندما يتحكم العقل تصبح كل المشاعر غير مؤثرة، فالعقل يرشدنا إلى الحقيقة، والحقيقة صادقة، بينما الغريزة تمثل الجهل، والجهل هو الضياع أو التيه. ويصبح الجهل هو الحاكم عندما تسيطر الغرائز على الإنسان، فالغرائز تتحرك بدافع الميول وليس بدافع العقل أو الحقيقة. والانصياع الأعمى خلف الغرائز يدفعنا إلى الاستدلال الخطأ، والانفعال المدمر. وهكذا فإن معظم الجرائم تحصل بفعل الغضب وبفعل الغرائز. ولكن يجب التفريق بين الجريمة المدبرة، وبين الغضب، فالغضب مشاعر وانفعال قد لا يؤذي غير صاحبه، بينما الجريمة هي فعل موجه نحو الآخر.

وأهم ما يثير الغريزة هي الحاجة، والحاجات كثيرة ومتنوعة وإذا ما أشبعت الحاجات عند الإنسان وجد الارتياح والهدوء والرضا. وإذا لم يتم إشباع الحاجات ساد التوتر والإحباط والعدوان. ويفسر العالم السلوكي "كونراد

---

[164] أنظر مبحث الجريمة ، ص 97- 99.

لورينز" العدائية عل أنها طاقة غريزية تنشأ وتتراكم إلى أن تتلقى إشارة من المحيط الخارجي، ويرى أن الغريزة العدائية مشابهة للغريزة الجنسية.

مكدوجل في كتابه علم النفس الاجتماعي يجد أن الغرائز هي المحرك الأول للسلوك، والغريزة هي استعداد فطري ... ويمكن تصنيفها إلى غرائز فردية وغرائز اجتماعية. الغرائز الفردية مثل غريزة البحث عن الطعام وانفعالها الجوع وغريزة التملك وانفعالها لذة التملك، وغريزة الهرب وانفعالها الخوف، وغريزة الضحك وانفعالها الشعور بالمرح ... والغرائز الاجتماعية مثل غريزة المقاتلة وانفعالها الغضب، وغريزة التجمع وانفعالها الشعور بالوحدة، وغريزة الوالدية وانفعالها الحنو والعاطفة.

فرويد افترض أن هناك غريزتين لدى الإنسان هما غريزة الجنس وغريزة العدوان، "ويقر فرويد بأن الناس لا يرغبون في أن يسمعوا بوجود نزعة إنسانية فطرية للشر، للعدوان، وللتدمير، ومن ثم للوحشية أيضاً. ويعترف فرويد أن المساعدة للحضارة، يمكن أن تأتي من تغيير في علاقات البشر مع ضبط الأنفس، أكثر مما تأتي من الأوامر الأخلاقية. ولهذا يعترف فرويد، أن غريزة العدوان هي عند البشر نزعة غريزية متأصلة ، وتمثل العائق الأعظم أمام الحضارة."[165] فرويد يؤكد بأن كثيراً من العوامل الاجتماعية ترجع إلى دوافع غريزية، ويرى أن رغبات الإنسان التي تحركها الغريزة تبقى مكبوتة في اللاشعور ويمكن أن تبحث عن منفذ لها من خلال التهيج والغضب أو الرغبة في الانتقام. والخطر على الوجود يعيد العمل العقلي إلى ذكريات البقاء الأساسية على قيد الحياة. وهذه الغريزة الأساسية التي تدفع الإنسان وهي ما يسميها فرويد "غريزة الموت" فالصور الأساسية الراسخة في اللاوعي هي استبطان الصور التي تهدد البقاء.

---

[165] الأنماط الثقافية للعنف، ص 128.

العدوان و الإحباط

تظهر مؤشرات الإحباط حين لا يستطيع الإنسان تحقيق رغباته، فتبقى هذه الحاجات مكبوتة في اللاشعور ثم تظهر على شكل نوبات عصبية وقلق وتذمر. فالإحباط يثير في الشخص نوازع العدوانية المضادة على العامل المعوق، وحين يتكرر الفشل يسبب الإحباط. ويرتبط الإحباط ببعض الأمراض النفسية مثل الهستيريا، والفصام، وفقدان الذاكرة – تنفصل أجزاء من حياة المحبط وتبقى أجزاء أخرى - والإحباط هو نتيجة أسباب ضاغطة، قد تكون اقتصادية كالغرق في الديون، وتدني مستويات المعيشة، ونوعية السكن الغير مريح. أو أسرية، كمشاكل التفكك الأسري، أو بسبب أساليب التربية التسلطية والاعتباطية. ويمكن أن تكون هناك أسباب سياسية تؤدي إلى غياب الأمن الفردي والجماعي، وغياب الإحساس بالطمأنينة.هذه كلها من الأمور التي تؤدي إلى بناء شخصيات عصابية وعدوانية. فالشخص الذي يشعر أنه عرضة للهجوم أو غير محصن يكون شديد الحساسية تنتابه نوبات من اليأس والسخط على المجتمع، ويتسم سلوكه بالاندفاع والتسرع، واستجابته للضغوط تكون عنيفة، وهو لا يثق بالآخرين. . **الفرد آدلر** يرى أن أكثرية العصابيين هم من المطيعين والخجولين والقلقين، ويجد المجرمين بين الحركيين والسلطويين والقاسيين. وركز **أدلر** على مبدأ الشعور بالدونية، فالفشل يؤدي إلى الشعور بالدونية وفشل في التكيف، وأيضاً عقدة الفوقية تسبب أحياناً الانحراف أو الإدمان أو الانتحار عند مواجهة الفشل.

" وقد نشأت فرضية ارتباط العدوانية بالإحباط في كتابات فرويد وماكدوجل، وإن كانت قد اتخذت شكلها النهائي على يد دولارد، ودوب، وميلر، وسيرز في مؤلفهم الشهير الذي صدر عام 1939، وقد حاولت نظرية

الإحباط - العدوانية تفسير ظاهرة العنف من واقع تتبع العلاقة بين الإحباط والعنف، وافترضت أن الإحباط سبب للعنف وهو استجابة طبيعية له، ويزداد كلما زاد الإحباط، وقد أيدت دراسات أخرى هذا الافتراض، وعلى الرغم من أن الإحباط يسبب العدوان إلا أن ذلك يتوقف على مدى استعداد الشخص للعنف وإدراكه للموقف المحيط وتفسيره له، كما ذهب ميلر إلى أن الإنسان يستجيب للإحباط باستجابات كثيرة منها العدوان أو العنف، وإن كان ميلر لم يجد أن العدوانية والعنف استجابة فطرية للإحباط، غير أنه أكد صحة المبدأ العام وهو أن الإحباط الذي يعوق إشباع الحاجات في الوقت المناسب لسياق الفعل يؤدي إلى العدوانية، وتم ذلك من خلال صياغة مبدأ محدد للسلوك يربط بين الإحباط والعدوانية، يكون بموجب شكل ما من أشكال الإحباط يسبق السلوك العدواني، وإذا كانت الإحباطات لا تؤدي دائماً إلى العدوان – إلا أنها تنحو ذلك ، مع ملاحظة أن سلوكاً آخر – مثل المطاوعة قد يتصارع مع الإحباطات أو يتعارض مع التعبير عنها، وفي الوقت الذي تأكد صدق فرضية الإحباط – العدوانية، إلا أن هذه الفرضية لا تعالج عدداً من أمثلة السلوك العدواني بطريقة مباشرة، ويورد لامبرت أمثلة محددة على هذه الفكرة: بعض الناس يعبر بصورة أسرع من البعض الآخر عن العدوان عند الشعور بالإحباط، فهل يرجع هذا فقط إلى الإحباطات السابقة (بما فيها العقوبات) ومثال آخر بعض الناس عدوانيون دون إثارة واضحة: فهل هذا شكل مختلفا من السلوك العدواني (سادية مثلا مقابل النزعة الانتقامية)، وهل ما زالت هناك أشكال أخرى أخرى للعدوانية يتعلم الناس اللجوء إليها – عدوانية مقبولة اجتماعياً بدلاً من العدوانية المضادة للمجتمع، والعدوانية المازحة بدلاً من العدوانية الجادة ." 166

[166] الحرب وسيكولوجية المجتمع ، ص 164.

الغشطالتية – وهي مدرسة في علم النفس – ترفض مبدأ الاستبطان وتعتبر الإدراك هو أساس العمليات العقلية والإدراك يتم فوراً ودون خبرة مسبقة، فهي تهمل دور التجربة والخبرة، ولهذا تتغير مواقف الأفراد في لحظة معينة مع وجود وقائع مؤثرة مثل الخوف أو الإحباط أو اليأس، فهناك تبعية متبادلة بين الشخصية والمحيط في لحظة معينة، فالضغوطات والتأثيرات الاجتماعية التي تحصل في المجال تؤثر علينا بشكل مباشر.

إنما العدوان لدى المحبطين لا يعني بالضرورة ارتكاب جرائم قتل، قد يقتصر العدوان عندهم، على تحطيم حاجيات أو السباب وأحياناً العزلة التامة عن المجتمع. والإحباط يترافق أيضاً مع حقد وكراهية كرد فعل على المثير الأساسي المسبب للحالة. وقد تكون ردود الفعل العنيفة فورية أو مؤجلة، والعنف المؤجل هو الأخطر لأنه يحصل بعد تخطيط كما يحدث في كثير من الجرائم المنظمة.

وردود الفعل العدوانية قد لا تتوجه مباشرةً نحو المتسبب بالحالة، وغالباً ما يتخذ المحبط لعدوانه هدفاً خارجياً ليصب عليه غضبه وسخطه، فإزاحة العدوان تتخذ لها ما يُسمى "كبش فداء" كهدف خارجي لا دخل له فيُسقط المحبط عليه غضبه، أو يحمله مسؤولية ما يعانيه، أو ما يتعرض له من عدم الأمان وعدم الاستقرار.

هل يوجد سمات محددة للعدائية

السمات هي أنماط سلوكية عامة وثابتة نسبياً تصدر عن الشخص في مواقف معينة، وتحديد سمات الفرد هي أفضل طريقة لتقييم الشخصية، فلكل شخصية نمطها من السمات التي لا توجد لدى جميع الأفراد، فهي تكون

خاصة بفرد معين. والسمة في رأي ألبورت هي الوحدة المناسبة في تحديد الشخصية.

"ألبورت" يعرف السمة بالآتي: " السمة هي بناء نفسي عصبي لديه القدرة على تقديم واستخراج مثيرات عديدة متساوية(متسقة ذات معنى ودلالة) من الأنماط السلوكية التوافقية والتعبيرية..." ويستطرد ألبورت بقوله :ولأن كل فرد له سمة معينة فإنه يستجيب لسلسلة من المثيرات بطريقة ما تعكس السمة. وهذا يعني أحياناً أن عليه أن يسلك مسلكاً بطريقة لم يسلكها من قبل وذلك لكي يعبر عن السمة التي لديه. وعلى النقيض فإن مصطلح العادة ينطبق على نوع محدد وضيق من الميل المحدد. والسمة أكثر شمولية وعمومية من العادة ووفقاً لألبورت فإن السمات والاتجاهات لا يمكن التمييز بينها ، والسمة أكثر شمولاً من الاتجاه فالاتجاه يختص بتوجيهات الأفراد أوجه محددة من البيئة تشمل (الناس الثقافة المجتمع) [167]

ويميز ألبورت بين نوعين من السمات سمات ديناميكية Dynamic ، توضح لماذا يسلك الفرد هذا السلوك أو الدوافع التي دفعته إلى هذا السلوك. وسمات أسلوبية Stylistic تكشف عن كيف يسلك الفرد ، أي الأسلوب في السلوك. "إن لغة السمات قد تكون موجودة في جميع أعمال علماء النفس المهتمين بالشخصية مثلاً أولبرت وكاتيل قد جعلا السمة بمثابة وحدة البناء الأساسية في مفهوم الشخصية وفي وضع أساس لنظرية السمات نجد أولبرت يفحص كذلك وحدات بنائية ممكنة أخرى مثل العادات والاتجاهات والأنماط" [168]. "

[167] أنظر سيكولوجية الشخصية ص 113 - 122

[168] المصدر نفسه ص 161

والسلوك يتأثر بمجموعة من السمات أكثر من تأثره بسمة واحدة تعمل بمفردها، وتتأثر أيضاً إلى حد كبير بالخبرات التعليمية للفرد ومع تقدم العمر الزمني فإن بناء السمة لشخص ما يميل إلى أن يصبح أكثر استقراراً واتساقاً بصورة تجعل سلوكه أقل تغييراً. أما عند كاتيل فالسمات ليست المحددات الوحيدة للسلوك الإنساني فمثلاً أن موقف الفرد هو في دوره وحالته الحاضرة، وإن تحليل الحالة بصفة خاصة غالباً ما يُتجاهل في تحليل السلوك، ومفهوم السمات وفقاً لكاتيل يتمركز تحت عناوين عريضة ثلاثة: هي القدرة، والسمات المزاجية، والسمات الديناميكية. فالقدرة تُرى في طريقة الاستجابة على تعقيدات الموقف وذلك عندما يكون الفرد واضحاً في أهدافه التي يريد أن يتوصل إليها في ذلك الموقف، أما المزاج أو الشخصية العامة تكون عادة أسلوبية أي على علاقة بالأسلوب، بمعنى أنها تتعامل مع درجة السرعة والحركة والشكل والمثابرة، كما أنها تغطي مجموعة واحدة من الاستجابات النوعية مثلاً قد يكون الشخص بطيء من الناحية المزاجية أو سهل الانقياد أو حاد الطباع أو شجاع ... أما السمة الديناميكية فتتعلق بالدوافع والميول مثلاً قد يكون الشخص طموح أو مهتم بالرياضة أو له اتجاهات معينة فالبناء الديناميكي يُنظر إليه على أنه بمثابة قالب جامد. وسمات القدرة تشير إلى سلوك الفرد المعرفي والعقلاني.[169]

هل هناك علاقة بين التكوين البيولوجي وبين السلوك؟

هناك دراسات لا تُحصى عن الصفات البيولوجية البشرية، كاختلاف الجمجمة أو الفكين والعمود الفقري ولون البشرة وغيرها، ومعظم هذه

[169] سيكولوجية الشخصية، ص 144

الدراسـات تؤكـد أن هـذه الفـوارق الجسـمية لا ينـتج عنهـا فـوارق عقليـة، أو نفسية، فالكراهية والعنف والتعصب سمات غير فطرية وإنما هـي خصـائص اجتماعيـة تُكتسـب عـبر الحيـاة الاجتماعيـة. وجميـع الأفـراد ينتمـون لسـلالة واحدة، ونوع واحد، والفوارق الجسمية من الناحيـة الفيزيائيـة ناتجـة عـن عزلـة الشعوب القديمة وبعدها عن بعضها، وبسبب تأثير المناخ على هذه الشعوب. والغرض من القول أن هناك سلالة أرقى من الأخرى هـي أغـراض اسـتعمارية يبثها دعاة التفرقة العنصرية.

مـن النظريـات الـتي حاولـت الـربط بـين السـلوك و الـنمط الجسـمي: نظريـة **كرتشـمر** - الـذي عمـل علـى دراسـة المقـاييس الجسـمانية للمرضـى في المستشفيات من أصحاب الأمراض العقلية- توصل إلى تحديد ثلاثة أنماط جسمانية هي: **النمط النحيل، والنمط الرياضي، والنمط البدين**. وتوصل إلى أن الصـفات النمطيـة قابلـة للتغـيير. وذهـب كرتشـمر إلى وجـود علاقـة بـين التكـوين الجسـمي والحـالات المزاجيـة، ووجـد أن الأفـراد الـذين لهـم مـزاج فصامي يميلون إلى أن يكونوا نحافاً، والأفراد الذين لهم مزاج دوري يميلون إلى أن يكونوا قصاراً وبدينين. - المزاج الدوري يعني تقلب صاحبه في حالته المزاجية بين حالة الانشراح وحالة الاكتئاب بشكل كثير - والنمط لا يعني التسبب بالحالـة الإجراميـة، فمعظم الدراسـات لم تظهـر الدقـة الكافيـة مـن حيث علاقة الأنماط بالجرائم، إنما الاختلافات في السلوك تعود إلى اختلافات في الأمزجة.

وأول المهتمين بتصنيف الأمزجـة هـو **أبقـراط** (400 ق. م) فقسـم الأمزجـة إلى أربعـة أقسـام: المـزاج الـدموي: ويتميـز بـالمرح، والنشـاط، والتفـاؤل، وسـهولة الاستثارة، وسرعة الإجابة. والمزاج السوداوي ويتميز بالانطواء، والتأمل وبطء التفكير، والتشاؤم، والميل إلى الحزن والاكتئاب. والمزاج الصفراوي: ويتميز

بسرعة الانفعال، والغضب، وحدة المزاج، والصلابة، والعناد، والقوة. والمزاج البلغمي: ويتميز بالخمول وتبلد الشعور، وقلة الانفعال، وعدم الاكتراث، وبطء الحركة، وبطء الاستثارة والاستجابة، والميل إلى الشراهة. وهذا التصنيف للأمزجة على أساس أخلاط أو سوائل الجسم يتفق إلى حد كبير مع ما يؤكده العلم الحديث عن تأثير هرمونات الغدد الصماء.

ويمكن أن تؤثر الأمزجة بالأنماط، ففي علم الفراسة وهو علم قديم أثبت أن الانفعالات والتصرفات تعكس بعض الخطوط الواضحة على الوجه وعلى الجسد، وتظهر هذه الخطوط بوضوح على الأفراد بعد تقدم العمر، وبالتالي يظهر تأثير أنماط السلوك على النمط الجسمي.

الفصل التاسع

الديمقراطية

تعددت الآراء بخصوص الديمقراطية. فهل يوجد نظام ديمقراطي مثالي يضمن حقوق الأقليات؟ وهل الأنظمة الحديثة المتطورة الراعية للديمقراطية في العالم المعاصر هي أنظمة ديمقراطية؟.

لا يكفي أن نطلق الشعارات باسم الديمقراطية، فالديمقراطية هي سلوك يضمن تكافؤ الفرص، وتأمين العدالة للجميع، دون تمييز بين معتقد أو طبقة أو عرق. فمن أبشع الأمور تصنيف الناس حسب الأدوار، أو حسب المعتقد، فهذا مهين.

ثمة فضائل عديدة للديمقراطية؛ ولكن من المؤكد أن الديمقراطية في شكلها المعاصر لا تحل المشاكل في المجتمعات، لأنها تحمل في وجهها الآخر صورة للاستبداد، وهذه الخطابات المتناقضة باسم الحرية والديمقراطية والتعددية وحقوق الإنسان لا تمثل إلا غطاءً للهيمنة.

" يصف **نلسون مانديلا** في سيرته الذاتية (مسيرة طويلة إلى الحرية) (long walk to freedom) كيف كان متأثراً في صباه برؤية الطبيعة الديموقراطية لإجراءات اللقاءات المحلية التي تُقام في بلدته الأفريقية: "كان كل شخص يريد الكلام يتحدث، كانت تلك هي الديمقراطية في أنقى صورها. ربما كانت ثمة تراتبية في الأهمية بين المتكلمين، لكن كان كل

شخص يُستمع إليه، الرئيس والرعية، المحارب ورجل الطب، والبقال، والمزارع، صاحب الأرض، والعامل الزراعي." [170]

وكما في هذه البلدة الأفريقية كذلك في تاريخ الفكر المسيحي والإسلامي شواهد كثيرة على حرية الرأي، وهذه الحرية موجودة في القرآن والإنجيل قبل أن توجد في عصر الحداثة، وعند فرق العباد والرهبان كان هناك أرقى أشكال الديمقراطية. وليست الديمقراطية هذه الشعارات التي ترددها الحداثة، وليس من المقبول القول بأن الديمقراطية في العالم تقتصر على بعض الدول دون سواها.

والأمثلة لا تعد عن ديمقراطيات كانت سائدة عبر التاريخ الطويل للحضارات الإنسانية، والديمقراطية هي حضارة الكلمة ينبغي أن يغلب فيها التشاور العاقل على الحساب الانتهازي، وعلى عنف الغرائز، وللسياسي الديمقراطي أن يضع الحدث أمام المعاينة والتحليل، قبل أن يحكم من منطلق فئوي ذاتي، وعليه أن يترك الباب مفتوحاً للحوار. والسياسي الذي يرضى بالسياسة وحدها لا يكون سياسياً حقاً، كما أن المفكر الذي يكتفي بالفكر لا يكون مفكراً حقاً.

" ونلاحظ في الجانب التطبيقي لهذا النوع من الحرية في الإسلام تاريخ الدعوة في الإسلام ورجالاتها، الذين كانوا يفتحون قلوبهم وأفكارهم وندواتهم ومساجدهم على الأفكار المضادة، التي تصل إلى حد الإعلان عن الإلحاد بكل صراحة، كما ينقل لنا ذلك تاريخ الإمام جعفر الصادق عليه السلام، الذي كان يقيم ندوات الحوار مع الزنادقة في بيت الله الحرام ويمنحهم حرية الكلمة من دون ضغط أو إكراه أو محاولة لإثارة الغوغاء بين المتدينين المتحمسين ضدهم، إيماناً بأن الحرية الموجهة هي السبيل الوحيد للوصول إلى

---

[170] الهوية والعنف، عالم المعرفة، ص 66.

الإيمان ، ولقوة الفكر الجديد. وينقل لنا بعض ذلك تاريخ الخلافة العباسية، في عصر المأمون الذي عقد للإمام علي بن موسى الإمام الثامن من أئمة أهل البيت، ندوة مفتوحة أقام فيها الحوار الحر الشامل مع أهل الفرق والديانات والملل المختلفة في إطار من الحرية والتسامح الرائع المطلق." [171]

هذه الديمقراطية العربية سبقت بعهود ما يسمى ديمقراطية اليوم التي تقوم بتشويه صورة العرب. "ويمكن نقل ما ذكرته صحيفة تشرين من أن الكثير من وسائل الإعلام الغربية كما تقول الباحثة "هونكة" تصور العرب بأنهم رعاة ماعز بثياب مهلهلة. وتذكر الصحيفة أن الباحث السويسري "ريتوبيت" يشير إلى قاموس Thesaurus Merriam Webster. يعرف لفظة عربي كما يلي: متشرد – عاطل عن العمل – إنسان بلا هدف – متسكع – غشاش – نصاب – قاطع رقاب. وفي موسوعة أوكسفورد المرجعية للأطفال يتم تعريف العربي على النحو التالي: هو صاحب دكان مكار يكمن في دكانه كي يقنع زبوناً غربياً بشراء سجادة بضعفي ثمنها الأصلي، هو عامل يرتدي ثياب رثة، ينام في الشوارع، وهو فلاح يركب حماره ويترك زوجته تسير خلفه بثيابها السوداء حاملة جرة فوق رأسها." [172]

فإذا كانت الديمقراطية تعني قبول واحترام الآخر، فهل هذا القبول موجود في المجتمعات التي تدعي أنها تعبر عن ديمقراطية صادقة وحقيقية. "فالغرب بدعواه أنه مركز الحضارة الديمقراطية؛ لم يمنع إنتاج العنصرية والحروب الدينية والقومية والاستعمارية والنظم الفاشية والحروب الكونية التي جعلت هذه المجتمعات الديمقراطية تتفوق على وحشية الإنسان البدائي في الإبادة والتدمير، ولم تمنعها من أثرة الرأسمالية المتوحشة التي جعلت وتجعل (20٪)

---

[171] الإسلام ومنطق القوة، ص، 119.

[172] قضية الإرهاب بين الحق والباطل، ص، 18.

من البشر هم سكان الشمال الأوروبي الديمقراطي يستأثرون ب (86٪) من خيرات العالم، تاركين (14٪) من ثروات العالم ل (80٪) من السكان، ولم تمنع التطبيقات الغربية للديمقراطية من أن تكون التجارة الأولى تجارة السلاح، تليها تجارة المخدرات، تليها تجارة الدعارة." [173]

" وتحت شعارات تحسين النسل قامت في بعض الديمقراطيات الصناعية محاولات للحد من نسل الأشخاص الذين يوضعون في منزلة دنيا على أساس ذكائهم أو هويتهم الثقافية أو العرقية أو أي معيار آخر. ولقد أجريت في الولايات المتحدة عمليات تعقيم بدون إعلان أو موافقة لنحو ستين ألف امرأة من أكثر العناصر المقهورة اجتماعياً بدعوى التخلف العقلي، وتم ذلك بتأييد من العلماء الوطنيين والقادة التقدميين خلال العقدين الثالث والرابع من القرن العشرين، ولكن هذا العمل استمر في مستشفى واحد من مستشفيات الدولة على الأقل حتى عام 1960. وهناك حالياً حوار قوي يركز على المتخلفين عقليا أو المصابين بأمراض عقلية لإقناعهم بقبول تنظيم الأسرة طوعاً. ولئن كان قسم الصحة العقلية في منظمة الصحة العالمية قد أحجم لأسباب سياسية عن التورط في هذا الموضوع، إلا أن بعض مكاتب المنظمة التي تعمل مع الهيئات غير الحكومية قد اهتمت به." [174]

وإذا كانت الديمقراطية تعني انتخابات حرة ونزيهة هذا يعني أن يستطيع كل من لديه الكفاءة اللازمة لإدارة شؤون البلاد أن يترشح في الانتخابات، ولكن الواقع عكس ذلك تماماً فإن أصحاب الكفاءة والخبرة والنزاهة لا يمكنهم خوض الانتخابات إلا إذا كانوا من أصحاب الثروات، فالسياسة مكلفة للغاية ولا سيما في الولايات المتحدة الدولة التي تُصنف الأولى من حيث الديمقراطية. "

---

[173] دور الإعلام في التغيير والحراك الجتماعي، ص 103.

[174] تقنيات الطب البيولوجية وحقوق الإنسان، ص 69.

ففي الترشح للانتخابات الرئاسية للعام 2000 جميع المتقدمون للترشيح أنفقوا ما يزيد عن بليون دولار، وهو أكبر مبلغ للترشيح في الولايات المتحدة، وكان المبلغ الذي أُنفق عام 1996 على انتخابات الكونغرس 651 مليون دولار، وانتخابات مجلس النواب ومجلس الشيوخ النصفية في العام 1998 تزيد على بليون دولار، أي سبعة أضعاف ما أُنفق على انتخابات العام 1978، ويكاد يكون هذا ضعفي ما أُنفق في العام 1992، ومعدل تكلفة انتخاب الفرد في مجلس الشيوخ ستة ملايين دولار، وهذا يعني أن على كل عضو في مجلس الشيوخ أو كل مرشح فاشل أن يجمع ما معدله 2750 دولاراً كل يوم من السنوات الست – مدة عضويته- ليسدد هذه التكاليف. إن الوصول إلى وظيفة سياسية منتخبة في الولايات المتحدة هي الآن تكاد تكون مقصورة على الأغنياء حقاً."[175] وهل الديمقراطية تعني فرض عقوبات على الدول كالعقوبات التي فُرضت على العراق مثلاً، حيث كان الفقراء هم أكثر المتضررين. "وقد اعترفت وكالات الأمم المتحدة بأن ما يصل إلى خمسة آلاف طفل ماتوا من سوء التغذية وتراجع الخدمات الطبية، كما أن نحو مليون عراقي ماتوا منذ العام 1991 كنتيجة غير مباشرة للعقوبات المفروضة من بلد يبشر بحقوق الإنسان على المسرح الدولي، وهذا البلد يتجاهل التقارير التي تتحدث عن انتهاكات الحقوق في سجونه."[176]

وهل الديمقراطية تعني طمس وإخفاء معالم الأقليات وإهمال حقوقهم. على سبيل المثال: " عندما جاء دور التصويت على مسودة إعلان حقوق السكان الأصليين في مجلس حقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة في يوليو 2006 تبنته

---

[175] السيطرة الصامتة، ص، 110- 111.

[176] السيطرة الصامتة ص 90.

ودعمته الدول النامية في مقابل اعتراض كثير من البلدان الغربية بما فيها الولايات المتحدة، وكندا، ونيوزلاندا، وأستراليا." [177]

مع العلم أن مساندة التنوع العرقي توسع الحرية، وتعزز الحقوق الإنسانية، وتقلل من خطر العنصرية، وتعمق الديمقراطية. وإذا كانت التعددية الثقافية معترف بها وهي من ضمن شرعة حقوق الإنسان فلماذا تُنتهك هذه المواثيق الدولية التي أقرتها الأمم المتحدة. " والنقطة المرجعية لهذا التغيير العام هي أحد شروط العهد الدولي للحقوق السياسية والمدنية (ICCPR) الذي أعلنته الأمم المتحدة في العام 1966، حيث يرد في البند رقم 27:" في الدول التي توجد فيها أقليات عرقية أو دينية أو لغوية فإن الأشخاص الذين ينتمون إلى مثل هذه الأقليات لا يُنكر حقهم في الاجتماع مع الأعضاء الآخرين في جماعتهم، والاستمتاع بثقافتهم الخاصة، وممارسة طقوس دينهم الخاص أو استخدام لغتهم الخاصة." [178]

ووفقاً لليونسكو حقوق الأقليات هي جانب أساسي من حقوق الإنسان. والدولة هي السلطة التي تعمل على تنظيم أمور المواطنين، مثل تنفيذ القوانين وتشريعها، وتحقيق العدالة والأمن، وحماية الاقتصاد، فالدولة وجدت لتحقيق كل ما يؤمن مصالح كل الشعب. والدولة لا تكون دولة ديمقراطية إلا إذا حظيت بموافقة كل الأفراد عليها. ولكن حين لا تعطى هذه الحقوق بالتساوي، فتبقى معظم الأقليات مهمشة، لا يكون هناك ديمقراطية.

" ولا تحمي الأنظمة الديمقراطية الحديثة الحق بالحياة، معظمها يحمي الحياة إذا تعرضت لاعتداء جسدي وبعض هذه الأنظمة كالنظام الأمريكي يعتبر أن من واجبات الحكومة تأمين الحماية الجسدية للمواطن عبر إنشاء مراكز

---

[177] السيطرة الصامتة، ص 27.

[178] أوديسا التعددية الثقافية، ص 54.

الإطفاء، ودوائر الشرطة لكن على المواطن أن يتحمل وحده وزر التفتيش عن عمل شريف وقوتٍ كافٍ وعناية طبية لائقة."[179] وإذا كنا نتحدث عن الديمقراطية وإعطاء الحقوق للمواطنين يصبح من واجب أي حكومة تأمين العمل والعناية الصحية والطعام لكل المواطنين، لكن من الواضح أن المواطن الأمريكي لا يتمتع بكامل الحقوق التي تقوم عليها المبادئ الديمقراطية، فالمواطن الأمريكي يبذل كل جهوده لتأمين هذه المتطلبات الحياتية من غذاء وعلاج وهو لا يملك الحرية في اختيار العمل الذي يحب بل هو مجبر على عمل كل ما بوسعه للحفاظ على عمله الذي يقوم به خشية أن لا يجد غيره، مثلاً:"العاملون في صناعة الأسلحة في الولايات المتحدة ينتخبون ممثلين عنهم مؤيدين لزيادة ميزانية السلاح كي تبقى لهم وظائفهم لأن حق العمل ليس محمياً في الولايات المتحدة، وهم لا يستطيعون المخاطرة بوظائفهم خشية عدم إيجاد غيرها."[180] حتى ولو كانت زيادة ميزانية السلاح تأتي على حساب حرمان الطبقة العاملة من أمور أهم من السلاح ومن الواضح أن الإنفاق العسكري الأمريكي لا يضاهيه إنفاق أي دولة في العالم.

والسؤال هنا إلى أي مدى تتوافق سياسة الديمقراطية والسياسة الداعية لتأمين حقوق الإنسان مع هذا الكم من السلاح وضد من سيستخدم هذا السلاح ؟ هل سيستخدم ضد كائنات غير بشرية آتية من العالم الآخر، ومن هي هذه القوى الشريرة بنظر أمريكا المسالمة.! وهل الديمقراطية تتحقق بأفكار يطلقها رؤساء أمريكا : "فقول الرئيس جورج بوش الأب في أوائل التسعينات "إن القرن القادم ينبغي له أن يكون أمريكياً" هو امتداد لقول الرئيس روزفلت في الأربعينات "إن قدرنا هو أمركة العالم" ولا يختلف عنه الرئيس نيكسون

---

[179] الجوع في العالم، ص 105.

[180] الجوع في العالم ص 164.

الذي يقول "يجب على أمريكا أن تقود العالم" [181] " إن النظام العالمي الجديد بمفهومه الأمريكي لم يستطع إقامة عالم مستقر آمن، إنما تميز بسياسات القوة والمنافسة القومية والتوترات الأثنية والعرقية، وهذا ما جعل العديد من الدول يعاني غطرسة القوة الأمريكية فعلى سبيل المثال: فرضت الحكومة الكندية في اتفاقية التبادل التجاري الحر بينها وبين الولايات المتحدة على الولايات المتحدة الأمريكية استبعاد كل الصناعات الثقافية والإعلامية. وفي فرنسا هناك إجماع على اتخاذ كل الإجراءات الكفيلة بحماية اللغة والثقافة الفرنسية من التأثير الأمريكي، ولذلك يدرك بعض المفكرين والباحثين أنه لا الحلفاء الأقربون للولايات المتحدة، ولا الأمم المتحدة وأجهزتها سيقبلون في المستقبل قرارات وتدابير الولايات المتحدة". [182] وهل الديمقراطية تتوافق مع التصلب الأمريكي تجاه الأزمات التي توجهها سوريا، البلد الذي كان يصنف من الدول الأولى من حيث الأمان، فكل ما يحصل مؤخراً من مآسي ودمار هو بسبب إصرار أمريكا على إدانة سوريا، رغماً عن الملايين الذين وقفوا في وجه هذه الإدانة.

ولكن رغم الجهود التي تبذلها أمريكا للتأثير على قرارات الدول الكبرى ورغم محاولاتها لخلق انشقاقات بين الدول بغية إضعافها والسيطرة عليها لن تتمكن من تحقيق مآربها مثلاً: " تلعب الولايات المتحدة الأمريكية دوراً مساعداً بدفع الصين واليابان بعيداً عن بعضهما بعضاً ، ويعتقد المتشددون في واشنطن أن أمريكا تستفيد من إفساد العلاقة الصينية اليابانية ، ولكن في المدى البعيد لا يساعد النزاع بين الصين واليابان أحداً حيث أنه يسبب عدم الاستقرار الأمني والاقتصادي في آسيا." [183]

[181] عالم الفكر العدد 31،ص 15.

[182] مجلة عالم الفكر العدد 31 ص 16.

[183] مجلة الثقافة العالمية، الكويت، العدد 157، ص 195.

وهل الديمقراطية الحديثة ساهمت في تقليص المسافة بين الأغنياء والفقراء في العالم والأمثلة كثيرة على ذلك: " يستهلك الفرد في أمريكا الشمالية خمسة أضعاف ما يستهلكه الصيني، وثلاثين ضعف ما يستهلكه الفرد في الهند، ولم يشهد التاريخ الحديث مثل هذه الهوة التي تفصل بين الأغنياء والفقراء، ولا مثل هذه الأعداد من المستبعدين أو الذين لا نصير لهم، فهناك 450 مليون أمريكي لا يتمتعون بالتأمين الصحي، وفي لندن يترصد الذين يغسلون زجاج السيارات متأبطين مساحات وحاملين دلاء من المياه القذرة السائقين عند إشارات المرور، أما في مانهاتن فيفتش أُناس في الحاويات عن علب المشروبات الفارغة مقابل خمسة سنتات ثمن العلبة الفارغة. وفي الوقت الذي يُنفق فيه الأمريكيون سنوياً ثمانية بلايين دولار على مواد التجميل، لا يجد فيه العالم تسعة بلايين دولار لتوفير ماء الشرب النظيف والمرافق الصحية. وقد ارتفع دخل أفقر العائلات الأمريكية خلال السنوات العشر التي بدأت في العام 1988 إلى أقل من واحد في المائة، بينما قفز إلى 15٪ لخمس أغنى الأغنياء. وعلى الرغم من انخفاض أرقام العمال العاطلين عن العمل في تلك البلاد فإن 11 مليونا من العمال الأمريكيين العاملين، وطفلاً واحد بين كل خمسة أطفال أمريكيين هم في عداد الفقراء." [184]

لم تكن الديمقراطية هدف السياسة الأمريكية، الهدف كان المصالح التجارية، وحين. تصطدم الإدارة الأمريكية بمعوقات تعيق عمل شركاتها وتقلص أرباحها في أي دولة، فإنها ستعمل على الإطاحة بأنظمة هذه الدول، فالحكومات الأمريكية تضع دائماً مصالح شركاتها على أول سلم مخططاتها. مثلاً: " في العام 1954 أسهمت الولايات المتحدة في الإطاحة برئيس حكومة غواتيمالا المنتخب يعقوب أربنز بعد أن انتزع ملكية 80٪ من مزارع

---

[184] السيطرة الصامتة، نورينا هيرتس، عالم المعرفة، العدد 336، ص 12- 15.

tiquisate and bananera التي كانت تمتلكها في ذلك الحين شركة الفواكه المتحدة الأمريكية، وكانت حكومة arbenz الإصلاحية قد انتزعت هذه الممتلكات انتقاماً من الشركة الأمريكية التي لم تكن تعيد استثمار شيء من أرباحها أو توزعه في غواتيمالا. وفي العام 1964 شجعت الولايات المتحدة السياسيين خوزيه ماغاليس بينيتو، وأمبيرتو دي آلينكار كاستيلو برانكو، اللذين كان يناصرهما الجيش في محاولتهما الناجحة لقلب حكومة البرازيل التي كانت منتخبة ديموقراطياً، والتي كانت سياساتها الاقتصادية غير مقبولة لدى واشنطن لأنها كانت ذات توجهات يسارية، ففرض النظام الجديد على البرازيل حكماً عسكرياً طيلة عشرين سنة، وخلال هذين العقدين كانت الولايات المتحدة أفضل شريك تجاري لهذا النظام. واجتذبت البرازيل استثمارات من الولايات المتحدة أكثر من أي بلد آخر في أمريكا اللاتينية... والأنظمة السلطوية (التسلطية) كتلك القائمة في الفيليبين والتشيلي وجنوب أفريقيا لم تكن ديموقراطية، وكثيراً ما كانت تضطهد شعوبها بقسوة وعنف، وكانت عادة فاسدة، ولكن لأنها تشارك في الإيمان الأمريكي بأنظمة الاقتصاد المفتوح، فقد كان سائغاً لأمريكا أن تعمل معها... ومن الواضح إذ عندما تتحدث الولايات المتحدة عن نشر الديمقراطية فإن ما تعنيه حقاً هو نشر ما يروق لها من الديمقراطية الليبرالية." [185]

[185] السيطرة الصامتة، ص 93- 94.

آراء حول الديمقراطية

أفلاطون كره الديمقراطية، وكما يرى فهي تنزلق دوماً نحو العنف لغياب الوازع، فيحتقر الأبناء آبائهم والطلاب معلميهم. والحكم الصحيح هو الذي تحكمه النخبة الفاضلة: يقول أفلاطون:" لقد أمعنت النظر في معترك الحياة السياسية وانتهى بي المطاف أن أتبين بوضوح أن جميع أنظمة الحكم الموجودة الآن، وبلا استثناء أنظمة فاسدة فدساتيرها لا يمكن إصلاحها إلا بمعجزة، ولقد استفحل فساد التشريع والأخلاق العامة بصورة مخيفة، بحيث أصابني الدوار في النهاية أمام هذا الاضطراب السافل وأنا الذي كنت في النهاية مفعم النفس بالحماسة للحياة السياسية." [186]

روسو يتساءل: ما الحكومة التي يمكنها أن تضمن حقوق كل الشعب، وهو يدين الحكومة الديمقراطية ويعتبرها حكومة سيئة، ويقول لا توجد مطلقاً ديمقراطية حقيقية، ولا يمكن أن توجد أبداً، فلا يمكن أن نتصور حكومة مكونة من عدد من الوزراء يساوي عدد المواطنين، ليكون كل مواطن يمارس السلطة التنفيذية، ولا يمكن أن نتصور أن تجمع كل الشعب للتصويت على القوانين العامة. فالديمقراطية الحقيقية هي حين يمارس الشعب السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية وهذا يعني دمج السلطات أي حكومة مباشرة. ولا تكون الإرادة حقيقية عامة إلا إذا منعنا تدخل المفاهيم الخاصة، وخاصةً تلك المكونة من خلال مجتمع جزئي مثل جمعية أو حزب، أو عصبة، لأن تدخل هذه الآراء سيكون على حساب المجتمع الكبير، أو الكيان السياسي، أو صاحب السلطان الذي انتخبه الشعب. فالسيادة عند روسو مطلقة، كما إن

---

[186] الطاغية، ص 137.

الطبيعة تعطي سلطة مطلقة كاملة للإنسان على كل أعضائه فإن الميثاق الاجتماعي يعطي الكيان السياسي سلطة مطلقة على كل أعضائه. روسو يعترف بوحدة السيادة ولا يجوز تقسيم السيادة إلى سلطة تنفيذية وسلطة تشريعية، وحين تُقسم السيادة تقضي على صاحب السلطان والعصمة. فصاحب السيادة هو مكون من أفراد انتخبوه ولا يمكن أن تكون له مصلحة ضد مصالحهم. ومن المستحيل أن يريد الكيان إيذاء أعضائه. الحرية عند روسو تعني التمسك بالقانون، وبفضل القانون تصبح التبعية ليس لأفراد بل لأشياء، فالقانون وحده يعبر عن الإرادة العامة، والإرادة العامة تعني الشعب، إذاً يصبح الشعب صاحب السيادة.

والديمقراطية حسب أرسطو أقرب ما تكون إلى الفوضى حيث يصبح كل فرد حراً في سلوكه وتصرفاته ولا يردعه رادع ، كما في الأسرة عندما يكون رب الأسرة ضعيفاً يستطيع كل فرد من أفراد الأسرة أن يسير على هواه، والديمقراطية بنظر أرسطو ضرباً من طغيان الدهماء واستبداد العامة، فالديمقراطية الأثينية أعدمت شيخ الفلاسفة سقراط.

أفلاطون يرى أن :"الديمقراطية تدمر نفسها بنفسها عندما تصل إلى حدها الأقصى فتنقلب إلى فوضى وبدلاً من أن يحكم الشعب نفسه بنفسه نرى حكم الجماهير أو الغوغاء الذي هو بحر هائج يتعذر على سفينة الدولة السير فيه، لأن كل ريح من خطابة أو شعوذة من جانب الخطباء تحرك المياه وتعطل طريق السير وتكون النتيجة أن يقفز الطاغية إلى كرسي الحكم لكي ينقذ البلاد من الفوضى وهكذا تنشأ الحكومة الاستبدادية." [187] " ظاهرة التلاعب بمشاعر الجماهير والسيطرة على الشعب باسم الشعب وباسم الديمقراطية، ظاهرة قديمة قدم الديمقراطية نفسها. وهذا التخوف جعل

[187] الطاغية ص 144

أفلاطون في القرن الرابع يرفض الديمقراطية، ويعتقد أنه من السهل تحويلها إلى فوضى؛ وهذا ما جعل **جون ستوارت مل** و **أليكس دي توكفيل** في القرن التاسع عشر يتحدثان عن طغيان الأغلبية؛ إذ يرى **مل** مثلاً أن "طغيان الأغلبية" أصبح الآن يندرج بصفة عامة بين الشرور التي ينبغي على المجتمع أن يحترس منها، فهذا الضرب من الطغيان أدهى وأمر من كثير من ضروب الاضطهاد السياسي ثم يقول:"فإنه لا يكفي حماية الفرد من طغيان الحاكم وإنما الحاجة ماسة إلى حمايته من طغيان الرأي العام، والشعور السائد، وميل المجتمع لفرض الآراء والمشاعر على الفرد الذي يرفض قبولها." [188]

مارتن لوثر يشن حملة عنيفة على الشعب: "لو كان لا بد لنا من معاناة الألم فخير لنا أن نعانيه على يد الحكام أفضل من أن نعانيه على يد رعاياهم ذلك لأن الرعاع لا يعرفون الاعتدال، ولا يعرفون أن كل فرد من الغوغاء يثير من الألم أكثر مما يثيره خمسة من الطغاة. ولهذا كان من الأفضل أن نعاني الألم من الطاغية، أو من الحاكم المستبد بصفة عامة، عن أن نعانيه من عدد لا حصر له من الطغاة الغوغاء. ومهما كان حكم الطغيان والتوحش والأعمال العنيفة اللامعقولة التي يمارسها أي حاكم سيء لا يمكن أن تبلغ من السوء ما يبلغه حكم الغوغاء. - ويصف لوثر الشعب بعبارات بالغة السوء – "فكما أن الحمار يريد أن يتلقى الضربات، كذلك يريد الشعب أن يكون محكوماً بوساطة القوة، إن الله لم يعط الحكام "ذنب ثعلب" يستعمل في رفع الغبار، وإنما أعطاهم سيفاً، لأن الرحمة ليس لها دور في مملكة العالم – التي هي خادمة لغضب الرب ضد الأشرار وتمهيد عادل لجهنم والموت الأبدي." [189]

---

[188] الطاغية ص 104.

[189] الطاغية ص 208.

متى تُمنح الحرية

"**ستيوارت مل**" يقول: لا يجوز منح الحرية لدولة قبل أن يتهيأ الناس فيها وتكون لديهم القدرة على تحسين أوضاعهم بالمناقشات الحرة على قدم المساواة. "المجتمعات المتخلفة تحتاج إلى القصر ولهذا فإن نظام الاستبداد مشروع كنمط من أنماط الحكم في حكم الهمج والبرابرة شريطة أن تكون الغاية المنشودة هي إصلاحهم ".

والحل لمشكلات الشرق في فكر **جمال الدين الأفغاني** لا يكون إلا بوجود الحاكم المستبد العادل الذي يحكم بالشورى ويعمل على نشر المعارف بين جميع الأفراد ومتى عمت المعارف اتحدت الكلمة واجتمعت القوة. " إنما العمل العظيم إنما يقوم به سلطان قوي قاهر، يحمل الأمة على ما تكره أزماناً حتى تذوق لذته وتجني ثمرته... ولا يحيا الشرق بدوله وإماراته إلا إذا أتاح الله لكل مواطن منهم رجلاً قوياً عادلاً يحكمه بأهله على غير التفرد بالقوة والسلطان.

إن الحكومات التي لا تنظر إلى التوجه الإنساني قبل التوجه المالي هي حكومات فاشلة ولن تحقق المكاسب للوطن، فالتنمية تعتمد بالدرجة الأولى على نشر القيم والمعرفة، فالمعرفة أساس النظام والنجاح والتطور والصحة ولا شيء يتحقق من غير المعرفة. فالفقر قد لا يكون سببه غلاء المعيشة أو عدم وجود فرص عمل، بل قد يكون سببه تدني مستوى الوعي، فتقدم المجتمع يتوقف على مفكريه، والعنف يدخل مباشرة من باب الجهل.

هل وجود الرادع ضروري للحد من الميول؟

هوبز يبرر الحاجة إلى الترهيب والقوة حتى لا يفعل كل إنسان ما يحلو له، فالحرية المطلقة دون وجود رادع أمر فظيع. هوبز يرى أن الحرية المطلقة للأفراد عقيمة فحين يمتلك الإنسان الحق بأن يفعل ما يشاء فإن كل فرد سيفعل ما يشاء، ولكن ما يُريح بعض الأفراد لا يُريح الآخرين، وإذا كان على كل فرد أن يتحمل ما يُعجب غيره هذا يسبب له الضيق وعدم الأمان، وإذا امتلك كل واحد من الناس الحق على كل شيء فإنه لا يستطيع أن يتمتع بأي شيء، ففي الطور الأول أو الحياة الطبيعية البدائية كان كل إنسان يستطيع أن يسلب أو يقتل أي إنسان آخر، ولهذا السبب كان لا بد من مواثيق اجتماعية لتأمين الحماية للأفراد. وهذه المنافسة بين البشر وعدم الثقة بينهم، والرغبة الجامحة عند بعضهم في المجد والشهرة تكون نتيجتها الحرب الدائمة. ولا يمكن أن تتحقق العدالة إلا بوجود حاكم قوي يستطيع بقوته أن يحقق العدالة والمصلحة العامة.

لو تُرك الإنسان على سجيته دون رادع سوف ينجر بسهولة باتجاه كل ما يحلو له، غير عابئ بما ستسببه هذه الميول من مشاكل وأزمات. خاصةً أن المجتمعات البشرية هي مجتمعات مفتوحة تتسرب إليها العادات بالتدريج، وبالتالي هناك عادات جيدة وعادات سلبية، والاتجاه السلبي يتمثل بتعلم الجريمة والنصب والاحتيال أو ما شابه. وهذا الانفتاح يدفع باتجاه العادات المستجدة دون معرفة مدى توافقها مع فكر المجتمع. والتطوير الإيجابي يكون من خلال التوعية وإعمال العقل والتأمل، أما التطوير السلبي فيكون من خلال الغرائز والمحاكاة ، دون اللجوء إلى العقل والمنطق. **كانط** يعتبر أن السلوك الأخلاقي هو ما يتفق مع العقل، والسلوك الأخلاقي لا يقوم على الدوافع

والميول بل على إرادة العاقل. **سبينوزا** يعتبر الإنسان حراً بقدر ما يهتدي إلى العقل، والواقع أن الأفراد الذين تسيطر عليهم الشهوة لا يستطيعون أن يروا أو يفعلوا ما تتطلبه المصلحة الحقيقية، بالنسبة إلى سبينوزا فإن كل كائن حي سواء كان إنسان أو حيوان يتصرف وفق طبيعته وغاية الإنسان أو أي كائن آخر المحافظة على وجوده، ولكن المشكلة أن معظم الناس تعيش وفق قانون الرغبة والشهوة وليس وفق قوانين العقل، فالعقل الإنساني هو من ينظم حياة الناس، أما الغرائز فلا تحقق الحماية على الإطلاق. القديس **توما الأكويني** اعتبر أن شهوات الإنسان هي الأصل في غالبية الجرائم؛ وللدين الصادق أثر مهم في حياة الأفراد، فهو يحد من ارتكاب الجريمة وارتكاب المعصية، ولا بد من قوانين صارمة تعمل على ضبط السلوك. والفرد الذي يخرج عن قوانين الجماعة يُعتبر شاذاً، فالمجتمع قائم على القيم التي تمد الإنسان بالقوة وتجنبه الوقوع في الخطأ.

ولكن ما طبيعة الحكومة القادرة على تكوين الشعب الأكثر فضيلة؟ وهذا السؤال يضع **روسو** أمام سؤال آخر وهو ما الحكومة التي بطبيعتها تلتزم بالقانون وما القانون؟. روسو لا يعتبر القانون ميثاق خضوع فالقانون يعبر عن الإرادة العامة إرادة كامل الشعب، وهذا يعني أن الشعب هو صاحب السيادة وليس شخص الحاكم.

ونظام الدولة الذي يراعي مصالح الشعب لا تُعتبر إطاعة أحكامه نوعاً من العبودية بل حرية لشعبه. ويجب على الجميع إطاعة الحاكم الذي يعمل وفق المصلحة العامة. ومصلحة الحاكم تقتضي أن يتصرف وفقاً لأحكام العقل، لكي يبقى في مركزه ويحبه الشعب. ولا يتحقق السلام إلا باحترام القوانين العامة للبلد وغاية الديمقراطية تخليص الناس من سيطرة الشهوة العمياء.

ومن أبرز المفكرين الذين قارنوا بين الحرية المطلقة التي كانت في الطور الطبيعي قبل وجود القوانين حيث كان الإنسان البدائي يفعل ما يشاء وبين المجتمعات المتحضرة الخاضعة لمنظومة القيم والقوانين هما **"لوك"** و"**هوبز**" لوك صور الحالة الطبيعية حين كان الإنسان يفعل ما يحلو له وكأنها الفردوس ولكن ذلك لا يمنع بالنسبة له بأن تكون الحالة المدنية والقوانين هي حالة أفضل من الحرية المطلقة.

أما "هوبز" فهو على العكس فقد صور المجتمعات قبل وجود القوانين والأنظمة كأنها الجحيم والحرب الدائمة الكل ضد الكل وكان من الضروري مغادرة هذه الحالة بإقامة المجتمع. هوبز ولد في ظروف سياسية غير مستقرة مشحونة بالخلافات لقد كره هوبز أن يعيش في هذا الجو من الخوف فيقول:"أنا والخوف توأمان" وكره الفكر الوسيط والمناقشات الدينية المحتدمة والحرب الأهلية. هذه الحرب هي التي تجعل الإنسان ذئباً وتؤدي إلى الخوف والرهبة من الموت ومن العنف، وكل فرد يريد أن يُخضع الآخر وهذه المنافسة وعدم الثقة بين الناس والرغبة الجامحة عند بعضهم إلى الشهرة العمياء تكون نتائجها الحرب الدائمة. ولا يمكن أن تتحقق العدالة إلا بوجود حاكم قوي يستطيع بقوته أن يحقق العدالة والمصلحة العامة. أما الحرية المطلقة للأفراد عقيمة فحين يمتلك الإنسان الحق بأن يفعل ما يشاء فإن كل فرد سيفعل ما يشاء وإن ما يريح بعض الأفراد لا يؤمن الراحة للقسم الآخر، وإذا كان على كل فرد أن يتحمل ما يُعجب غيره هذا سيسبب له الضيق وعدم الأمان، وإذا امتلك كل واحد من الناس الحق على كل شيء فإنه لن يستطيع التمتع بأي شيء، ففي الحالة البدائية كان الإنسان يستطيع أن يسلب أو يقتل أي إنسان آخر، وكان يتعرض بدوره للقتل والسرقة، وهذه شريعة الغابة، ولكن في المجتمع المدني يتنازل الأفراد عن جزء من حريتهم المطلقة مقابل الحماية التي يؤمنها حكم

العقل والمعرفة والرفق... وصاحب السلطان يستطيع بقوته أن يوجه إرادة الكل نحو السلم والأمن في الداخل والعون ضد الأعداء في الخارج، فالمواثيق كما يقول هوبز "بدون السيف ليست إلا كلمات". وصاحب السلطان عنده ليس المستبد الطاغية بل هو المستبد المتنور الحكيم وهو الذي يرجع إليه الأفراد بكل ثقة للدفاع عن حقوقهم.

"**مونتسكيو**" في كتابه روح الشرائع شبه الحرية بالفوضى ولا يوجد حرية مطلقة فالحرية تحتاج إلى حدود عند الشعب وعند الحاكم، وإذا كان كل إنسان يريد أن يفعل ما يشاء فهذه ليست حرية بل فوضى، وكل إنسان يفسر السياسة كما يريد فأصحاب النظام الملكي يعتقدون أن الحرية موجودة في النظام الملكي، وأصحاب النظام الجمهوري يرون الحرية في النظام الجمهوري، وبما أن كل إنسان كائن محدود الفكر فهو عرضة للخطأ أو الجهل فلا يؤخذ على الإطلاق برأي الفكر الواحد.

يحيي بن عُدي في كتابه "تهذيب الأخلاق" يرى أن الأخلاق المذمومة موجودة في كثير من الناس، فالإنسان إذا استرسل مع طبعه وتحكمت به الغريزة ولم يستعمل التمييز والفكر كان الغالب عليه أخلاق البهائم، والإنسان يتميز عن البهائم بالفكر والتمييز، والناس منقادون للشهوات ولهذا يحتاجون لمن يرشدهم لقمع الشهوات، وأخطر الناس وأحقر الناس هو الإنسان الذي لا يخجل بعيوبه، أما الإنسان الذي يتنبه لعيوبه ويحاول إصلاحها هو إنسان صالح، والذي نُبه عن عيوبه ولا يهتم لإصلاحها مع علمه برداءتها فهو يحتاج من يقمع عنده هذه الأخلاق الرديئة بالقوة، لأن هذا الإنسان يصبح أشبه بالبهائم ويصبح كارهاً لأهل العلم ومحباً لأهل الجور والملذات والمال ، وإذا تعذر عليه المال يحصل عليه بشتى الظروف الغير مشروعة، ويكون من الأفضل نفيه ومحاكمته حتى لا يضر بغيره، وعلى الإنسان إذا كانت نفسه

غضبية أن يروض نفسه ليخفف من الغضب بالابتعاد عن مجالس الأشرار وعن الحروب وحمل السلاح.

ومما يزيد حدة الأعمال العدوانية هذه الحضارة المزعومة التي تتحرر من الضوابط الاجتماعية " إن الأخلاق والضمير هما الطريقتان اللتان تحرران نزعة العدوان لدى الفرد من سلاحها. من هنا تصبح العلاقات دفاعاً ثانوياً ضد فرد عدواني بالأساس . حيث كانت تلك العلاقات بين الأعضاء الاجتماعيين ضرورية لكبح دوافعهم العدوانية الخاصة. إن غايات الحضارة في جملة إنجازاتها من العطاءات الإنسانية هي وقاية البشر من الطبيعة وتنظيم علاقاتهم المتبادلة. ومن دون الضبط تصبح العلاقات خاضعة لإرادة الفرد الاعتباطية ولإرادة الرجل الأقوى الذي يعمل لتحقيق مصالحه الخاصة وإشباع دوافعه الغريزية." [190]

" ووفقاً **لريكور** فإن السلطة تضع حداً للرغبة في اللاوعي، فاللاوعي هو ينبوع رغبة دائم ومع ذلك ليس لقوة القوة الكابتة للسلطة تاريخ، بل هي ذاتها تاريخ الفرد من الطفولة إلى سن البلوغ وهي تاريخ الإنسانية منذ ما قبل التاريخ إلى التاريخ. فيصبح مشروع فرويد عبارة عن تنسيق تاريخ تطور الفرد وتاريخ تطور العرق، وهو أصل سمات الفرد والبشرية، وبوصفها تاريخية تُنتج واسطة الكبت تطور الفرد والبشرية، وبوصفها تاريخية تنتج تواريخ القوانين والمعتقدات والأعراف في مرتبة أدنى. فالمكبوت ليس له تاريخ، لكن واسطة الكبت هي بمنزلة تاريخ.

ويرى بعض المحللين بأن الحرية اليوم باتت مصحوبة بالشذوذ والفوضى والجرائم، والأسلحة منتشرة بكثرة، ولهذا ينبغي أن تكون العقوبات رادعة. ولكن "هناك اليوم اتجاه في المجتمعات الحرة إلى تخفيف العقوبات على

---

[190] الأنماط الثقافية للعنف، ص 126.

المتهمين لتكون أقل قسوة، حتى أن رجال البوليس يعبرون عن شكواهم من أن المجرمين الذين لم يسبق لهم اللجوء إلى العنف، يحملون اليوم الأسلحة وهم على استعداد لارتكاب الجرائم لأن الفرق في العقوبة لن يختلف كثيراً فيما يتعلق بفداحة الجريمة. وهناك دائماً جدل ساخن بين أولئك الذين يرون أن العقوبة ينبغي أن تكون رادعة، كما هو الحال في سنغافورة. وآخرين يقولون إن مثل هذه العقوبات لن يكون لها التأثير الرادع المتصور، أما بالنسبة لأولئك الذين يفتقرون إلى الشعور الضميري فيما يتصل بانتهاك القانون الأخلاقي، فنجد أن استخدام الأسلحة وارتكاب أعمال العنف لتسهيل اقتراف الجرائم أمر منطقي، وهو ما ينتهي إلى القبض عليهم والحكم عليهم بعقوبة مشددة، لا تبدوا أنها تشكل لهم أمراً خطيراً." [191] حماية الحريات الفردية بهذه الطريقة هو استخفاف بنظام و قيم المجتمع، وما دام المجتمع يدين التعدي على الحقوق والأمن يصبح من الضروري القبول بالقوانين الصارمة التي تحقق الاستقرار والسلم الأهلي، وتحد من خطر الجريمة والعنف. " إن رؤية "**لي كوان يو**" زعيم حزب العمل في سنغافورة قد أثمرت على مدى ثلاثين عاماً، فها هي الجماعات ذات الأجناس المختلفة تعيش معاً في توافق، والشوارع نظيفة وآمنة، والحكومة العلمانية هي الأخ الأكبر تنصح مواطنيها كيف يتصرفون حتى لا يؤذوا حساسيات الأفراد الدينية، وليس هناك تسامح لأي خروج عن هذا، والنمو الاقتصادي مستمر والغذاء كاف والعملية التعليمية منظمة، والرعاية الصحية للجميع، والمكافآت تمنح لمن يستحقها. ومن جانب آخر هناك عقوبات رادعة لمن ينتهك القانون، ومن يزور سنغافورة سوف يرى لافتة حكومية تقول " مرحباً بك في سنغافورة" وبجانبها بالحروف الحمراء لافتة أخرى مكتوب عليها "تحذير ، الموت لمهربي المخدرات في ظل القانون

---

[191] عالم يفيض بسكانه، ص 233.

السنغافوري". وعلى الرغم من عدم وجود مشكلة مخدرات في سنغافورة، نجد أن عدداً قليلاً كل عام يتم إعدامهم من المهربين، هم عادة من اتباع بارونات المخدرات، وتُفرض غرامات قاسية لمن يشوه الشوارع أو يُلقي فيها بأي ركام ، أو يدخن في غير الأماكن المسموح فيها بالتدخين... ويعاقب من يرتكب أعمالاً شريرة بالجلد أو بالسجن، ومع ذلك نجد أن المواطنين السنغافوريين سعداء بسير الأمور في بلادهم. وإذا كنت زائراً فسوف يشرح لك سائقو سيارات الأجرة وأصحاب المحلات كيف تتميز سنغافورة بحياة أفضل كثيراً من البلدان الأخرى، وخاصة الغرب المتدهور بما فيه من معدمين في المدن، وعنف ومخدرات، وسوف تدرك أنهم على حق. وهذه الحقيقة تؤكدها مجموعة دراسات أجريت لمعرفة أكثر الدول أماناً للسفر أو السياحة في العالم فكانت النتائج تؤكد أن سنغافورة هي الدولة الأكثر أماناً في آسية ونسبة الجرائم قياساً لكل 100 ألف نسمة هو 0،38٪ ويعتبر وقوع الجرائم من الأمور النادرة. أما الدولة الثانية فهي النرويج في أوروبا ونسبة الجرائم 0،71٪ لكل 100 ألف نسمة. وإذا بحثنا عن ترتيب أكثر دول العالم التي فيها أعلى معدلات للجريمة بصفة عامة نجد أن الولايات المتحدة الأمريكية تتصدر القائمة فالديمقراطية التي تسمح لكل مواطن حمل السلاح لم تحقق الأمان. " ووفقاً للإحصاءات الرسمية هناك حالة وفاة كل 15 ثانية في الولايات المتحدة الأمريكية نتيجة لأعمال العنف." [192] "وفي الولايات المتحدة هناك مناطق واسعة يتعرض فيها الأجنبي للسرقة والقتل والاغتصاب، وغالباً إلى مخاطر أخرى، ويرتكز نشاط البوليس الأمريكي على احتواء العنف، حيث يلقى بكثير من الشباب في السجون أكثر من أي بلد آخر، فهناك أكثر من مليون شاب أمريكي في السجون، من بينهم 50 ٪ من السود، رغم أن عدد المواطنين الأمريكيين

---

[192] عالم يفيض بسكانه، ص، 140- 162.

السود لا يتجاوز 12 ٪ من مجموع تعداد الشعب الأمريكي، ويبدوا أن التعصب العنصري قد أدى في الماضي إلى تكوين عقلية إجرامية لكثير من الشباب الأمريكي الأسود الذين حرموا من طفولة سعيدة، وتغذوا على ثقافة المخدرات والعنف والابتزاز، مع حياة عائلية تقليدية غير عادية." [193]

[193] عالم يفيض بسكانه، ص، 166.

الفصل العاشر

اللاعنف

هذا العنف الماثل أمامنا اليوم، لم يوجد بالصدفة، بل أنتجته صناعة متقنة، غيبت لغة الحوار وعززت مرتكزات الجهل. وعند تغييب لغة الحوار واعتماد التصلب في الآراء والمواقف، وغياب المحبة والتسامح، حتماً سينتشر العنف المدمر والتطرف الأعمى البعيد عن المنطق.

وما أكثر الذين أخذتهم الأنانية فأوقعوا الناس في تباغض وحروب. فأصحاب الآراء المتصلبة لا تهمهم الفتنة إذا وقعت، ولهذا يستغلهم الغزاة والمستعمرون، فالجهل بالنسبة للمستعمر سلاح أقوى من كل الأسلحة. وما أكثر الذين يمقتون القسوة والعنف ولكنهم أصبحوا اليوم عاجزين محبطين أمام هذا الجنون القاتل. وهل يعقل أن يكون القصاص من نصيب من يقول لا للظلم لا للقتل! أسس غاندي ما عرف في عالم السياسة ب (المقاومة السلمية) أو فلسفة اللاعنف (الساتياغراها)، وتعني الحقيقة والثبات ، ويا ليت هذه الفلسفة أو بعض الفلسفات الشبيهة بها تحل محل السلاح والقتل والتخريب، غاندي يعتبر الكياسة هي أصعب جزء من أجزاء اللاعنف، والكياسة لا تعني مجرد اللطف الخارجي في الحديث المعد لمناسبة من المناسبات، فالكياسة هي اللطف السليقي والرغبة في الإحسان إلى الخصم. أما الوقاحة فهي تفسد مبدأ اللاعنف يقول غاندي: "أن الرجل وعمله شيئان متميزان. ففي حين يتحتم أن يقترن العمل الصالح بالاستحسان والعمل الطالح بالاستهجان، فإن فاعل العمل، سواء كان خيراً أم شراً، يستحق دائماً الاحترام أو الشفقة تبعاً لطبيعة

الحالـة. إن قاعـدة ابغضـوا الإثـم لا الآثـم نـادراً مـا تُطبـق علـى الـرغم مـن سـهولة فهمهـا. وهـذا هـو السـبب الـذي مـن أجلـه ينتشـر سـم الـبغض في العـالم. هـذه "الاهيمسـا" هـي أسـاس البحـث عـن الحقيقـة. وأنـا أدرك كـل يـوم أن البحـث يكون على غير طائل ما لم يتخذ من الاهيمسا أساساً له. إن من السديد أن يقاوم المرء نظاما ويهاجمه، ولكن مقاومة واضعه ومهاجمته توازيان مقاومة المرء نفسه ومهاجمته إياها. ذلك أننا كلنا قد طُلينا بالفرشاة نفسها، وأننا كلنا أولاد خالق واحد، ومن هنا فإن القوى الإلهية التي تعمر نفوسنا لا نهائية. ولأن تمتهن كائناً بشرياً واحداً يعني أن تمتهن هذه القوى الإلهية، وبذلك لا تؤذي ذلك الكائن فحسب، بل تؤذي معه العالم كله. "[194] غاندي لم تمنعه عقيدته الهندوسية من فهم ومحبة الأديان الأخرى – ولكن متعصب هندوسي كان أداة لقتل هذا الإنسان المسالم والمتواضع والتوفيقي - فالمرء يستطيع أن ينمي التعادلية بين الأديان المختلفة ويستطيع أن يحافظ عليها، وعن هذا يقول غاندي: " لقد تعاونت مجموعة من الأحداث في حياتي على إقامة صلات وثيقة بيني وبين رجال من أديان مختلفة، وجاليات مختلفة، وإن في تجربتي معهم جميعاً ما يجيز لي النص على أني لم أعرف أيما تمييز بين الأنسباء والأغراب، وأبناء الوطن والأجانب والبيض والملونيين، والهندوس والهنود من أهل الأديان الأخرى سواء كانوا مسلمين أم بارسيين أم نصارى أم يهوداً. وفي استطاعتي أن أقول أن فؤادي كان عاجزاً، دائماً عن إجراء مثل هذا التمييز. ولست أستطيع أن أعتز بذلك كفضيلة خاصة، لأنها شيء في فطرتي ذاتها وليس ثمرة لأي جهد شخصي في حين أني في مجال "الاهيمسا" وال "آباريغراها" (اللاتملك)وغيرها من الفضائل الرئيسة، أعي أكمل الوعي

[194] قصة تجاربي مع الحقيقة، ص 321.

نضالاً موصولاً من أجل تنميتها." [195] تأثر غاندي بعدد من المؤلفات منها "نشيد الطوباوي" و"موعظة الجبل" في الإنجيل، وتأثر بكتاب الفيلسوف راسكين "حتى الرجل الأخير"، وكتاب الأديب الروسي تولستوي " الخلاص في أنفسكم"، وكتاب الشاعر الأمريكي هنري ديغو تورو "العصيان المدني"، وكذلك تأثر بالبراهماتية وهي عبارة عن فلسفة تمكن الإنسان من التحكم بأهوائه وحواسه بواسطة الزهد والتنسك، وعن طريق الطعام واللباس والصيام والطهارة والصلاة والخشوع والتزام الصمت يوم الاثنين من كل أسبوع. وتعرف غاندي بالصدفة على الفلسفة الثيوصوفية، وقرأ "الجيتا" فتركت انطباعاً عميقة في عقله، وخاصةً هذه الأبيات:

" إذا فكر المرء في أشياء الحس،

فهناك تنبثق الاستمالة. ومن الاستمالة تنشأ الرغبة،

وتتأجج الرغبة فتصبح شهوة، والشهوة تولد الطيش.

ثم أن الذاكرة – وقد خُدعت-

تتخلى عن الهدف النبيل، وتخرب العقل،

حتى يهلك الهدف، والعقل، والإنسان جميعاً." [196]

غاندي يقول بأن التضحية هي أسمى أشكال الدين، ولا يمكنه إتباع الذات الإلهية إلا إذا تخلى عن كل ما يملك. لقد وحد بين تعاليم "الجيتا" الخاصة باللاتملك، وبين "الموعظة على الجبل" في العهد الجديد فقال: " العهد الجديد" ترك في نفسي انطباعاً مختلفاً، وبخاصة "الموعظة على الجبل" التي نفذت إلى قلبي مباشرةً. وقارنتها "بالجيتا". أن هذه الآيات: " وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر. بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً. ومن أراد

---

[195] المصدر نفسه، ص 322.

[196] قصة تجاربي مع الحقيقة،ص، 88.

أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً" أقول إن هذه الآيات أبهجتني إبهاجاً لا حد له، وذكرتني بقول شامال بهات: "مقابل قدح ماء قدم وجبة طعام سخية". [197] وتأثر غاندي أيضاً بسيرة النبي محمد (ص) فقال: " بعد انتهائي من قراءة الجزء الثاني من حياة الرسول محمد أجد نفسي بحاجة أكثر إلى التعرف على حياته العظيمة. أردت أن أعرف صفات الرجل الذي يملك بدون نزاع قلوب ملايين البشر... لقد أصبحت مقتنعاً كل الاقتناع أن السيف لم يكن الوسيلة التي من خلالها اكتسب الإسلام مكانته، بل كان ذلك من خلال بساطة الرسول مع رقته وصدقه في الوعود وتفانيه وإخلاصه لأصدقائه واتباعه وشجاعته مع ثقته المطلقة في ربه وفي رسالته. هذه الصفات هي التي مهدت الطريق وتخطت المصاعب وليس السيف." "لقد كُتب الكثير حول حقيقة أن الهند التي تضم مسلمين أكثر من أي بلد به أغلبية مسلمة في العالم تقريباً لم تنتج إلا عدداً قليلاً من أبنائها الذين تربوا فيها من الإرهابيين الذين يعملون باسم الإسلام، لكن بعض الفضل لا بد أن نرجعه أيضاً إلى طبيعة السياسات الديمقراطية الهندية، وإلى القبول الواسع في الهند لفكر بطلها المهاتما غاندي، وهي أن هناك الكثير من الهويات غير العرقية الدينية مهمة أيضاً بالنسبة إلى فهم الإنسان لذاته وللعلاقات بين مواطنين لهم خلفيات متنوعة داخل البلاد." [198]

" وفي الغالب لا ينعش العمل الجماعي غير العنيف قدرة الأفراد على التغلب على مخاوفهم ويقوي شجاعتهم للعمل على نحو إبداعي وتعاوني وحسب ، بل ثمة أوقات يُجرد فيها الاحتجاج غير العنيف السلطة العنيفة من سلاحها تجريداً فعلياً. إن النصر المثير لجماعة غرين بيس Greenpeace ضد أضخم شركة

---

[197] قصة تجاربي مع الحقيقة ص 89.

[198] الهوية والعنف، ص، 169.

نفطية متعددة الجنسيات في العالم، رويال دَتش شل Royal Dutch Shell في بحر الشمال من صيف 1995 عندما احتل الناشطون منصة برنت سبار Brent Spar التي شرب الزمان عليها وأكل لمنعها من الغرق، مثال لافت على العمل الجماعي الذي سدد خطاه لا عنف سام. كذلك الأمر بالنسبة إلى الجسارة المثلى لشخصيات شعبية مثل المهاتما غاندي ومارتن لوثر كينغ، أو العمل الجسور لناشطي المجتمع المدني مثل أونغ سان سو كي Aung San Sun Kyi الذين تحدوا طوقاً فرضه الجنود البورميون المدججون بالسلاح بالسير نحوهم سيراً بطيئاً، متحدين إياهم تحدياً صامتاً أن يرفضوا الأوامر، التي صرخ بها ثلاث مرات أن يطلقوا النار عليهم، مرغمين إياهم على الإشاحة بنظرهم إشاحة مخزية، وتنكيس بنادقهم، والسماح لهم بعبور الطوق عبوراً مشرفاً وسط ذهول مؤيديهم الواقفين على جنبات الطوق. تُستخدم فصول الشجاعة هذه بوصفها تذكيراً أساسياً بمسألتين: أولهما، العنف بلية الديمقراطية لأن العنف نكران مقصود للوجود البدني والذهني لفرد أو لجماعة من المدنيين في العالم وحسب؛ وثانيهما، يمكن للعنف أن يولد العنف غالباً، فالعنف حصان جامح يمكن للذين يمتطونه أن يُطرحوا أرضاً، ويتأذوا أذية بالغة، ويسحبوا آخرين في أعقابهم نحو حتفهم. وغالباً ما يقلل منتقدو النزعة السلمية من أهمية الحقيقة القائلة إن من يلجؤون إلى العنف هم غالباً من ضحاياه إلى حد أن العنف يقضي على الروح الديمقراطية الكامنة عند كل من المعتدي والضحية." [199] وعلى حد قول نيتشة "يتعين على من يُواجه وحوشاً الانتباه أن لا يتحول إلى وحش مع مرور الأيام."ومن المستحيل أن يبقى الإنسان الذي يواجه الموت أو الإذلال والنبذ أن يبقى مسالماً؛ فالعنف في هذه الحالة السبيل الوحيد لإنقاذ الذات. "ففي الظروف التي يسفر فيها نبذ العنف أو

---

[199] العنف والديمقراطية ص 169.

التردد في استخدامه عن إبادة ضحاياه على وجه الخصوص يؤازر اللاعنف المعتدي، وهذا ما علل اعتبار العنف معقولاً وأفضل بكثير من الجبن. ولكن في الواقع، ثمة أناس فوضويون نزاعون إلى الوقاحة، وإرهابيون زارعون للقنابل، ومتعصبون، وأعضاء مختلون سوف يسخرون من الاقتراح القائل بإمكانية وجوب خضوع العنف لحديث عقلاني أو اعتبارات إجراء ديمقراطي؛ يعتقدون أن الحق والضرورة في صفهم، فلو قدر لهم التفكير في المسألة، سوف يخلصون إلى أن هوسهم بالعنف كوني لدرجة أنه مبرر تبريراً مطلقاً، وقابل للتطبيق في أي وسط معقول. ونظراً لعدم اقتناعهم بالحديث عن التعددية والمجتمع المدني والديمقراطية، ويريدون الضغط على الزناد لقتل الآخرين أو إعاقتهم ليس إلا." [200] مبدأ اللاعنف يمكن تحقيقه إذا كان في المواجهة من يريد أن يفكر أو أن يحاور؛ ولكن هناك أوقاتاً يجب أن يلجأ فيها ذوو الأخلاق إلى القوة كي يحموا أنفسهم والعالم من أن يستعبدهم أولئك الذين يرون أن القوة هي حجتهم الوحيدة والضمان الوحيد الذي يتفقون عليه. **كنفوشيوس** كان يعتبر أن القوة هي الملجأ الأخير، والأمر الذي يجب أن يكون تابعاً دائماً، لا من الناحية الفكرية فحسب بل كحقيقة ثابتة لسلطة العدالة قال:" إذا ما أحسست بقلبي أنني مخطئ وجب علي أن أقف خائفاً حتى لو كان خصمي أقل الناس قوة، ولكنني لو أحسست بقلبي أنني على صواب فسأسير قدماً حتى لو كنت سأواجه آلافا أو عشرات الآلاف." وكان يؤمن بأن أي جيش لا يمكن أن يحارب حرباً فعالة ما لم يعرف حتى جنوده العاديون لماذا هم يحاربون، وما لم يكونوا مقتنعين بعدالة قضيتهم. [201]

---

[200] العنف والديمقراطية ص 173- 172.

[201] الفكر الصيني ص 45.

دعاة اللاعنف يُضطهدون

" **برتراند راسل** يتساءل بمرارة قائلاً: ألن يكون عالم من البلابل والقبرات والأيائل أفضل من عالمنا البشري القائم على القسوة والظلم والحرب؟ . راسل الفيلسوف البريطاني المدافع العنيد عن الحرية والمعارض للحروب بكل أشكالها حوكم في عام 1916 بسبب معارضته للحرب العالمية الأولى، ودعوته للسلام، فَغُرِم وفُصل من كلية ترينيتي في جامعة كامبردج، وفي عام 1918 أُخضع للمحاكمة مرة أخرى بتهمة التشهير بالحكومة البريطانية والجيش الأمريكي، فكانت النتيجة سجنه لمدة ستة أشهر، وآخر مرة دخل السجن كان عام 1961 بتهمة العصيان المدني، حين كان يتزعم الحملة التي تدعو إلى نزع السلاح النووي من جميع أنحاء العالم. ويُعتبر راسل أحد أعلام الفكر الفلسفي الغربي المعاصرين. حصل على جائزة نوبل عام 1952 تقديراً لإنتاجه العظيم المتنوع، واعترافاً لما قام به دائماً من دفاع عن الإنسانية وذود عن الحرية الفكرية. وأن يُعامل رجل بهذه الأهمية بالسجن والطرد والملاحقة أمر يثير الاستهجان ويترك علامة استفهام كبيرة.

يقول **راسل** في كتابه العلم والدين: إن تهديد الحرية الفكرية هو أكبر في أيامنا هذه مما كان عليه في أي وقت منذ عام 1660 إلا أنه لا يأتي الآن من الكنائس المسيحية، إنه يأتي من الحكومات التي بسبب خطر الفوضى والتفكك الحديثين، ورثت صفة القداسة التي كانت تنتمي إلى السلطات الكهنوتية. إن من واجب رجال العلم وجميع من يقدرون المعرفة العلمية أن يحتجوا ضد الأشكال الجديدة للاضطهاد بدلاً من أن يهنئوا أنفسهم على تآكل الأشياء القديمة. ويجب ألا يقلل هذا الاحتجاج أي حب للعقائد الخاصة التي يدعمها الاضطهاد. إن حب الشيوعية يجب ألا يجعلنا نمتنع عن معرفة

الخطأ في روسيا، أو إدراك أن النظام الذي لا يسمح بنقد عقيدته أن يصبح عائقاً أمام اكتشاف المعرفة الجديدة، ويجب ألا تقودنا كراهية الشيوعية والاشتراكية إلى التغاضي عن الأعمال البربرية التي مورست من أجل قمعها في ألمانيا. أما الدور السلبي للأيديولوجيا في العلم فقد دفع ثمنه علماء بارزون في مختلف المجالات العلمية وفي مختلف الأزمان.

وعلى سبيل المثال أيضاً: **محمد عبده** قال: بوجوب تحكيم العقل وإعلان الحرب على كل أنواع البدع والخرافات، وحذر من مخاطر الاستعمار، وأنظمة الحكم الفاسدة، محمد عبده صاحب منهج فلسفي جمع بين العقل والإيمان، وأنشأ جمعية للتقارب بين الأديان المسيحية والإسلام واليهودية، واعتبر أسس المجتمع هي القيم الدينية كالعدل والمساواة والأخلاق، ولكنه عزل من منصبه في الأزهر بسبب مواقفه السياسية.

لافوازيه كان واحداً من المفكرين المبدعين الكبار، وسيظل اسمه مرتبطاً بخلق فروع جديدة في المعارف العلمية. إنه واضع أسس علم الكيمياء الحديث، ولأن الثورة الفرنسية وقفت موقفاً معادياً إزاء ذوي الشأن كلهم، وخاصة ضد المفوضين العامين للجباية، الذين كانت تشملهم كراهية عامة موجهة إلى جميع المؤسسات المالية المرتبطة بالنظام القديم، ولأن لافوازيه كان مديراً لصندوق القطع، وملحقاً في جمعية النقد، ثم مفوضاً في الخزينة، فقد تعرض للسجن أولاً وبعد شهور عديدة قادته المحكمة الثورية إلى المقصلة في الثامن من آذار عام 1794، وهو لم يتجاوز الخمسين من عمره. وحين علم العالِم **لاغرانج** بالنبأ المرعب أطلق صرخته الشهيرة: "لم يستغرق إسقاط هذا الرأس إلا لحظة، ولكن قرناً من الزمن قد لا يكفي لإنجاب مثيل له." [202] وفي عام 1954 قامت الحكومة الأمريكية بإزاحة الحماية الأمنية عن **روبرت**

---

[202] مجلة عالم الفكر، المجلد 36. ص 245- 246.

أوبنهايمر بسبب الجدال الذي يعود جزء منه إلى تحفظه حول إنتاج سلاح الاندماج النووي (القنبلة الهيدروجينية) ولم تكتفي بهذا بل حاكمت كل من رفض الإدلاء بشهادات ضده، وهذا ما حصل مع الفيزيائي الشهير **دافيد بوم** أستاذ الفيزياء في جامعة كاليفورنيا وأجبر على ترك بلاده." [203] والأمثلة كثيرة على علماء ومفكرين تمت محاكمتهم بسبب آرائهم.

" وأخيراً فإن **يسوع المسيح، وبوذا، وماخافير، ولاو – تسيزي،** و **فرانتسك اسسزسكي** لم يكن لديهم أسلحة، ولا قوى جسدية خارقة، ولا ثراء مادي، ولا أية وسائل دنيوية للتأثير على الملايين، وتحديد المصير التاريخي للأمم والثقافات، وهؤلاء لم يستخدموا الحقد أو الحسد والبخل وما شابه من خصال يتصف بها البشر،وحتى أن أجسادهم لم تكن مبنية على طريقة رافعي الأثقال ومع ذلك فقد تمكنوا وقِلة أخرى من اتباعهم من تغيير وعي وسلوك ملايين البشر البائسين، أعادوا بناء وتشكيل ثقافات كاملة ومنظمات ومؤسسات اجتماعية وحددوا يشكل نهائي مسار تطور التاريخ. ولا يمكن لأي فاتح عظيم أو قائد ثوري أن يُقارن من بعيد بأنصار الحب هؤلاء، من حيث أهمية واستمرارية تلك التغيرات التي أحدثوها." [204]

ما بين التفاؤل والحسرة

ويبقى السؤال المحير عن مستقبل هذا الواقع المرير. هل هناك ما يبعث على الأمل، أم أن مسحة التشاؤم لا بد وأن تبقى طاغية على مستقبل العالم بأسره! ويبقى الشك هو المسيطر، فلا جواب ولا معرفة يمكن أن نحددها. ولكن

---

[203] مجلة عالم الفكر ، المجلد 36. ص 253.

[204] الفكر السياسي ، العدد 45، ص 181.

هناك أقوال وآراء لعظماء بذلوا كل حياتهم وسخروا طاقاتهم من أجل نور المحبة وإعادة الأمل إلى الإنسان الذي افترست الحروب والطغيان أحلامه، وصعقته في صميم كيانه؛ أقوال قد تبعث فينا بعض المشاعر الطيبة وتخرجنا من ظلمات العنف.

رابندرانات طاغور شاعر هندي نتاجه زاخر بالمحبة والنبل، رسالة تهب لنا الطمأنينة وتنقي نفوسنا من الأحزان والقلق القاتم، لتأخذنا إلى آفاق صافية. طاغور الذي أحب أخاه الإنسان دون إي فارق في المنزلة والدين والنجار. قال:

"إن قلبي لن يجد سبيله نحو من ترافقهم،

بل نحو من لا رفيق لهم، بين الفقير والحقير والضائع."

ترك طاغور رسالة محبة لكل قارئ سيقرأ كلماته بعد غيابه عن هذا العالم، فهو أراد الخير لجميع الأجيال، إرادة لا تنكسر حتى بالموت :

" من أنت أيها القارئ، أنت الذي سوف تقرؤني بعد مائة عام؟

ليس في مكنتي أن أبعث إليك بزهرة واحدة من الإكليل الربيعي،

ولا بشعاع مذهب واحد من تلك السحب هناك،

افتح الأبواب وتأمل في المدى القصي،

واجنِ من حديقتك الزاهرة الذكريات العاطرة الفاعمةَ

من الزهر المصوّح منذ مائة عام،

فقد يكون في ميسورك أن تشعر والسرور يملأ عطفيك،

بالفرحة الحية التي تغنَت ذات صباح ربيعي،

مريقةً صوتها الهنيءَ، عبر مائة عام."

لقد كان يريد أن يبقى جسده نقياً وأفكاره بعيدة عن كل زيف، كان يريد أن يقصي كل الشرور من قلبه، ليصل في آخر المطاف نقياً إلى معبد الرب، هناك حيث تكون المعرفة حرة، والكلمات تنبثق من أغوار الإخلاص، وحيث

لا حواجز بين العالم، وحيث لا يضل العقل النيرُ في الصحراء الموحشة من العادات.

" هذه صلاتي إليك يا مولاي، أضرب جذور ذلك الفقر في قلبي.

هب لي القوة لأتحمل في هينةٍ ويسرٍ، آلامي وأفراحي.

هب لي القوة لأجعل قلبي مثمراً في خدماته.

هب لي القوة لأعمل على ألا أتنكر للفقير، وألا أثني ركبتي أمام السلطان المتحدي.

هب لي القوة لأرقى بفكري بعيداً عن السفاسف اليومية.

هب لي القوة لأضع قوتي في شغف تحت إرادتك."

" حين غادر المحاربون قصر مولاهم، أين أخفوا سلطانهم وأين كانت دروعهم وأسلحتهم؟

إنهم يبدون مساكين لا غبين، تتساقط فوقهم السهام غَدِقةً متداركة، حين غادروا قصر الرب.

وحين عاد المحاربون إلى قصر الرب، أين أخفوا سلطانهم؟

لقد ألقوا السيف، ورموا بالقوس والسهم، كان السلام يظلل جباههم، مخلفين وراءهم ثمار حياتهم، يوم عادوا إلى قصر مولاهم."

" سنموت على إيماننا بأن السلم حق والخير حق وإن الواحد الأحد الخالد حق...

لقد بلونا الشرور والخطايا كل يوم وعرفنا الموت...

تُرى أتذهب هدراً قيمة دماء الشهداء ودموع الأمهات في تراب الأرض، أفلا تُشرى الجنة بثمنها؟

وفي الساعة التي يقطع فيها الإنسان عراه الفانية، أفلا تتجلى له اللانهاية آنذاك." [205]

---

[205] أنظر روائع في المسرح والشعر، رابندرانات طاغور.

ونجد في آثار **جبران** الأدبية والفلسفية رسالة واضحة للتمرد على العنف والعبودية ودعوة لتكريس المحبة بدل الحقد والأنانية. " إن الفطرة الأصلية للإنسان كما يراها جبران هي سليمة من الشر، صافية من الصراع صفاء الله منه؛ لأن الإنسان روح من الله مغروسة في الوجود؛ ولهذا كان صراع الخير والشر في تحديهما السائد لدى البشر بدعة ولدها النشاط البشري على الجوهرية الإنسانية التي هي خير وحسب. يقول جبران: " أستطيع أن أحدثكم عن الخير الذي فيكم لا عن الشر... أليس الشر هو بعينه الخير المتألم آلاماً مبرحة من تعطشه ومجاعته؟ أنت صالح يا صاح إذا كنت واحداً مع ذاتك". جبران يبرئ الإنسان الذي يقع ضحية شر ناتج عن تشابك العلاقات البشرية، لا عن التصميم الإرادي في اقتراف هذا الشر؛ لأن تداخل المصالح البشرية وتشابكها يجعل الخير يصدر عن الشر كما يجعل هذا الشر يصدر عن الخير؛ فتنقلب مقاييس القيم ليصبح الخير شراً والشر خيراً، وتضيع علينا بالتالي حقيقة كل منهما: "إن القتيل ليس بريئاً من جريمة القتل ... لا تستطيعون أن تضعوا حداً يفصل بين الأشرار والصالحين أو الأبرياء والمذنبين... وتكون عثرته (أي للشرير) توبيخاً للذين يسيرون أمامه بأقدام سريعة ثابتة لأنهم لم ينقلوا حجر العثار من طريقه" والجوهر الإنساني لجبران يرفض إدانة الخطأ باسم القانون لأن هذا القانون غالباً ما يُحكى بلسان فرد من طبقة اجتماعية معينة هي تسنه وفق مآربها الخاصة؛ وحتى لو لم يكن هذا القانون معبراً عن رغبات فئة معينة من فئة الأثرياء وأصحاب السلطة من ذوي ألقاب الشرف؛ فتنفيذه ينتج دائماً عن ظروف خارجية تحمل منفذه على ارتكاب الشر، ولو لم تكن له حيلة في تفاديه: "كذا يبتدع من المسكين سفاحاً باستمساكه، ومن أبن السلام قاتلاً بقساوته" وقال جبران أكثر من ذلك "أنتم

يا أحبائي الضعفاء شهداء شرائع الإنسان". فكلمات جبران هذه تشير إلى أن المرذولين من المجتمع بسبب شرورهم، والذين يدانون بالناموس هم الضعفاء وحدهم؛ وهم ينقادون بسبب ضعفهم إلى اقتراف هذه الآثام التي تحاربهم شريعة الأقوياء على أساسها. "[206]

ولا يمكن أن يتعارض فكر جبران مع حقيقة مسببات العنف، فالعنف مكبل وأشبه بالعدم، ولا يمكنه أن يتحرر ليبطش إلا إذا تركنا له العنان من خلال الشهوات والطمع والإذلال والخوف، تماماً كما ورد في ثنايا هذا البحث أمامنا.

هذه العودة إلى إنسانية الإنسان، إلى الصورة الخيرة التي أرادها اللّه من خلقه، تمنحنا شعوراً بالأمل والتفاؤل على إمكانية القضاء على الشر المتخفي في أعماق كل الناس، إذا تحرروا من البغضاء والتخاصم والأنانية.

" الخير في الناس مصنوع إذا جبروا — والشر في الناس لا يفنى وإن قبروا
وأكثر الناس آلات تحركها — أصابع الدهر يوماً ثم تنكسر
فلا تقولن هذا عالم علم — ولا تقولن ذاك السيد الوقر
فأفضل الناس قطعان يسير بها — صوت الرعاة ومن لم يمشي يندثر
والعدل في الأرض يُبكي الجن لو سمعوا — به ويستضحكُ الأموات لو نظروا
فالسجن والموت للجانين إن صَغُروا — والمجد والفخر والإثراء إن كبُروا
فسارق الزهر مذموم ومحتقَرٌ — وسارق الحقل يدعى الباسل الخطرُ
وقاتل الجسم مقتول بفعلته — وقاتل الروح لا تدري به البشرُ"[207]

---

[206] جدلية العلاقة بين الفلسفة والأدب، راجع ص 128- 130- 131.

[207] المجموعة الكاملة لجبران، المواكب.

لم تكن ثورة جبران ضد العنف ثورة عادية، بل كانت مندفعة تحركها المعاناة. فالعنف هو عنف الأقوياء على الضعفاء، وكانت معظم أقواله تؤكد على ذلك؛ فالرجل الفقير الذي سلب بعض الطعام من الدير قُبض عليه وقيل أنه شرير، وعندما حكم عليه الأمير بالموت شنقاً قيل عن الأمير هذا أمير فاضل؛ وإذا كان سفك الدماء من المحرمات فمن حلله للأمير، وإذا كان سلب الأموال جريمة فمن جعل من سلب الأرواح فضيلة؟. وهل يجوز أن نقابل الشر بشر أعظم، ونغالب الجريمة بجريمة أكبر، ونقول هذا هو العدل. " وفي أي جيل من الأجيال سار الملائكة بين الناس قائلين: "أحرموا الضعفاء نور الحياة، وافنوا الساقطين بحد السيف، ودوسوا الخطاة بأقدام من حديد؟" [208]

وبحسرة بالغة يعبر **أبو العلاء المعري** عن الأسف والألم لرؤية الشر مستفحلاً بين بني البشر؛ وقد ترك ما كان في عصره من فوضى وظلم، أثراً كبيراً في أشعاره؛ وهذه العبقرية الممزوجة بالحزن لدى المعري جعلته يجزم بأن الناس كلهم أشرار. وكان يتمنى الموت على هذا الواقع الكئيب فقال:

" فليت وليد مات ساعة وضعه ولم   يرتضع من أمه النفساء

على الوليد يجني والد ولو أنهم   ولاة على أمصارهم خطباء."

وهو لم يتهم غيره ليبرر نفسه، فالشر موجود عند الجميع وكذلك العيوب والأخطاء:

" إن مازت الناس أخلاق يعاش بها   فإنهم عند سؤ الطبع أسواء

أو كان كل بني حواء يشبهني   فبئس ما ولدت حواء

بني الدهر مهلاً إن ذممت فعالكم   فإني بنفسي لا محالة أبدأ

بني حواء كيف الأمن منكم   ولم يؤهل بغير الحقد روع"

---

[208] المجموعة الكاملة لجبران، صراخ القبور.

العقل عند أبو العلاء هو وحده المعصوم، ولا يجوز الأخذ بما يُقال فما لخبر أن يصدق دون قياس عقلي، وكل الأخطاء التي يرتكبها الإنسان لا تعود في أصلها إلى طبيعة العقل بل يعود إلى طبيعة الغريزة والشهوات، وحتى العقل قد يخطئ لأنه غير منفصل عن الحياة المادية، ولهذا تختلف أحكام العقل بين الناس، ولكن المعرفة الأكيدة والثقة التامة هي الثقة بالله وحده:

" فلا تقبلن ما يخبرونك ضلة إذا لم يؤيد ما أتوك به العقل

أنكذب العقل في تصديق كاذبهم والعقل أولى بإكرام وتصديق!"[209]

ويا ليت كل الناس تستمع لصوت العقل وتدفع بالغرائز جانباً لربما استطعنا أن نحقق ما نصبو إليه من أمان وسلام ومحبة.

[209] أنظر جدلية العلاقة بن الفلسفة والأدب، أبو العلاء المعري.

الخاتمة

كثيرون هم من يسمون بمناهضي العنف، وكثيرة هي الأصوات التي تدين الأعمال العنيفة. ولكن المشكلة أعقد مما نظن، إن العنف محير نقف أمامه مشدوهين، وكثيراً ما يدان من ينادي بإصلاح وتوفيق، إذا كان صوته يتعارض مع مصالح البعض، أو سيقفل الباب أمام جشع المتاجرين بالسلاح. فالعالم الصاخب اليوم تتنافس فيه المصالح، ولا أحد يريد أن يقتنع فالقناعة مفقودة، والنهم القاتل يزداد كل يوم، والطمع لن يتوقف والتدافع مستمر - ما دام هناك من يريد السيطرة على كل الموارد- ومع وجود الطمع والأنانية لا أحد سيربح والخسارة ستكون للجميع.

وإذا كنا قد تحدثنا عن دور المجتمع والسياسة والثقافة والدين نجد أن العنف خاضع لكل هذه العوامل، وهذه العوامل هي من صنع الإنسان، يغذيها ويقويها، فالسياسة خاضعة لإرادة الحكام والقادة، والثقافة هي من بنيات أفكارنا، ورجال الدين ليسوا من الرسل ولا من الأنبياء فأحكامهم وفتاويهم ليست معصومة، والمجتمع هو المسرح التي تتوالى عليه كل الأحداث. ولكن المبدأ الوحيد الذي يبقى أمامنا بسطوعه وإشراقه هو العدالة الإلهية القائمة على التسامح والمحبة والمساواة بين كل البشر.

وأيا كان العنف، وأياً كان الانتقام، يبقى اللاعنف ويبقى التسامح هو المحبب لدى أكثرية الناس. ومن أجمل ما كتب في تمجيد التسامح هذا الدعاء الذي كتبه **فولتير** "في رسالة عن التسامح":

" لا أتوجه بدعائي هذا إلى الناس، بل إليك أنت يا إله الكائنات، وإله العالمين، وإله الأزمنة: إن أذنت لمخلوقات ضعيفة ضائعة في الفضاء الشاسع، لا يدركها سائر الكون، أن تتجاسر فتسألك شيئاً.

أنت يا من أعطيت كل شيء، ويا من أوامره ثابتة سرمدية – تفضل فانظر بعين الرحمة إلى الخطايا الناجمة عن طبيعتنا، ولا تجعل هذه الخطايا مصدراً لمصائبنا. إنك لم تعطنا قلباً ليكره به بعضنا بعضاً. اجعلنا بحيث يعاون بعضنا بعضاً لاحتمال أعباء حياة أليمة عابرة؛ واجعلنا بحيث: الفروق الضئيلة بين الملابس التي تستر أجسامنا الضعيفة، وبين لغاتنا القاصرة، وبين عاداتنا المضحكة، وبين كل قوانيننا وشرائعنا الناقصة، وبين كل آرائنا الحمقاء، وبين كل أحوالنا التي تبدو في عيوننا متباينة ولكنها أمامك متساوية – اجعلنا بحيث كل هذه الفروق الضئيلة – التي تميز الذرات التي تُسمى بني الإنسان – لا تكون علاقات وشارات لإثارة الكراهية والاضطهاد. واجعل أولئك الذين يوقدون الشموع في رائعة النهار احتفالاً بك، يتحملوا أولئك الذين يكتفون بضوء شمسك؛ واجعل أولئك الذين يغطون أثوابهم بقماش أبيض – يقولوا إنه يجب أن نحبك – لا يكرهوا أولئك الذين يقولون نفس الشيء وهم يتدثرون برداء من الصوف الأسود. وليكن سواءً عبادتك بلغة قديمة، وبلغة حديثة، واجعل أولئك المصبوغة ثيابهم بالأحمر أو البنفسجي ويسيطرون على قطعة صغيرة من كومة صغيرة من هذا العالم، ويملكون بعض الشذرات المستديرة من معدن معين - يتمتعوا دون كبرياء بما يسمونه عظمة وثروة، واجعل الآخرين ينظرون إليهم دون حسد، لأنك تعلم أنه ليس في كل هذه الأباطيل ما يستحق الحسد عليه أو التباهي به.

يا ليت الناس جميعاً يتذكرون أنهم أخوة ! وأن يبغضوا الطغيان على النفوس كما يكرهون النهب الذي يسلب بالقوة ثمرة العمل والنشاط الهادئ! وإذا

كانت بلايا الحرب لا مفر منها ، فلا يكرهن بعضنا بعضاً ، ولا يمزقن بعضنا بعضاً في حضن السلام، ولنستعمل لحظة وجودنا في حمدك بآلاف اللغات المختلفة من سيام حتى كاليفورنيا ، على كرمك الذي وهبنا هذه اللحظة". [210]

[210] الأخلاق النظرية، ص 177.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- الكتاب المقدس
- أمارتيا صن، الهوية والعنف، ترجمة سحر توفيق، عالم المعرفة، العدد 352، الكويت، 2008.
- أندريه هاينال، ميكلوس مولنار، جيرار دي بوميج، سيكولوجية التعصب، ترجمة خليل أحمد خليل، دار الساقي، بيروت.
- أمير عبد العزيز، الإنسان في الإسلام، دار الفرقان، عمان، الطبعة الأولى، 1984.
- أنطوان جورج ليشع، إطالة الحياة وسر السباب الدائم، بيروت الطبعة الأولى، 1993.
- أدونيس العكرة، الإرهاب السياسي، دار الطليعة، الطبعة الأولى، بيروت، 1983.
- إمام عبد الفتاح إمام، الطاغية، الطبعة الثالثة، مكتبة مدبولي القاهرة، 1997.
- باربرا ويتمر، الأنماط الثقافية للعنف، ترجمة ممدوح عمران، عالم المعرفة، العدد 337، الكويت 2007.
- أحمد عليان، جدلية العلاقة بين الفلسفة والأدب، دار المنهل اللبناني، الطبعة الأولى، 2000.
- برتراند رسل، أسس لإعادة البناء الاجتماعي، ترجمة إبراهيم النجار، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، بيروت 1987.
- بشير صالح الرشيدي، الحرب وسيكولوجية المجتمع، مكتب الإنماء الاجتماعي، الطبعة الأولى، الكويت 1999.
- توماس بلاس، العنف والإنسان، ترجمة عبد الهادي عبد الرحمن، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، 1990.
- تهاني منيب، عزة سليمان، العنف لدى الشباب الجامعي، مركز الدراسات والبحوث، الرياض، 2007.
- جودت سعيد، مذهب أبن آدم الأول، دار الفكر المعاصر، الطبعة الخامسة، بيروت، 1992.
- جون هيلز- جوليان لوغران – دافيد بياشو، الاستبعاد الاجتماعي، ترجمة محمد الجوهري، عالم المعرفة، العدد 344 الكويت، 2007.

- جون ستوت، المسيحية والقضايا المعاصرة، الطبعة الثالثة، دار الثقافة، القاهرة.
- جون كنيت غالبريت و ستانسلاف مينشيكوف، الرأسمالية والاشتراكية والتعايش السلمي، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، 1990.
- جان جاك لوسركل، غنف اللغة، ترجمة محمد بدوي، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الثانية، بيروت، 2006.
- جون كين، ترجمة: هيثم فرحت، العنف والديمقراطية، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 2011.
- جفري بارندر، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، مكتبة مدبولي القاهرة، الطبعة الثانية، 1996.
- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة، دار الجيل، بيروت.
- جواد كاظم الهنداوي، بحوث في القانون والسياسة، دار الرافدين، بيروت الطبعة الأولى، 2005.
- جيف فو، الحرب الطبقية العالمية، دار الفارابي، الطبعة الأولى، بيروت، 2009.
- حسن مرضي حسن، العدائية، دار الفكر، بيروت، 1994.
- حسن صعب، لبنان العقل لا لبنان العنف، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى، 1989.
- حسنين ابراهيم، ظاهرة العنف السياسي، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، 1992.
- حامد عبد السلام زهران، علم النفس الاجتماعي، عالم الكتب، الطبعة الرابعة، القاهرة 1977.
- رابندرانات طاغور، روائع في المسرح والشعر، ترجمة بديع حقي، دار المدى للثقافة والنشر، الطبعة الأولى، 2003.
- سمير خلف، لبنان في مدار العنف، دار النهار، بيروت، الطبعة الثانية، 2008.
- سير روي كالن، عالم يفيض بسكانه، ترجمة ليلى الجبالي، عالم المعرفة، العدد 213، الكويت 1996.
- سيد قطب، معالم في الطريق، دار الشروق، بيروت 1982.
- عبد الرحمن بدوي، الأخلاق النظرية، وكالة المطبوعات، الكويت، الطبعة الثانية، 1976.

- علـي صـبح، النزاعـات الإقليميـة في نصـف قـرن، دار المنهـل، الطبعـة الأولى، بـيروت، 1998.
- عبـد الـرحمن عمـار، قضـية الإرهـاب بـين الحـق والباطـل، منشـورات اتحـاد الكتـاب العرب، دمشق 2003.
- عـادل عـز الـدين الأشـول، سـيكولوجية الشخصـية، مكتبـة الأنجلـو المصـرية، القـاهرة 1978.
- عبد الرحمن عيسوي، مبحث الجريمة، دار النهضة العربية، بيروت، 1992.
- غاندي، قصة تجاربي مع الحقيقة، دار العلم للملايين، الطبعة السابعة، بيروت 2007.
- فيديريكو مايور – توم فورستتزر، الصفحة الجديدة، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت 1994.
- فرنسيس مور لابية – جوزيف كولينز، الجوع في العـالم، دار الحمـراء، الطبعـة الأولى، 1990.
- فـؤاد ذكريـا، آراء نقديـة في مشـكلات الفكـر والثقافـة، الهيئـة المصـرية العامـة للكتاب، القاهرة، 1975.
- فوزيـة عبـد السـتار، مبـادئ علـم الإجـرام وعلـم العقـاب، دار النهضـة العربيـة، الطبعـة الخامسة، 1985.
- محمـد حسـين فضـل الله، الإسـلام ومنطـق القـوة، الـدار الإسـلامية، بـيروت، الطبعـة الأولى، 1979.
- محمد عبده، الإسلام بين العلم والمدنية، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- مجدي حماد، جامعة الدول العربية، عالم المعرفة، العدد 299، الكويت، 2004.
- ميلسا هاينز، جنوسة الدماغ، عالم المعرفة العدد 353، الكويت 2008.
- نورينا هيرتس، السيطرة الصامتة، عالم المعرفة، العدد 336، الكويت، 2007.
- علي الشامي، الحضارة والدين، دار الإنسانية، الطبعة الثانية، بيروت، 2009.
- علي أسعد وطفة، التربية إزاء تحديات التعصب والعنف، مركز الإمارات للدراسات، الطبعة الأولى، أبو ضبي، 2002.
- علـي عبـد القـادر القهـوجي، علمـي الإجـرام والعقـاب" الـدار الجامعيـة للطباعـة والنشـر، بيروت، 1984.
- فـابريس ويسـمان، في ظـل حـروب عادلـة، مركـز الإمـارات للدراسـات والبحـوث، أبـو ظبي، الطبعة الأولى، 2006.

- محمد علي جمعة، دور الإعلام في التغيير والحراك الاجتماعي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2012.
- محمد جابر الأنصاري، الفكر العربي وصراع الأضداد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثانية، بيروت 1999.
- نبيل عبد الفتاح، عقل الأزمة، دار سشات للدراسات والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، 1993.
- هاينال، سيكولوجية التعصب، ترجمة خليل أحمد خليل، دار الساقي، بيروت، الطبعة الأولى، 1990.
- هج كريل، الفكر الصيني، ترجمة عبد الحميد سليم، الهيئة المصرية العامة للتأليف وللنشر، 1971.
- هوغ، ليفيك، موران، الجماعة السلطة والاتصال، ترجمة نظير جاهل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 1991.
- ويل كيمليكا، أوديسا التعددية الثقافية، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، عالم المعرفة، العدد 377، 2011.
- يوسف يعقوب السلطان، تقنيات الطب البيولوجية وحقوق الإنسان، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الطبعة الأولى، 1996.
- مجلة الثقافة العالمية، العدد 166، الكويت، 2012.
- مجلة الفكر السياسي، العدد 45، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2012.
- مجلة عالم الفكر، المجلد 31، المجلس الوطني للثقافة، الكويت، 2003.
- مجلة عالم الفكر، المجلد 36، المجلس الوطني للثقافة، الكويت، 2007.
- مجلة فكر، 2 تشرين الثاني، الطبعة الأولى، بيروت 2001.

تعريف بالمؤلف

الكاتبة: ندا ذبيان

- شاعرة وباحثة اجتماعية.
- من مواليد لبنان 4/ 9/ 1962.
- حائزة على دبلوم خبرة في علم السكان من الجامعة اللبنانية.
- حائزة على إجازة الفلسفة من الجامعة اللبنانية.
- خبيرة في شؤون ومشاكل الأسرة.
- عضو اتحاد الكتاب اللبنانيين.
- عضو اتحاد الكتاب العرب جمعية البحوث فرع دمشق.
- صدر للكاتبة:

ابتهالات على ضوء القمر 2005.

مع حفيف أوراق الخريف 2006.

عند اكتمال القمر.

الطلاق ومشكلات الزواج 2009.

الدراسات السكانية – مناهج – فلسفات – تناقضات 2011.

- بريد إلكتروني: Nada_Zebyen@hotmail.com

الفهرس